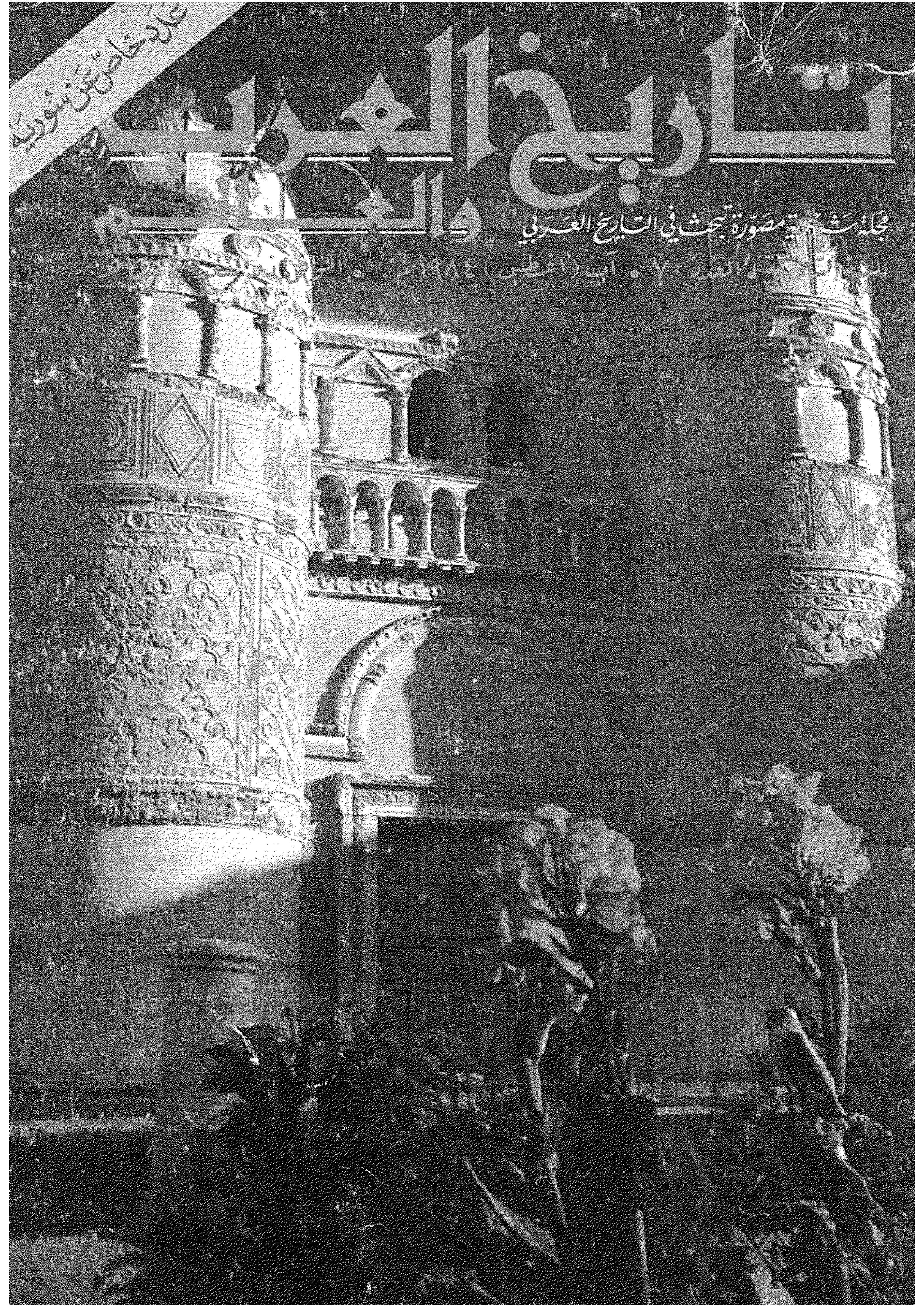

عدد خاص عن سورية
تاريخ العرب والعالم
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي
العدد ٧٠ • آب (أغسطس) ١٩٨٤م •

تاريخ العرب والعالم

العدد ٧٠ ـ آب ١٩٨٤

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب ٥٩٠٥ ـ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

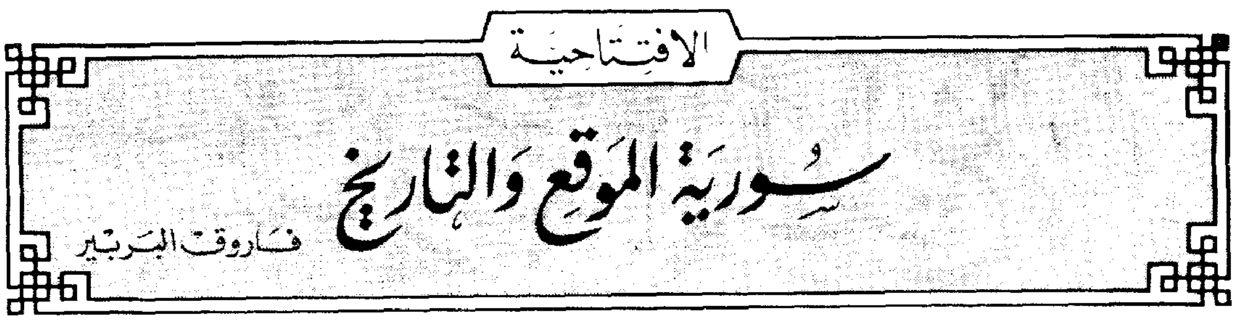
EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 6 - No. 70 - August 1984

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

□ راعينا في إخراج هذا العدد الخاص عن القطر العربي السوري التسلسل التاريخي.



جاء في مطلع كتاب نشر في لندن منذ تسعين عاماً ما خلاصته «يعتبر تاريخ سورية، إلى حد ما، زبدة لتاريخ العالم، وارضها ينبوع احداثه، فمن مدوناته نتعرف إلى الحضارات الانسانية المبكرة، إذ جعلت الطبيعة من سورية ارض لقاء لجميع الامم، فسورية تتطلع غرباً إلى اوروبة، وشرقاً إلى ضفاف الفرات، التي قامت فيها الحضارة الاتحادية القديمة التي ندين لها بالكثير من معارفنا العادية، وكان سكانها في الجنوب على صلة وثيقة مع حضارة وادي النيل الخالدة، وفي الشمال كانت على اتصال بجميع الشعوب «المخيفة» التي ما تزال معلوماتنا عنها قليلة.

لذلك لا غرابة إن كانت سورية ارض المعترك للقوى المتحكمة بالعالم، فالبابليون، والحثيون، والآشوريون، والفرس، والإغريق والرومان قد استولى كل منهم على بعض سورية او كلها: فارض سورية هي التي شهدت الصراع بين كسرى وهرقل، والعرب والبيزنطيين، وبين العرب والتركمان، والتركمان والصليبيين، وكل واحد من هذه الصراعات عبارة عن حلقة من حلقات الصراع السرمدي بين الشرق والعرب.

ولم يقتصر دور سورية على هذا، بل إنها قدمت للعالم اكثر من ذلك: فقد نقل تجارها اصول الحضارة إلى الشعوب الآرية في الغرب، وبعدما انتهى دورها التجاري، ووقعت اولاً تحت الحكم الاغريقي، ثم تحت الحكم الروماني، قامت بدور الوسيط، فقدمت للعالم الحياة الروحية، التي انبعثت من اراضي فلسطين، مما جعل افئدة شعوب الغرب تتجه بكل تقوى نحوها»[1].

إن ما ورد في هذا الكتاب يعد على العموم وثيقة علمية تحوي إحدى حقائق التاريخ الكبرى، إنما يمكن ان نضيف إلى ذلك بعض الاضافات والتعديلات: فمع الايمان بان التراث العربي كل لا يتجزأ، وان كل ما انتجه العرب الأوائل في اي جزء من اجزاء الوطن العربي هو من هذا التراث، فقد تم البرهان في السنين الاخيرة على ان بلاد الشام لم تكن جسراً انتقلت عليه الحضارات، او ارض عراك، او ان شعبها كان له دور الوسيط فحسب، بل الشام هي ارض الحضارة الأولى في التاريخ وشعبها صاحب رسالة متميزة هي رسالة العروبة عبر العصور.

اهل الشام هم الذين بذروا بذور الحضارة الأولى في افريقية واجزاء كبيرة من اوروبة، ودون الدخول بالتفاصيل، يكفي أن نتذكر أن الاسلام، وإن قام في شبه الجزيرة العربية، فاهل الشام هم الذين نقلوه إلى الصين والهند وافريقيا واوروبا: وعندما تعطلت إرادة الشام بسقوط الدولة الأموية، سمعنا بالشعوبية والزندقة والحزبية الدينية. وفي كل مرة هزم العرب او نزلت بهم نازلة، نجد الشام واهله تحملوا وزر الغزو والتحرير، ونستشهد هنا بوقائع الغزو الصليبي، ونتذكر انه عندما جاءت جحافل المغول جرى صدها في عين جالوت الشامية، وفي ايامنا هذه اهناك غير الشام من سد منيع في وجه التوسع الصهيوني والامبريالي؟

وصحيح أن نصيب افريقيا ودورها كان ادنى، إنما علينا ان نتذكر دائماً المصريين القدماء والسودان، والبربر، ومن المؤكد انه كان لهؤلاء ادوارهم الخاصة: لكن على الرغم من كل هذا، فإن بلاد الشام واقعة على طرف واحد من اهم الخزانات البشرية ومنابع الهجرة في التاريخ، والمعني بذلك شبه جزيرة العرب، فبلاد الشام بالنسبة لهذا الخزان كانت دائماً محطة اولى لتسرب بشكل متواصل، وليست نهاية له، لذلك طبعت الشام بالطابع العربي بشكل اصيل.

من هذا المنطلق نجد ان سورية اليوم، تلعب دوراً قيادياً بارزاً ومؤثراً في صد الهجمة الصهيونية الشرسة. ويسرنا ان نقدم للقارىء العربي، هذا العدد الخاص عن سورية، في هذه المرحلة العصيبة من تاريخنا، حين يتعرض الوطن العربي لغزوة فكرية شرسة، لا تستهدف الجيوش والحدود فقط، وإنما التشكيك بتراثنا، ليكون هذا التشكيك والهدم، مقدمة لاضعاف مقاومتنا.

ولا يسعنا في هذا المجال إلا ان ننوه بمساهمات الاخوان السوريين من كتاب ومسؤولين. وفي مقدمة هؤلاء الاستاذ ياسين رجوح، وزير الاعلام، الذي اعطانا الكثير من وقته وفكره.

فإلى كل هؤلاء الاخوان الاعزاء، من سوريين ولبنانيين الذين اعانونا على إعداد هذه الدراسات، توجه «تاريخ العرب والعالم» خالص امتنانها، معاهدة الجميع على مواصلة المسيرة حتى النهاية.

(1) The crusades, by A. Archer and C.L. Kingford, London 1984. pp 1 —2.

سورية التاريخ



□ الرئيس حافظ الأسد.

سؤال: حظيت بلاد الشام باهتمام المؤرخين على اختلاف أجناسهم وتياراتهم أكثر مما حظيت به بلاد أخرى.

هل تعزون ذلك للموقع أم للشعب أم لأسباب أخرى؟

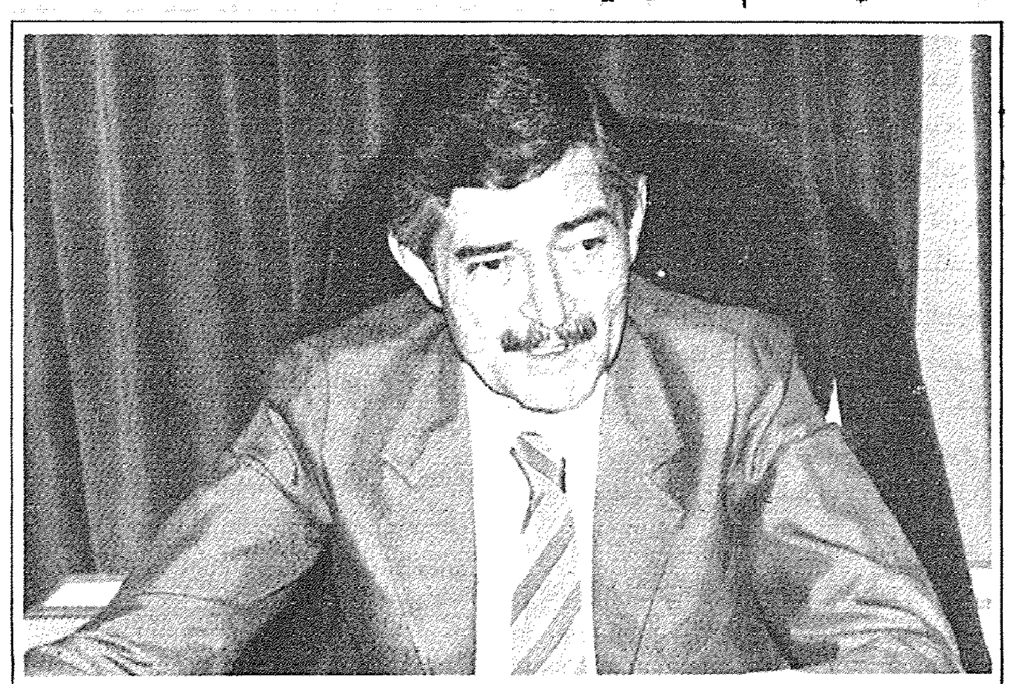
جواب: إن هذا الاهتمام الكبير والواسع الذي تشيرون إليه في سؤالكم والذي دعا بعض المؤرخين إلى وصف بلاد الشام بأنها تشكّل «خلاصة لتاريخ العالم»، يعود في تقديرنا إلى تضافر هذين العاملين معاً وأعني الشعب والموقع وبخاصة في تفاعلهما الايجابي والخلّاق مع البلدان المحيطة ببلاد الشام.

إن هذه البلاد التي تقع في قلب الوطن العربي الواسع، وعند ملتقى القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا، والتي تشرف على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي، كانت منذ القديم وحتى عصرنا هذا، محطة بالغة الأهمية للتجارة والمبادلات الاقتصادية والحضارية بين الشرق والغرب، وتتحكم بالتالي بكثير من طرق

بَين الماضِي والحاضِر والمُستَقبَل

لمعالي الأستاذ ياسين رجّوح وزير الإعلام السّوري

مقابلة مع رئيس تحرير مجلة «تاريخ العرب والعالم»



□ معالي الأستاذ ياسين رجّوح وزير الإعلام.

المواصلات والتجارة.

وعلى أرض هذه البلاد نشأت منذ أقدم العصور الممالك الحضارية التي عنيت بشكل خاص إضافة إلى اكتشاف المعادن والزجاج والخزف والملاحة، عنيت بالكتابة والشرائع والقوانين والتنظيمات. فعلى شواطىء هذه البلاد وقرب اللاذقية ظهرت أول أبجدية في العالم في أوغاريت والتي تعتبر اهم الأبجديات المعروفة كافة وكان لها أبلغ الأثر في نشر المعرفة والثقافة والعلوم بين البشر والمجتمعات. وفي شمالي هذه البلاد قرب حلب قامت مملكة «ايبلا» في الألف الثالث قبل الميلاد. وعلى هذه الأرض أيضاً تفاعلت أقدم الحضارات التي نشأت على أحواض الأنهار الكبرى في المنطقة وأعني النيل والرافدين، وعلى تخومها وقعت أكبر المعارك الكبرى في التاريخ القديم بين امبراطوريات ذلك العالم، وكانت من أهم مراكز الإشعاع والعطاء إبان العصور الرومانية سواء على صعيد الإدارة أو الدبلوماسية أو العقائد أو الحكم حيث ظهر منها أباطرة حكموا روما.

وعندما بزغت شمس الحضارة العربية الإسلامية غدت دمشق عاصمة أول وأكبر دولة عربية موحدة الحكم والسلطات والإدارة من اقاصي شرق الوطن العربي حتى أقاصي مغربه، واستمرت بعد زوال هذه الدولة محافظة على طابعها العربي الأصيل مواجهة أكبر التحديات في العصور الوسطى حين حملت العبء الأكبر في التصدي للغزو المغولي الهمجي الجارف والآتي من الشرق، والغزو الافرنجي الصليبي المتستر بالدين والقادم من الغرب.

ثم حملت العبء الأكبر منذ مطلع عصر النهضة العربية الحديثة في النضال ضد السيطرة العثمانية ثم مواجهة مخططات الاستعمارين الفرنسي والبريطاني قبل الاستقلال

ثم مخططات الهيمنة الأميركية والصهيونية على المنطقة العربية بعد الاستقلال. وهكذا نجد أن للشعب العظيم «وللموقع المتميز تأثير متبادل في جعل سورية، علامة مضيئة في تاريخ البشرية على إمتداده، وإلى أبد الآبدين».

سؤال: من الملاحظ أن سورية لعبت دوراً بارزاً، إن لم يكن الدور الرئيسي في تكوين وقيام الدولة العربية الواحدة الممتدة من المشرق إلى المغرب. ما هي في تصوركم إنعكاسات ذلك على دور سورية في عصر النهضة العربية الحديثة؟

جواب: لقد كان لهذا الدور البارز الذي تشيرون إليه إنعكاسات هامة على تاريخ ومسيرة نضال شعب هذا القطر، يمكنني أن أشير إلى بعض جوانبها الرئيسية في هذا المجال. إن هذا القطر الذي يقع في قلب الوطن العربي ووسطه كان نواة محور أول وأكبر دولة عربية موحدة السلطات والادارة من أقصى المشرق العربي إلى أقصى مغرب الوطن العربي كما أشرت، ولئن تفككت وحدة هذه الدولة فيما بعد بسبب سيطرة بعض عوامل التفرقة الداخلية من عشائرية وقبلية ومذهبية ساعد في تأجيجها ودعمها التحريض الخارجي، فإن تاريخ هذا القطر قد طبع بسمات خاصة أبرزها شعور أبنائه العميق والجارف دائماً بقصور المفاهيم القطرية والاقليمية وبأنهم جزء من الأمة العربية الواحدة وبأن كيانهم ليس إلا جزءا من الكيان العربي الموحد والدولة العربية الواحدة.

وانعكس ذلك بصورة جلية في نضال شعب هذا القطر وتياراته الفكرية والسياسية الدائب من أجل الوحدة وتدعيم المفاهيم القومية الوحدوية الأصيلة إيماناً منهم بأنها هي السبيل الوحيد للمقاومة الناجعة لأعداء الأمة الخارجيين ولتقدمها الحضاري ولصيانة مستقبلها.

وقد تجلى ذلك بصورة واضحة في عصر النهضة العربية الحديثة حيث لعبت سورية وقياداتها الفكرية والسياسية آنذاك الدور الأكبر في إيقاظ الوعي القومي العربي إبان العهد العثماني، وقدمت الشهداء في السادس من أيار لعام ١٩١٦ قربانا لليقظة القومية العربية وفدية خلاص من أجل إندلاع الثورة العربية الكبرى التي انطلقت من سورية صيحتها وتأسست في عاصمتها دمشق عام ١٩٢٠ أول دولة عربيةمستقلة في العصر الحديث عاشت عمر الزهور وقاتلت دفاعاً عن إستقلالها في ميسلون ضد قوات الاحتلال الفرنسي واستمرت في النضال ربع قرن حتى حصلت مجدداً على الاستقلال الوطني الكامل عام ١٩٤٦ دون الارتباط بأية معاهدات إستعمارية تكفل للمستعمر أي نفوذ وهيمنة وكانت بهذا المعنى أول دولة عربية تنال مثل هذا الاستقلال الكامل.

وقاومت سورية بعد إستقلالها جميع المحاولات الاستعمارية التي استهدفت إعادة الهيمنة ومناطق النفوذ على سورية أو الأقطار العربية الأخرى، ووقفت إلى جانب الشعب العربي الفلسطيني منذ بدء الاغتصاب الصهيوني لفلسطين عام ١٩٤٨ وتحملت وما تزال العبء الأكبر في مواجهة هذا العدو الصهيوني. وخاضت مع مصر الشقيقة أبرز حرب تحريرية في تاريخ العرب الحديث.

سؤال: لقد تصدت بلاد الشام لأقوى غزوتين خارجيتين تعرضت لهما الأمة العربية في العصور الوسطى ونعني بهما الغزو الصليبي والغزو المغولي. فهل يعني ذلك أن قدر هذه البلاد وأهلها يحملهما الدور الرئيسي في مواجهة الغزو الصهيوني الاستعماري في عصرنا الراهن؟

جواب: إن تاريخ الشعوب والأمم يعلمنا أن من امتلك الايمان الراسخ والارادة الصلبة والفكر الحضاري الخصب والمتجدد، وكانت له رؤياه القومية المحددة والواضحة يستطيع أن يواجه أعتى التحديات والمحن التي تتعرض لها الشعوب.

وقد كانت بلاد الشام هي الأرض التي انطلق منها الفاتحون العرب لبناء الدولة العربية الواحدة، وعلى تخومها وحدودها رابط الصامدون المدافعون عن ثغور العرب والمسلمين في وجه هجمات البيزنطيين، وكان هذا بالتالي دافعاً

رئيسياً لاستهداف هذه البلاد إضافة إلى دوافع اخرى من قبل الغزوين الصليبـي والمغولي.

ولقد قاومت بلاد الشام موجات غزو التتار الهمجية المدمرة لمنجزات معالم الحضارة العربية الاسلامية وصدت هجمات الفرنجة الصليبيين المتسترين بإسم الدين، وشهد تراب هذه البلاد المعركتين الفاصلتين التي تحطم فيهما إندفاع الغزو المغولي في «عين جالوت»، وبدأ إنهيار الغزو الصليبـي في «حطين».

لقد تحملت بلاد الشام العبء الأكبر في هذه المواجهة وقاتلت الصليبيين قرابة قرنين من الزمن، متشبثة بإيمانها الراسخ بالقدرة على الانتصار على الأعداء الخارجيين رافعة راية الوحدة والتوحيد واستطاعت بالبذل والتضحية والصبر أن تؤمن النصر على أعداء الأمة.

ولعل هذا ما ميز في الماضي وما يميز في عصرنا الراهن سمات الراية القومية الوحدوية التي ترفعها سورية وقدرتها على الجذب والاشعاع، الأمر الذي جعلها في أعين الكثيرين تجسد طموح العرب وآمالهم. ومن هنا تنبع في تقديرنا قوة سورية ودورها الكبير في الصراع على المصائر الكبرى التي تواجهها المنطقة.

لقد كانت سورية وما تزال في القلب من هذه المعركة التي تواجهها الأمة تاريخاً وجغرافية وإرادة. وعندما يواجه العرب في عصرنا الحاضر أشرس غزو إستيطاني صهيوني مدعوم من قبل الامبريالية الأميركية، نرى سورية شعباً وقيادة على الخط الأمامي للمواجهة في هذه المعركة، تتحمل العبء الأكبر في معركة المصير التي يتوقف على نتائجها مستقبل هذه الأمة. وهذا ما أكده، دوماً قائد أمتنا الرئيس حافظ الأسد، الذي أتاحت له محبة شعبه، وتقدير أمته استشفاف المستقبل بخلفية الفهم العميق للتاريخ، ووضع إستراتيجية مواصلة النضال لتحقيق وحدة الأمة. وحققت سورية أول وحدة عربية حقيقية في تاريخ العرب الحديث عام ١٩٥٨، وناضلت ضد الانفصال وأسقطت أركانه ومرتكزاته وكان دائماً طرفاً رئيسياً وفاعلاً وإيجابياً في كل مشروع وحدوي عربـي أو في أي تحرك عربـي وحدوي وخاصة بعد الحركة التصحيحية عام ١٩٧٠ التي قادها السيد الرئيس حافظ الأسد.

سؤال: يلاحظ أن تيارات النضال القومي الوحدوي المرتبط بالاصلاح الاجتماعي قد ظهرت في سورية في العصر الحديث بصورة جلية ومبكرة عن بقية الأقطار العربية. ما هو سبب ذلك في تصوركم وما دور القيادات السياسية والفكرية في تحقيق ذلك؟

جواب: سبق أن تحدثت عن الانعكاسات البارزة للتاريخ والموقع على دور سورية وبلاد الشام بصورة عامة في بلورة المفاهيم القومية العربية الوحدوية، لدى أبنائها وشعورهم العميق بالانتماء العربـي القومي وبأنهم جزء من الأمة العربية، وبأن تحقيق هويتهم القومية لا يتم إلا من خلال هذا الانتماء العربـي والذي يعبر الرئيس حافظ الأسد عنه أبلغ تعبير بقوله: «نحن في سورية، ولو تحدثنا عن سورية لا يمكن أن نشعر بإنتمائنا السوري أبداً، نحن لنا إنتماء أساسي هو إنتماؤنا العربـي. وفي إطار الصراع مع العدو ليست لنا قضايا وطنية إقليمية. الصراع مع العدو الصهيوني وكل ما يتفرع عن هذا الصراع هو شأن قومي عربـي. لا سوري ولا مصري ولا أردني ولا فلسطيني ولا أي شيء آخر، هو عربـي».

إضافة إلى هذه الجوانب الهامة والانعكاسات البارزة للتاريخ والموقع، لا بد من الحديث عن الشعب والمواطن والإنسان في هذا القطر. إن رأسمال أي بلد كان وما يزال إنسانها العامل المنتج، الذي يتقمص روح تاريخه وإنجازات أمته الحضارية ويصل ماضيها المجيد بحاضرها رافعاً راية التقدم والعدالة والاصلاح الاجتماعي.

وسورية التي رفعت منذ مطلع عصر النهضة العربية الحديثة راية المفاهيم القومية الوحدوية أدركت أن هذه المفاهيم لا يمكن أن تتجسد في الواقع العملي في عصرنا الراهن عصر التحولات الاجتماعية والاقتصادية الكبيرة وعصر الهيمنة الاستعمارية والنهب الامبريالي إلا إذا تلازم النضال من أجل تحقيقها بالنضال من أجل إقامة

مجتمع العدالة الاجتماعية والتقدم وإزالة مجتمع القهر والاستغلال.

وهكذا تلازم النضال القومي الوحدوي بالنضال الاجتماعي من أجل التقدم والعدالة وتحرير الوطن من السيطرة الاستعمارية والخارجية والاستغلال الداخلي، وشهدت مسيرة هذا النضال سياسياً وفكرياً تطوراً ملموساً في أساليب عملها وإتساع جماهيرها. وبخاصة منذ ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ وبعد الحركة التصحيحية تحولات إجتماعية وإقتصادية عميقة وملموسة تمت لمصلحة غالبية جماهيرها المنتجة وزادت من قوتها وتأثيرها، كما أقامت قوات مسلحة قوية يحسب لها حساب كبير لدى العدو الصهيوني. إن ذكر هذه الأمور ليس من قبيل التباهي أو التذكير بل محاولة للاجابة على بعض جوانب هذا السؤال.

سؤال: يتحدث بعض المؤرخين الغربيين المتتبعين للصراع العربي الصهيوني عن تصدع في الموقف العربي الموحد تجاه التحدي الصهيوني الذي يواجه الأمة العربية. ما هو في تصوركم دور سورية في بناء هذا الموقف الموحد لمواجهة هذا التحدي؟

جواب: لقد كان هذا التصدع الذي تشير إليه أملاً لدى العدو الصهيوني وأعداء الأمة، منذ المواجهة الأولى مع الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨، وإذاكان الموقف العربي الرسمي تجاه العدو الصهيوني خلال مسيرة هذا الصراع قد شهد تصدعاً بعد زيارة السادات للكيان الصهيوني وتوقيعه معاهدة كامب دافيد، أو عند توقيع إتفاق الاذعان مع العدو الصهيوني في لبنان في ١٧ أيار عام ١٩٨٣، كما يرى هؤلاء المؤرخون المتتبعون، فإن الموقف الشعبي العربي لم يعرف هذا التصدع، بل برهنت المقاومة الواسعة لاتفاقيات كامب دافيد وجهود تطبيع العلاقات المصرية مع الكيان الصهيوني من قبل شعبنا العربي في مصر كذلك تصاعد المقاومة الوطنية الباسلة للاحتلال الصهيوني لجزء واسع من لبنان في الجنوب ونجاح القوى الوطنية اللبنانية في إسقاط إتفاق الاذعان مع العدو الصهيوني، لقد برهن ذلك على رفض أمتنا العربية الشامل لمنطق وسياسات الاستسلام والتخاذل تجاه العدو الصهيوني.

وقد لعبت سورية من منطلق ثبات منطلقاتها القومية والاستراتيجية وبفضل قيادتها التاريخية التي يجسّدها الرئيس الأسد بما يملكه من وضوح في الرؤية وتحديد دقيق للأهداف وبعد نظر ثاقب وإرادة صلبة وتجربة سياسية غنية ومحنكة ــ الدور الرئيسي والمحرك والمستقطب لكل الجهود العربية النضالية التي أدت إلى إسقاط أبرز المكاسب التي استهدفها العدو الصهيوني من غزوه للبنان، كما أنها أسهمت في حصر جزء كبير من النتائج الخطيرة لاتفاقيات كامب دافيد على الموقف العربي.

لقد لعبت سورية الدور الرئيسي في إقامة جبهة الصمود والتصدي وفي بلورة قرارات قمة بغداد التي أكدت مركزية القضية الفلسطينية بالنسبة للنضال لعربي وقومية هذه القضية، كما لعبت الدور الرئيسي في الحفاظ على قرارات هذه القمة وتطبيق مقرراتها على نحو سليم بعيد عن كل إنحراف، واستمرت في مواجهتها للعدو الصهيوني بكافة الوسائل المتاحة تناضل بكل دأب من أجل إقامة توازن استراتيجي مع العدو الصهيوني ومن أجل إقامة تضامن عربي فعال ضد العدو الصهيوني.

إن سورية بقيادة الرئيس حافظ الأسد في ثباتها على منطلقاتها القومية والاستراتيجية هذه، وفي نضالها من أجل بناء تضامن عربي ذي محتوى نضالي، وفي سعيها لبناء قدرتها الاقتصادية والعسكرية الذاتية وإستعدادها للنضال والتضحية وإيمانها بوحدة أمتها العربية قد برهنت على أنها قادرة على مواجهة مخططات الأعداء الصهاينة ومن يدعمهم وإحباط هذه المخططات وستظل ثابتة الموقف في وجه الهجمة الامبريالية الصهيونية واثقة بنفسها وبأمتها، مؤمنة دائماً بأن قوة العرب في وحدتهم تعمل دائماً من أجل الوحدة ولا تضع شرطاً للوحدة ــ كما قال الرئيس الأسد ــ إلا تحقيق الوحدة، إيماناً منها بأن قوة الموقف العربي ككل ستزداد وتتضاعف عشرات المرات لدى كل إنجاز وحدوي نحققه على الأرض العربية.

ابلا من الألف إلى الياء

د. عدنان البني(*)

مقدمة:



عالجنا موضوع اكتشاف مدينة إبلا في موقع تل مرديخ كما عالجه غيرنا في مناسبات ومواضع شتى. ومع تقدم أعمال التنقيب والدراسة لا بد من عودة إلى الموضوع في أضواء أكثر سطوعا وحداثة. وحديث الآثار، وعلى الأخص حديث المكتشفات الأثرية، فيه ثقافة وتشويق وعلاقة مباشرة بالتراث القومي والتراث الانساني وبالقضايا المعاصرة ثم إن الكشوف الباهرة كالمخترعات والمذاهب الجديدة تشد الناس إلى الحديث والجدل.

وفعلا أثير جدل كثير حول ابلا، وحول محفوظاتها بشكل أخص. وليس في ذلك ما يدعو الى الاستغراب فمثل ذلك حدث مثلا في مناسبة كشف حضارة أوغاريت ومن قبل عند معرفة الأساطير البابلية وشريعة حمورابي. وغير ذلك كثير. ان الخطر في مثل هذه الأحوال هي أن موضوع الجدل يلج فيه المختص وغير المختص والعالم والهاوي المتأدب، وبكلمة يتصدى له من يجب ومن لا يجب. ويثور الصياح والانفعال فلا يفهم أحد أحدا. كل يظن ــ بدوافع مختلفة ــ انه مبعوث العناية الالهية لحسم الموقف.

وبمناسبة اكتشاف ابلا ضاعت الأبعاد الحقيقية لهذا الحدث الأثري الفريد بين الأثريين التوراثين الذي حاولوا، بغباء أو ذكاء، استغلال الحدث، وبين بعض «المدافعين» الذين ضخموا خطورة الموضوع وانفعلوا دون طائل.

ونود قبل أن نستغرق في وصف الحدث وتقييمه ــ اثريا ــ أن نؤكد أن موجة التشويش قد انحسرت تماما ــ على الأقل في الأوساط العلمية بلا استثناء ــ (راجع مقالنا عن الكتابة المسمارية وابلا في مجلة التراث العربي العدد الرابع ١٩٨١). «كانوا ثلاثة يتزعمون استغلال ابلا لتأكيد مصداقية توراة اليهود وأحيانا ربط احداثها بأحداث التاريخ الابلي وقد تراجع احدهم ومات الثاني وانعزل الثالث». وقبل أن نعرض لبعض التقديرات الجديدة للموقف، لابد من أن نعود إلى الأحداث الرئيسية في قصة ابلا كمدينة وكمملكة وكحدث اثري.

ذكر ابلا في النصوص القديمة:

إن أقدم ذكر لابلا ورد في نص من عهد سرجون ملك الأكاديين حوالي (٢٣٤٠ ــ ٢٢٨٤ق. م) بمناسبة حربه ضدها. ثم يذكر حفيده نارام سين (٢٢٦٠ ــ ٢٢٢٣ق. م) هدمه لها مع مدينة أرمان (حلب على الغالب) ويتفاخر بأنه «**استولى على المدينة التي لم يأخذها احد قبله منذ وجدت الخليقة**».

وفي القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد يذكر غوديا ملك لاغاش (تللو الحالية في العراق) استيراد الخشب من مدينة أورشو «**في هضبة ابلا**».

□ د. عدنان البني: مدير التنقيب والدراسات الأثرية ــ دمشق.

(*) شاعت كتابة إبلا بشكل (ايبلا) تاكيدا للكسر، علما بان الكسر هنا غير مؤكد وحتى إذا تحقق الكسر لا نجد ضرورة للياء. ونعطي مثلا على ذلك «إهدن» و «إبطع».



□ تل مرديخ ــ إبلا ــ باحة الاستقبال في القصر العائد للألف الثالث

وفي القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد نجد ذكرا لابلا في نص من عهد مملكة أور الثالثة. وكانت ابلا آنئذ قد أخذت تنتعش بعد خرابها. كما ذكرت حوالي ذلك التاريخ في نص من نصوص سلالة ايسن الأكادية ـ الأمورية في الرافدين.

وكانت ابلا في القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد اكبر مركز سياسي في المنطقة الشمالية من سورية غير انها في عهد حمورابي تبعت مملكة حلب.

وهناك من القرن الثامن عشر قبل الميلاد ذكر لتزاوج بين الأسرتين المالكتين في ابلا والالاخ (تل عطشانة السورية وهي حاليا في لواء اسكندرون السليب).

وحوالي ١٦٠٠ قبل الميلاد انحدرت ابلا وتهدمت نتيجة غزوات الحثيين (ختوسيل الأول ومرسل الأول).

وقد عاد ذكر ابلا في عهد الفرعون تحوتمس الثالث (القرن الخامس عشر قبل الميلاد) حيث تحدث عنها في أحد نصوص المنقوشة على عمود في معبد الكرنك بالأقصر **كمقاطعة** اجتازها في سيره نحو الفرات.

قبل مجيء البعثة الايطالية:

في ١٢ نيسان ١٩٥٥، أخبر مراقب آثار حماه مديرية آثار المنطقة الشمالية في سورية أن حوضا أثريا بازلتيا قد عثر عليه في تل مرديخ الواقع قرب بلدة سراقب التابعة آنئذ لقضاء المعرة، التل على بعد خمسة وخمسين كيلو مترا جنوبي شرقي حلب وعلى بعد كيلو مترين إلى الشرق من الطريق العام الذاهب الى حماة. وقد عزز ذلك بتقارير عن الاكتشاف. فأوفدت المديرية المذكورة لجنة لتقصي الحقائق فقدمت تقريرا في مايو ١٩٥٥ بتوقيع المساعد الفني صبحي الصواف يشيد بأهمية التل ويتصور انه موقع مدينة «تونيب» المذكورة في رقم بوغاز كوي عاصمة الحثيين. ويذكر في التقرير العثور على جزء صغير من رقيم مسماري في التل ويقترح أخيرا إجراء بعض الأسبار والحفريات فيه.

أدرج موضوع التنقيب في تل مرديخ فعلا في برنامج عمل (١٩٥٨)، ولكن في هذا العام تم الكشف عن أكثر من عشرين مدفنا في تدمر، وحول جهازنا كله إلى تدمر وبقي تل مرديخ في قائمة مواقع التنقيب المقبلة بضع سنوات، حتى جاءت المناسبة.

البعثة الايطالية والأحداث الأساسية:

جاء الأستاذ باولو ماتييه باسم جامعة روما يفتش عن موقع ينقب فيه وذلك في أيلول (١٩٦٣)، وزار بتشجيع من المديرية العامة للآثار والمتاحف تدمر والساحل والمنطقتين الوسطى والشمالية، وخلال زيارته أوقفناه على موضوع تل مرديخ.

وبعد أن مال للتنقيب في الساحل عزم على العمل في تل مرديخ. وفي ١٤ تشرين الأول ١٩٦٣، حصلت البعثة الايطالية على رخصة التنقيب الرسمية باسم معهد دراسات الشرق الأدنى بجامعة روما في تل مرديخ وآفس المجاور. وتمت المباشرة بالتنقيب في أيلول ١٩٦٤. وتم أول كشف أثري ذي بال عام ١٩٦٥. وهو عبارة عن جرن من الحجر الكلسي عليه مشاهد ميتولوجية، ويعود للألف الثالث قبل الميلاد كما عثر على منحوتة من الحجر البازلتي تمثل ربا جالسا على كرسي.

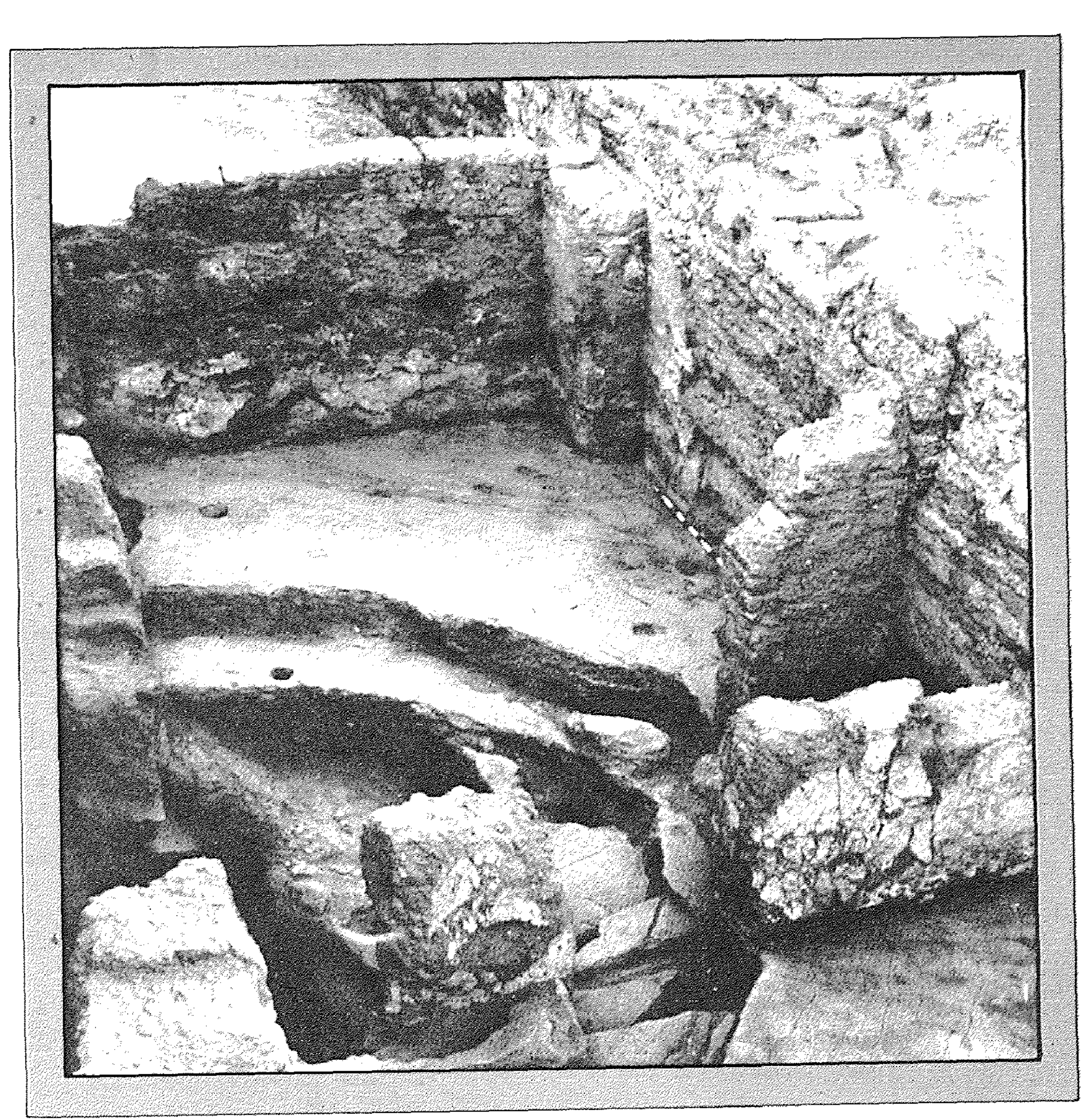
وفي موسم ١٩٦٨ بدأ التعرف على اسم الموقع اثر ظهور تمثال في السوية الأمورية في معبد الربة عشتار أقامه **«إبت لم بن أجرش خب ملك ابلا»**.

إثر هذا الاكتشاف أصبح من الواضح أن المدينة الجاثية في تل مرديخ هي ابلا المفقودة.

وبعد صبر طويل وسنوات عجاف نسبيا، سعدت البعثة في ١٩٧٣ بظهور القصر الملكي لسلالة ابلا الأولى في الألف الثالث قبل الميلاد وفي آب ١٩٧٤ ظهر أربعون رقيما مسماريا وفي ١٩٧٥ اخذت تظهر الرقم بالمئات ثم استكملت في ١٩٧٦.

تل مرديخ أثريا (ستراتيغرافيا وكرونولوجيا):

تل مرديخ من تلال الدرجة الأولى الذي يتصف بشكل مدينة منبسطة مسورة واكمة متوسطة يقوم عليها الحي الرئيسي الرسمي،



□ تل مرديخ ــ إبلا ــ حجرة المحفوظات وترى آثار الرفوف الخشبية الزائلة.

وهو بمثابة «الاكروبول»، تبلغ مساحة التل ٥٦ هكتارا. تل مرديخ يقوم في موقع استراتيجي وزراعي هام وكانت منطقته قديما مشجرة وفيها أحراش كما تدل النصوص.

لا نعرف متى أطلق اسم ابلا على الموقع ولكن نعرف أنه يعود على الأقل إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وليس له معنى واضح في المفردات المشتركة للغات الجزيرة العربية وقد قرب معناه من البياض أو من التفاف الشجر وما يزال الأمر قيد الدراسة.

على كل حال ان أقدم الفترات السكنية المعروفة في هذا الموقع حتى الآن يعود إلى النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد. وقد تؤدي التنقيبات إلى معرفة عصر أقدم.

وعلى هذا فان «الستراتيغرافية» الأثرية في تل مرديخ/ ابلا تكون من الأدنى وإلى الأعلى على الشكل التالي حسب تقسيمات البعثة الايطالية وحسب ما كشف حتى الآن.

السوية الأولى:

وتقع في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد وحتى حوالي ٢٩٠٠ قبل الميلاد وتغطي

أواخر طور العبيد وطور أوروك وجمدة نصر.

السوية الثانية:

وهي تغطي الألف الثالث (طور ما قبل السلالات المبكرة والسلالة الأكادية وسلالة لاغاش واور الثالثة في الرافدين)، وتسميها البعثة الايطالية «الفترة قبيل السورية» وتقسمها إلى اطور ثلاثة تقابل عصر البرونز القديم الأول حتى الثالث ثم الرابع (أ) والرابع (ب) وهي أهم فترات التل وأغناها بالمنشآت المعمارية والمخلفات الحضارية.

السوية الثالثة:

تمتد من حوالي ٢٠٠٠ إلى حوالي ١٦٠٠ قبل الميلاد وهي تقريبا تقابل تاريخيا هجرة الأموريين الكنعانين إلى الرافدين وسورية وقيام دولهم في الهلال الخصيب وتسمى البعثة الايطالية هذه الفترة «السورية القديمة»، وتقسمها إلى طورين يعادلان عصر البرونز الوسيط الأول والثاني وانتهت بمحنه حريق.

السوية الرابعة:

تمتد من حوالي ١٦٠٠ إلى حوالي ١٢٠٠ قبل الميلاد وتسميها البعثة الايطالية الفترة «السورية الوسيطة»، وتقسمها طورين يقابلهما عصر البرونز الحديث الأول والثاني ولم تسكن ابلا كلها آنئذ بل تركزت المنشآت في الأكروبول حول المعبد.

السوية الخامسة:

وهي تمتد من حوالي ١٢٠٠ حتى القرن السادس قبل الميلاد وتسميها البعثة بالفترة «السورية الحديثة» ويقابلها تاريخيا موجة الأراميين وتأسيس ممالكهم وقيام الدولة الأشورية والكدانية وتشمل ما يسمى بعصر الحديد بشكل كامل ولم تكن ابلا آنئذ إلا قرية بسيطة لا نعرف ان كانت تحتفظ باسمها.

السوية السادسة:

تغطي الفترة من سقوط الدولة الكلدانية (٥٣٩ق.م) الى نهاية العصر الهلينستي (٦٣ق.م.).

السوية السابعة:

فترة العهد الروماني المتأخر والعهد البيزنطي. ولم تترك سوى بعض القبور فيما نعرف حتى الآن.

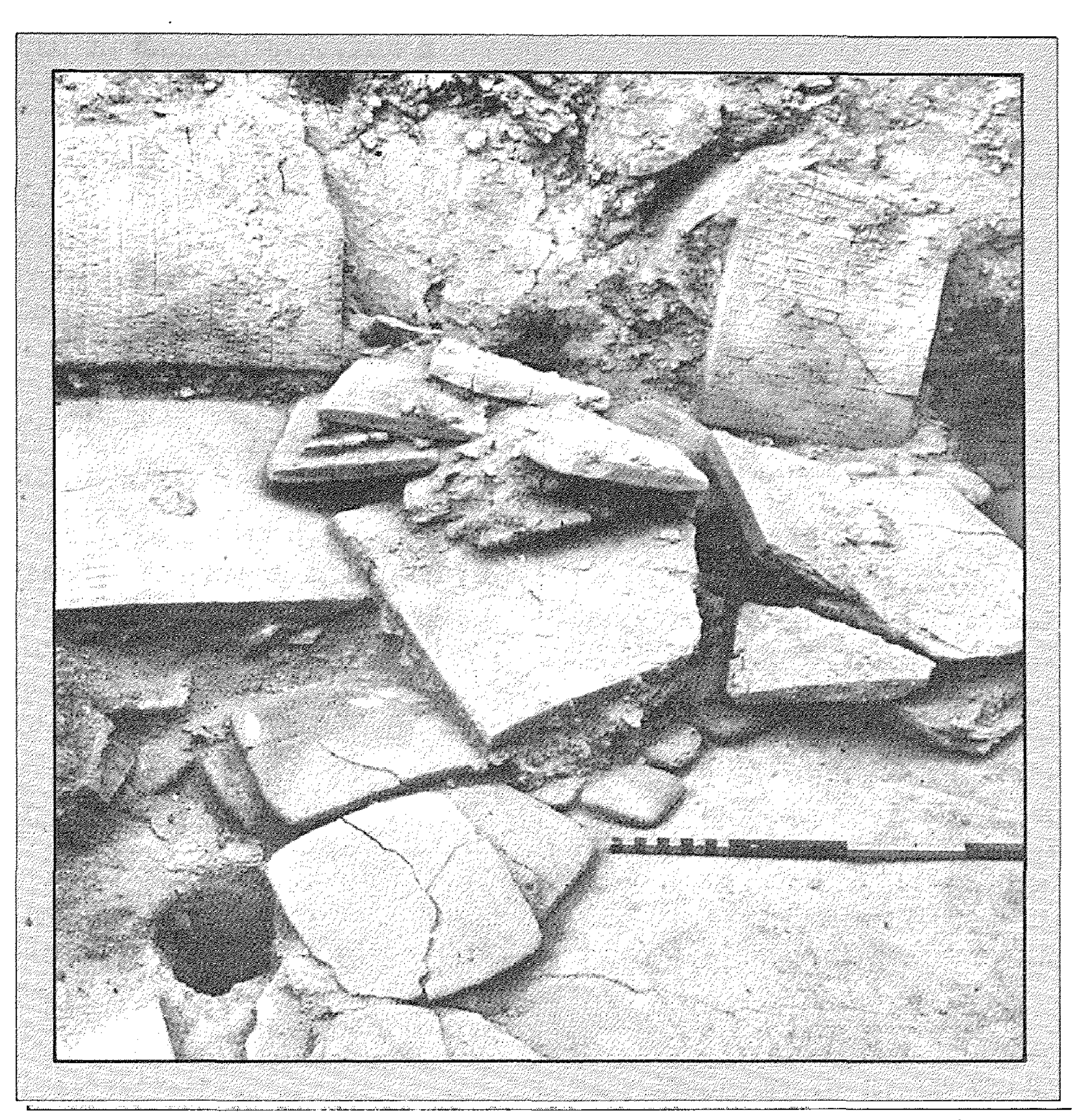
وعلى الأسوار عند مدخل تل المرديخ رأينا كتابات عربية معروفة من العهد الأموي لا ندري ان كانت تواكبها طبقة سكنية من ذلك العهد.

ابلا من خلال التنقيب والمكتشفات:

ان هذه المدينة التي كانت رقعتها، كما ذكرنا، تغطي حوالي ستة وخمسين هكتارا كان يتوسطها حي عال «اكروبول» يضم القصر أو القصور الملكية وبعض المعابد وأهمها معبد عشتار، المجدد في الألف الثاني، والمراكز الادارية التابعة للقصر، وكانت تحدق بالمدينة أسوار ضخمة ترابية مكسوة بالحجارة. وقد يبلغ سمك هذه الأسوار عند القاعدة ٦٠ مترا. وللمدينة أربعة ابواب معززة بأبراج. والمداخل مدعمة جدرانها بصفائح الحجارة البازلتية والكلسية. ومن أبواب المدينة كانت تمتد أربع طرق مشرعة نحو «الاكروبول». وفي المدينة الواطئة عدة أحياء سكنية تتخللها مساحات غير مبنية لعلها كانت تستخدم للزراعة، والابار متوفرة في المدينة، والماء يجمع في صهاريج والاعتماد الأساسي على مياه المطر.

ومنذ عام ١٩٧٣ يجري التنقيب في السفح الغربي لأكروبول التل وقد أدى ذلك لاكتشاف منشآت الحي الرسمي من الألف الثالث قبل الميلاد وأهمها القصر الملكي المحفوظ أحيانا حتى ارتفاع خمسة أمتار والذي يتصف بخصائص معمارية سورية فريدة، فله قسم إداري مستقل وقسم خاص بالملك يتوسطه باحة العرش المحاطة برواق دائر كان يقوم على أعمدة عالية من الخشب. وفي الطرف الشمالي من الباحة منصة يصعد إليها بدرج صغير وكان الملك يجلس عليها خلال استقبالاته الرسمية.

وفي صدر الباحة باب ودرج يفضي إلى حجرات القصر الداخلية. وكان الدرج فيما مضى مرصعا مزيّنًا.



□ تل مرديخ ــ إبلا ــ منظر لمجموعة من الرقم المسمارية المتساقطة من الرفوف.

والقصر يدل على مفهوم أصيل في عمارة القصور، فالجدران تبلغ قرابة ثلاثة أمتار مع دقة في التفاصيل ومراعاة لعوامل البيئة ولحاجات الحياة المريحة. وهذا التقليد سيستمر ونراه في القصور الآرامية في سورية الشمالية، ويدوم حتى الآن في البيت العربي.

وإلى الغرب من القصر العائد للألف الثالث بني قصر جديد من العهد الأموري حوالي (١٨٠٠ ــ ١٦٠٠ق. م) ولم تزل الحفريات قائمة فيه وتحته ظهرت حتى الآن.مدافن ثلاثة محفورة في الطبقة الصخرية وتضم عشرات الأواني الفخارية وفيها نماذج رائعة من الأسلحة والحلى النادرة المثال في تلك العهود وكل العهود.

والخلاصة أن المكتشفات الأثرية في تل مرديخ/ ابلا قد زودتنا، حتى قبل العثور على المحفوظات الملكية، بمعلومات وافرة عن فن عمران المدن في سورية خلال الألف الثالث وكذلك عن عمارة القصور والمعابد في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد. كما أن تلك المكتشفات كانت بالغة الفائدة في معرفة بعض الفنون والحرف السورية القديمة، كالنسيج العادي والمذهب والصياغة والتنزيل والنقش والنحت والفخار في تلك القرون

المعتمة، كما أنها ألقت، بشكل غير مباشر، الضوء على العلاقات الاقتصادية وعلى طرق المبادلات والتجارة بين سورية والأقطار المجاورة كالرافدين ومصر والأناضول.

واكتشاف غطاء إناء مصري في القصر الملكي العائد للألف الثالث قبل الميلاد يحمل كتابة للفرعون بيبي الأول يوضح ويؤكد تاريخ السلالة الملكية القديمة في ابلا. كما أن العثور على جزأين من سراجين يحملان اسم الفرعون خفرع من السلالة الرابعة يعطينا فكرة دقيقة عن بداية تلك السلالة. أما عهد السلالة الأمورية الأحدث فيتأكد بأثر من الفرعون حوتب رع، الذي حكم ما بين ١٧٧٠ ــ ١٧٦٠ق. م.

ابلا من خلال نصوصها المسمارية:

في حجرة من حجرات القصر العائد للألف الثالث (ويسمى القصر G)، وعند الرواق الشرقي اظهرت معاول التنقيب عام ١٩٧٤ و ١٩٧٥ ما من شأنه أن يعقد الألسنة دهشة. كل السجلات الملكية برزت دفعة واحدة أكواما متصلبة بالحريق، وقد سقطت من رفوف خشبية. وهذه الرُقم التي يصل طول بعضها إلى ٢٥ سم و ٤٠ سم كانت سليمة أو مجزاة تؤلف جميعا ست عشرة ألف قطعة أو تزيد (منها ألفا رقيم سليم وستة آلاف رقيم ناقص وثماني آلاف شظية كما هو وارد في سجلاتنا الرسمية).

والرقم موضوع البحث محررة بالخط المسماري السوري بأجمل ما يكون هذا الخط الهندسي. أما لغتها فهي حسب الاصطلاح من مجموع اللهجات الغربية في الجزيرة العربية، مع سمات من اللهجات الشرقية، ولكنها عريقة في القدم، ومحتواها قمة في الأهمية من حيث وفرة المعلومات وتنوعها. وهي تتعلق بالتجارة الدولية والأوامر الملكية، وبشأن سلوك الحكومة وتصرفاتها وتقارير المسؤولين حول مشاكل الدولة الداخلية والخارجية. ومنها ما يضم وثائق معجمية ونصوصا أدبية وملاحم ورقى سحرية الخ...

وتتماثل لغة ابلا في رأي البعض مع الأكادية وفي رأي البعض الآخر مع الكنعانية وبصورة أخص مع اللهجة الأوغاريتية واللهجة المسماة بالفنيقية. أما الاتجاه الجديد فيسميها اللغة أو اللهجة الابلية دون زيادة أو نقصان. والنصوص الابلية أقدم من النصوص الأكادية بجيلين لأنها أقدم من سرجون الأكادي الذي كان أول من سجلت مآثره بالأكادية. ومهما كان من هذا الأمر فان من المؤكد بأن وثائق ابلا حققت ثورة في دراسة تاريخ الشرق القديم في الألف الثالث قبل الميلاد وأصبحت مصدرا أساسيا لتلك الفترة. وأصبحنا بفضل هذه الوثائق نعرف ستة من ملوك إبلا يؤلفون سلالة كاملة وهم:

١ ــ إجريش خلم.
٢ ــ إركب دمو.
٣ ــ أرانيوم.
٤ ــ إبريوم.
٥ ــ أبي زيش.
٦ ــ دبوجو آدا.

وفي عهد الأمير سقطت ابلا بيد نارمسين الأكادي حفيد سرجون.

كانت ابلا، كما يتضح من النصوص، مركزا لقوة سياسية كبرى وقد هيمنت على ممالك أخرى في الهلال الخصيب كماري وحلب. وكانت قوتها السياسية مستمدة من حيوية اقتصادها، فتجارها يجوبون البلاد من الأناضول لفلسطين ومن البحر المتوسط إلى الرافدين. وتذكر النصوص التجارية الابلية أسماء مدن قديمة وبلاد كثيرة جدا مما يغني معارفنا الجغرافية في عالمنا القديم، خلال الألف الثالث قبل الميلاد. ومن المدن القديمة التي يرد ذكرها «ماري/ تل الحريري» و «إيمار/ مسكنة»، و «كركميش/ جرابلس» و «حران» و «أوغاريت/ راس الشمرة». وقد ذكرت سابقا أسماء كثيرة إلا أن التحفظ أخذ يشمل كثيرا من الأسماء كجبيل وغزة وعكا وسودوم وعمورا. وقد تبين ان مترجم النصوص السابق في البعثة الايطالية كان يصنع كثيرا من الأسماء، أو يقرأها قراءة خاطئة وقد لاحظ العالم استور أن علينا أن نعرف مواقع المدن المذكورة قبل أن نحاول تقريبها من الأسماء الحديثة ويرى أن سودوم هي سرمين في سوريا الشمالية ولا علاقة لها بسودوم التوراة. ويذكر

ليبنسكي أن آكي لا علاقة لها بعكا في فلسطين ويذكر اسم هذه المدينة في منطقة موكيش.

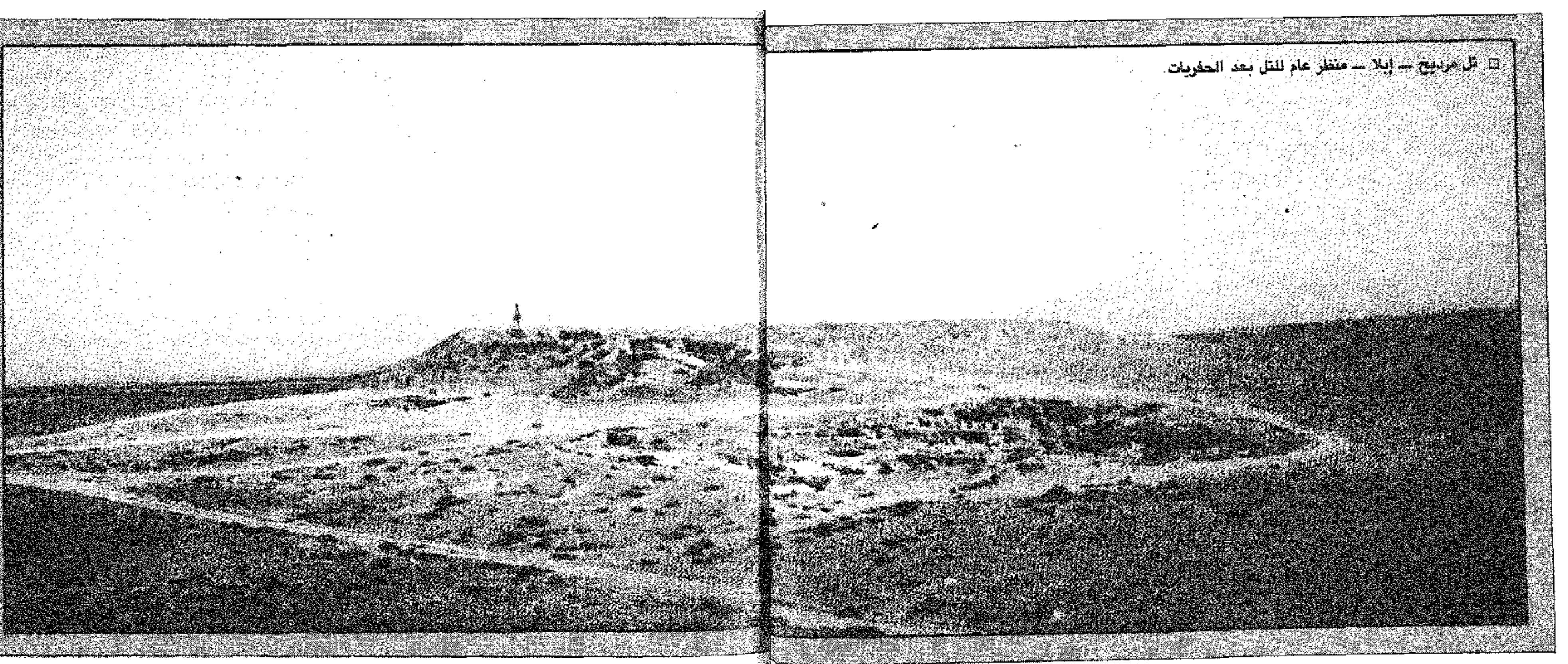
ومن أجل التجارة حاربت ابلا مملكة ماري وانتصرت عليها مرتين كما تنازعت مع أكاد على معادن الأناضول وخشب الجبال الساحلية السورية. وكانت الحرب بينهما سجالا حتى دمرها نرام سين ملك أكاد حوالي ٢٢٥٠ قبل الميلاد، كما ذكرنا من قبل، وأحرق قصرها الملكي وتباهى بأنه فتح مدينة ابلا التي لم يسبق أن فتحها احد من قبل.

وأخيرا فان الرُقم أوردت نصوصا إدارية ذات صفة حقوقية ودبلوماسية وان بعضها يتعلق بوثائق المحاسبة الادارية والتي توضح التنظيم الحكومي للموظفين، كما توضح إدارة المقاطعات وأخيرا التنظيم المالي للدولة وجباية الضرائب.

ويستنتج من كل ذلك بعض المعلومات عن السكان والأوامر الملكية المتعلقة بالمسائل الحقوقية والادارية التي تقتضيها مشاكل الوراثة أو اقتسام الغنائم ولقد لاحظنا لدى اطلاعنا على الوثائق الدبلوماسية بشكل خاص، وجود معاهدات دولية احداها ابرمت بين ابلا وآشور. فضلا عن ذلك، فان المحفوظات الملكية لابلا قد أظهرت بعض النصوص الأدبية، حيث نرى احداها وكأنه ترجمة لمقطع من ملحمة جلجاميش الرافدية، كما ان نصوصا أخرى كانت تتعلق بالكهنوت والرقي السحرية والأناشيد، وهي ربما كانت ترجمات النصوص السومرية التي لم تعرف أصولها إلا بشكل متأخر، والتي كانت قد دونت في ما بين النهرين حوالي عام ١٨٠٠ق. م. عندما كانت اللغة السومرية قد أصبحت لغة ميتة. هذا الحصاد الوفير قلب راسا على عقب المفاهيم التاريخية التي كانت مقبولة حتى الآن حول تاريخ الشرق الأدنى وهذه السلالة التي ضاع ذكرها من النصوص التاريخية المعروفة حتى اليوم ربما تكون قد سيطرت في وقت ما على المنطقة الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط وبين منطقة ما بين النهرين منطلقة من أفكار جديدة، من الراجح أن الملوك الأكاديين وغيرهم تبنوا هذه الأفكار بعدهم.

وماذا حدث بعد هذا الكشف:

إن أهمية الرُقم المسمارية المكتشفة، وخاصة من حيث كميتها وظهورها دفعة واحدة تقريبا، كان أمراً فيه إثارة فريدة. وزاد في هذه الاثارة ان عضو البعثة السابق جيوفاتي بتيناتو، اخذ عن سذاجة أو عن خبث يذكر أن هذه الرقم تحوي كل شيء. وما يُسأل عن موقع أو مدينة أو اسم إلا ويقربه من بعض محتويات رقم ابلا. وذلك سهل لأن الاشارات والرموز المسمارية تحتمل تأويلات كثيرة، كما هو معروف. وكان عيب بيتناتو أنه لا يقدم صورة للنصوص أو نسخا لها فيسهل بذلك مهمة التوراثيين الذين أوقعوه في حبائلهم عند زيارته للولايات المتحدة فأخذ يردد أن كثيرا من الأسماء الواردة في التوراة موجودة في نصوص ابلا. وتبنت اتجاهات صهيونية واضحة في صحافة شبه علمية، بالولايات المتحدة خاصة، حمل الأمر محمل الجد. وخاصة مجلة «الاثارى التوراتي» التي يديرها الصهيوني الأميركي دافيد نويل فريدمان الذي نسج قصة علاقة ابلا بالعبرانيين من نسيج العنكبوت بضع سنوات قبل أن يبدأ بالانسحاب والتنصل.



☐ تل مرديخ — إيبلا — منظر عام للتل بعد الحفريات

بعد الأوساط التوراتية المتصهينة ولجت صحافة سياسية بموضوع ابلا، بسوء نية أو على سبيل الطرافة والاثارة، وتلك الصحافة معروفة الاتجاه كالتايم والنيوزويك والديلي تيليغراف والايكونومست وقائمة طويلة من الصحف الأقل أهمية أو الأقل ضلوعا.

وخلاصة ما أوردته هذه الصحف أن حدث كشف ابلا هو حدث فريد في التاريخ لا يضاهيه حدث، وان لغة ابلا قريبة من العبرية، وان نصوص ابلا فيها أسماء أعلام وأسماء مدن توراتية، وان نصوص ابلا تؤكد صحة التوراة الحالية كمصدر تاريخي، وعلى هذا فان من المحتمل، في رأيهم، أن يكون أصل العبرانيين من ابلا. وهذه التخرُّصات رفضها العالم العلمي جملة وتفصيلا كما سوف نرى، ولكن الخطر ان هذه المقالات الرخيصة كانت تتهم سورية ظلما وعدوانا بعدم الرغبة بنشر هذه الوثائق. وكان المبرز في هذا المجال الديلي تليغراف (عدد ٢٤ نيسان ١٩٧٩).

أما ان ما تحقق في تل مرديخ من كشف فريد لا يضاهيه كشف أثري في التاريخ فلا شك أن فيه كثيرا من المبالغة. ان الكشف فريد ولا شك ولعله أهم كشف في الخمسين سنة الأخيرة. ولكن يجب أن لا ننسى أن كشوفا مماثلة تحققت في القطر العربي السوري برأس الشمرة وتل الحريري وكانت في حينها أكثر دويا.

أما ان لغة ابلا شبيهة بالعبرية فالسؤال ما هي اللغة العبرية؟ ليس في دنيا المؤرخين واللغويين من يجهل أن العبرية لهجة كنعانية كتبت بخط كنعاني (فينيقي) ثم بخط آرامي. وان العبرانيين تكلموا الكنعانية وهي لغة البلاد التي تسربوا إليها، فلا يكون، إذن، التقريب من العبرية إلا للتضليل وسوء النية.

أما ان نصوص ابلا أسماء أعلام شبيهة بما في التوراة، فالأمر من البداهة بحيث لا يحتاج إلى إيضاح فهذه الأسماء، كانت منتشرة في المنطقة انتشارا كبيرا في ابلا وغيرها وفي الرافدين وهي في جلها أسماء كنعانية مركبة، مع «إيل» أي الاله وترجمتها بسيطة فاسرائيل تعني (عبدالله)، واسماعيل تعني (الله يسمع)، ومن الأسماء ما هو مصري كاسم موسى وهناك أسماء حورية وغيرها ولا مجال للتوسع هنا فيها.

هذا وان ابلا سابقة لورود العبرانيين بألف عام. بل ليس في نظام الحكم بابلا ولا في تسلسل سلالتها الملكية ولا في نظامها السياسي والاجتماعي ولا في نشاطها الاقتصادي ولا في معبوداتها وديانتها وطقوسها علاقة أو شبه علاقة ولا بشكل من الأشكال بالعبرانيين، الذين كانوا عندما قدموا بداة رحلا يجوبون الآفاق مع عيالهم ودوابهم وحسب قول ويلز (موجز تاريخ العالم، ص ٩٢) **«ولم يكونوا موحدين ولا متمدنين وليس لهم كتاب يقرأونه»**، فأين هم من الابليين الذين كانت مدينتهم، حسب تعبير باولو ماتييه، تدل على أصالة في الخصائص الفنية والمعمارية وفي المفاهيم الاجتماعية.

إننا أصبحنا نعرف علماء الآثار التوراتيين فعند كل اكتشاف أثري تهتز أعطافهم ويحملون توراتهم تحت آباطهم (حسب تعبير العالم الهولندي أشير فرنكن) ويقولون ان هذا مذكور هنا ثم يقلبون صفحاتهم كأنهم يراجعون «الدليل الأزرق». ان التوراة التي يحملها اليهود حاليا وتتشبث بها خاصة مدرسة البرايت الأثرية الصهيونية هي، أي التوراة، من تأليف اليهود في سبيهم ببابل خلال القرن الخامس أو القرن الرابع قبل الميلاد. وتلك بديهية موجودة في كل الكتب التي تعلم التاريخ ويعرفها حتى تلاميذ المدارس الثانوية. وبديهي أن هذه التوراة التي وضعها اليهود في بابل وشنعوا فيها على ملوكهم وأنبيائهم واعترفوا فيها باغتصاب الأرض وقتل الشعب قد جمعوا في أسفارها أيضا كل ما تعلموه في الوسط الكنعاني والوسط البابلي من قصة الخليقة إلى الطوفان إلى أسطورة كيريت واسطورة ولادة سرجون. الخ. باختصار أن الأثر الكنعاني والبابلي والمصري على توراة بابل شيء معروف لا يطمسه إلا الصهاينة ومن يخدم اهدافهم السياسية.

العلم يحسم الموقف:

وإزاء حملة الافتراء التي سعت لتشويه الموقف المنفتح الذي تقفة السلطات المختصة في سورية مع البعثات الأثرية الأجنبية المرخصة بالتنقيب في أراضيها ونظراً للسطحية والتفاهة

اللتين عولج بهما موضوع رقم ابلا، رأينا في المديرية العامة للآثار والمتاحف وبالاتفاق مع البعثة الأثرية الايطالية العاملة في تل مرديخ ومع جامعة روما أن نفتح ملف ابلا على الملأ.

وسعيا وراء وضع نتائج قراءة رقم ابلا تحت تصرف الأوساط العلمية في العالم بأسرع ما يمكن، وجهت الدعوة إلى الاختصاصيين في قراءة الكتابات المسمارية ــ السومرية ــ الأكادية في العالم. وألفت عام ١٩٧٨ لجنة دولية تضم العدد الأكبر من خيرة الاختصاصيين العالميين.

عقد هؤلاء اجتماعات بدمشق وروما ونظموا عملهم بشكل جيد وهم يعكفون الآن على دراسات الرقم المسمارية المكتشفة في تل مرديخ/ ابلا، كل حسب اهتمامه. وصدرت اعتبارا من العام (١٩٨١) أول دراساتهم المفصلة باسم (**نصوص محفوظات ابلا الملكية**). كما تصدر البعثة الايطالية من جامعة روما دراسات ومقالات حول مواضيع لغوية وأثرية وتاريخية تفصيلية خاصة بابلا، وذلك في مجموعتين الأولى تسمى «**حوليات ابلا ــ Annabi di Ebla**» والثانية «**دراسات إبلية ــ Studi Eblaiti**».

وفي مايو ١٩٨١، عقدت جامعة روما بين السابع والعشرين والتاسع والعشرين منه ندوة عالمية حول مكتشفات تل مرديخ/ ابلا اشترك فيها عدد كبير من علماء اللغات القديمة والآثار وأسهمنا بها شخصيا. وكان عدد البحوث التي القيت خلال هذه الندوة كبيرا أربى على الثلاثين. وكانت بحوثا منهجية وعميقة لا تراعي في الحق لومة لائم، وضعت مسألة ابلا ومكتشفاتها في مسارها الصحيح وأعطت ردا علميا جذريا على التخرصات التي سعت لترويجها عند اكتشاف محفوظات ابلا أوساط توراتية مشبوهة بعلاقتها الوثيقة بالصهيونية. وكان في حصيلة أعمال الندوة إجماع على أن أبلا لا علاقة بها من قريب أو بعيد، ولا من حيث الشكل ولا من حيث المضمون ولا بشكل تقريبي ولا بأي وجه من الوجوه، بالعبرانيين أو التوراة أو قضاة العبرانيين أو ملوكهم.

ان العالم العلمي ليسخر الآن من ذلك العبث اللاعلمي الذي راج في بعض الأوساط الجاهلة بألف باء التاريخ، حتى ان كل الذين قادوا حملة التشويه والتشويش أخذوا يحاولون التنصل منها. لقد كان لتلك الحملة أركان ثلاثة وكلهم من بيئة كهنوتية توراتية:

الأول القس دافيد نويل فريدمان رئيس تحرير مجلة «الاثاري التوراتي» السابق في الولايات المتحدة الأميركية والثاني الأب ميتشل داهود رئيس قسم المعهد التوراتي بروما. والثالث طبعاً هو جيوفاني بيتيناتو لغوي البعثة الايطالية سابقا الذي ارتكز عليه الآخران.

لقد اعترف الأول (أي فريدمان) في مقال جديد له بأنه كان يعتمد في استنتاجاته على تصريحات شفهية كان يقولها له جيوفاني بيتيناتو أو ينقلها له ميتشل داهود. وأن الأخير أعلمه مؤخرا أن بيتيناتو اعترف بأنه أخطأ بقراءة عدد من الأسماء التي كان قربها من بعض أسماء المدن التوراتية، وعلى هذا فهو يتنصل منها. وقال فريدمان أيضا في افتتاحية العدد المذكور من المجلة بما يشبه التراجع: «**لقد كانت محتوياتها (أي رقم ابلا) موضع صراع ومصدر توهمات وادعاءات معاكسة**». كما يقول في صدد المقالة المعتدلة عن ابلا التي كتبها العالم روبرت بيغس في العدد المذكور من المجلة:

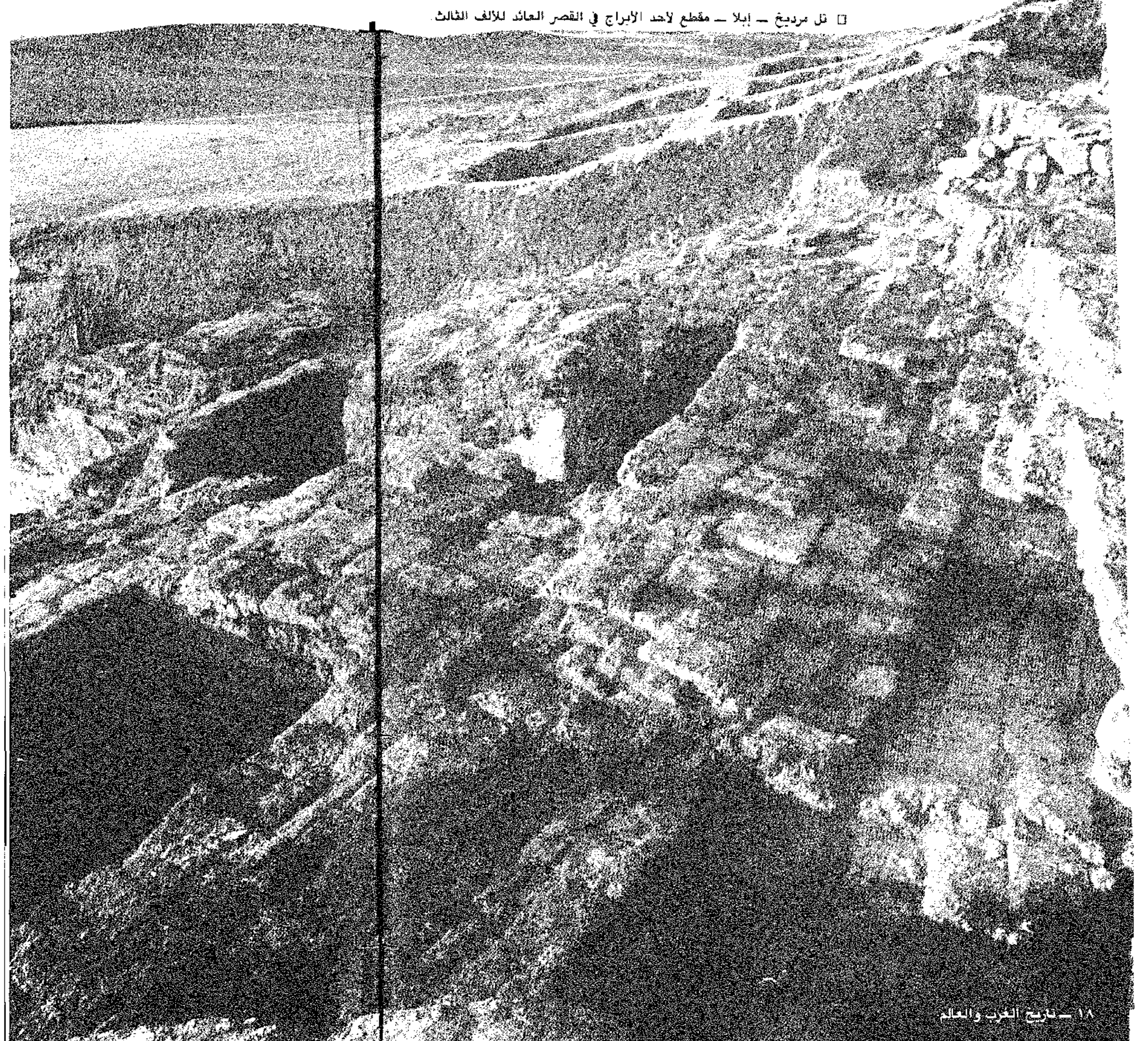
«انها حكم معتدل يجد طريقه بوضوح بين زوابع الاثارة الرخيصة وصخور الشك المفرط».

أما ميتشل داهود (الذي توفي في العام الماضي) فيقول في رسالة كتبها لفريدمان تعليقا على مقال له نشره في مجلة «الاثاري التوراتي» نفسها:

«عندما كنت في الولايات المتحدة سمعت أن ثوركيلد جاكوبسون يشك في قراءة بيتيناتو لنصوص ابلا، وتلك الشكوك عززها تطور معرفتنا بمقاطع الكتابة الابلية».

أما جيوفاني بيتيناتو نفسه فقد أصدر تصريحا عممه على العالم وكان قد نشر في صحافتنا المحلية قال فيه:

«أما عن الصلات المزعومة مع نص التوراة فاني أشعر أن من واجبي أن أوضح بصورة



□ تل مرديخ ــ إبلا ــ مقطع لأحد الأبراج في القصر العائد للألف الثالث.

نهائية أن الأنباء التي نشرتها الصحافة وجاءت في بعض مداخلات زملائنا فيما وراء البحار قد أبرزت اتجاها وخطرا، من واجبي لا ان اتنصل منهما فحسب بل ان احذر منهما الاختصاصيين».

ومنذ أكثر من عام وحتى الآن ظهرت بحوث ومقالات عديدة جديدة في الصحافة العالمية تتصف بالموضوعية وتشهد على انحسار موجة الدجل، نذكر منها مقالا في مجلة (ساينس) الأمريكية، ومقابلة مع جيورجيو بوتشيلاتي وزوجته في مجلة «ميلووكي سانتيل» الاميركية، ومقابلة مع باولو ماتييه في مجلة «ايستوار» الفرنسية، ومقالا في مجلة «جيو» الالمانية الغربية.

وثمة مقال منصف لايفون ريبيول في جريدة «لوموند» الفرنسية يمثل هذا الاتجاه الجديد حيث تقول الكاتبة خاتمة بحثها:

«ان التفسيرات الركيكة والمتسرعة (للنصوص) قد أوهمت البعض بقراءة اسم سودوم وعمورا المذكورتين في سفر الخليقة (من التوراة). كما تردد انه تم الوقوع ولو بشكل مشوه على اسماء ابراهيم وداوود... ان الاختصاصيين في اللغات السامية سرعان ما ابطلوا هذه «الاكتشافات» المزعومة وبينوا ان لغة ابلا بعيدة جدا عن العبرية وان داوود متاخر اكثر من الف عام عن ابلا». وتتابع كاتبة المقال قائلة:

«ان هذه «الاكتشافات» المزعومة كانت كافية لتثير في الصحافة الأميركية حملة لا تصدق نشرت عنها المجلة الأميركية «ساينس» في ٣١ آب ١٩٧٩ سردا جيدا لهذه القصة. وبعد أن تذكر الكاتبة الاتهامات الظالمة التي الرقم وجهت لسورية والسوريين تقول: **«والآن ان كل الرقم (المكتشفة في ابلا) وحتى أجزاء الرقم التي لها بعض الاهمية قد تم التعرف إلى محتواها وسجلها قيد النشر باشراف البعثة الايطالية واللجنة الدولية... وحاليا كل مكتشفات ابلا ورقمها موجودة في متحف حلب. الأولى معروضة للناس والثانية تحت تصرف الاختصاصيين القادرين على دراستها، كما ان صورها قد نشرت بشكل واسع».** ●

بصرى

□ الجانب الشرقي ومدخل المسرح وقد حول إلى قلعة.

لبصرى تاريخ طويل حافل، يرجع إلى ما قبل الإسلام. وآثارها ما تزال شاهدا على ما شهدته من تقلبات الأحداث، وتداول الدول. ولعل أروع ما فيها المسرح الروماني الذي استعاد بعض ماضيه، إذ رمم، وغدا ملتقى فنيا يدوم شهرا كل عام، تقريبا، تعرض فيه المسرحيات وتعزف السمفونيات، ويؤمه زوار الآثار من كل أطراف العالم. فقد بني على نحو يصل فيه الصوت من آخر المسرح إلى أعلى وأبعد مقصورة في الاطار الضخم من المقاصير والمدرجات، المحيطة بالمسرح.

□ د. رياض العالي: باحث في التاريخ والثقافة العربية

الشاهد بآثارها على مراحل التاريخ

د. رياض العالي



□ منظر عام لمسجد الخضر.

كانت بصرى محطة على طريق القوافل قبل الإسلام وبعده. تؤمها من الشام باتجاه الحجاز، أو من الحجاز باتجاه الشام، ويجد فيها المسافرون الراحة بعد عناء، والطمأنينة بعد سفر قلق طويل.

ومن المعروف لدى المؤرخين أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، مر بها أكثر من مرة، يوم كان يسافر مع عمه في القوافل الحجازية، ثم يوم تولى تجارة خديجة رضي الله عنها، زوجته الأولى.

اليوم بصرى مجموعة من البيوت المبنية من حجر البازلت، المبعثرة بين الكروم وحقول القمح، وسط سهول حوران البركانية.

ولبصرى تاريخ مشهود في الحروب، على مر العصور. فألواح تل العمارنة تذكر أن بصرى بين المدن القليلة التي ثارت ضد فرعون. وقد غدت في القرن الأول الميلادي أبرز مركز في شمال مملكة النبط الغنية. وجعلها الرومان، مطلع القرن الثاني، عاصمة الامارة العربية الرومانية

الحديثة، ومقر الجيش الثالث، لذلك زودوها بالمعابد، والشوارع ذات الأعمدة، والأبواب الضخمة، وبقوس نصر تعتبر بقاياه من تحف الآثار السورية اليوم.

وحين أصبح الرومان مسيحيين في القرن الثالث جعلوا من بصرى مقر البطريركية، ومركزاً هاما من مراكز التبشير والنقاش حول الدين. وقد زارها القرطاجي المشهور «أوريجين»، إذ اجتذبه الحوار الديني الذي اشتهر فيها. غير أن هذا الحوار تحول مع الأيام حتى غدا في القرن السادس سبب اقتتال عنيف بين اليعاقبة والنساطرة. وقد بنى اليعاقبة، بعد انتصارهم كاتدرائية ضخمة ثمانية الأضلاع، شبيهة بتلك التي كانت مبنية في شمال سوريا، وكنيسة القديسة صوفيا (أصبحت مسجد اياصوفيا) في القسطنطينية.

في هذه الفترة تحالف اليعاقبة مع الساسانيين، اتقاء هجماء البيزنطيين النساطرة، الذين طردوا من بيزنطة كل يعقوبي.

الفتح العربي:

بعد ثلاث سنوات من انتقال النبي «صلعم» سنة ٦٣٥م، كانت بصرى أولى المدن التي افتتحها العرب المسلمون. ولكنهم افتتحوها سلما، فبطريرك بصرى فتح الأبواب أمام الجيش العربي، وقد اهتدى إلى الاسلام، وانتقلت إلى بصرى جموع من القبائل واستقرت فيها، لأنها ستكون مركزا حربيا، وموقعا استراتيجيا هاما. والواقع أنها كانت قبل ذلك تابعة لامارة الغساسنة في دمشق، وقد وقف الغساسنة المسيحيون إلى جانب العرب المسلمين، في معركة اليرموك الشهيرة بين العرب والروم، مما دعم قدرات الجيش العربي على طرد الروم من ارض العرب.

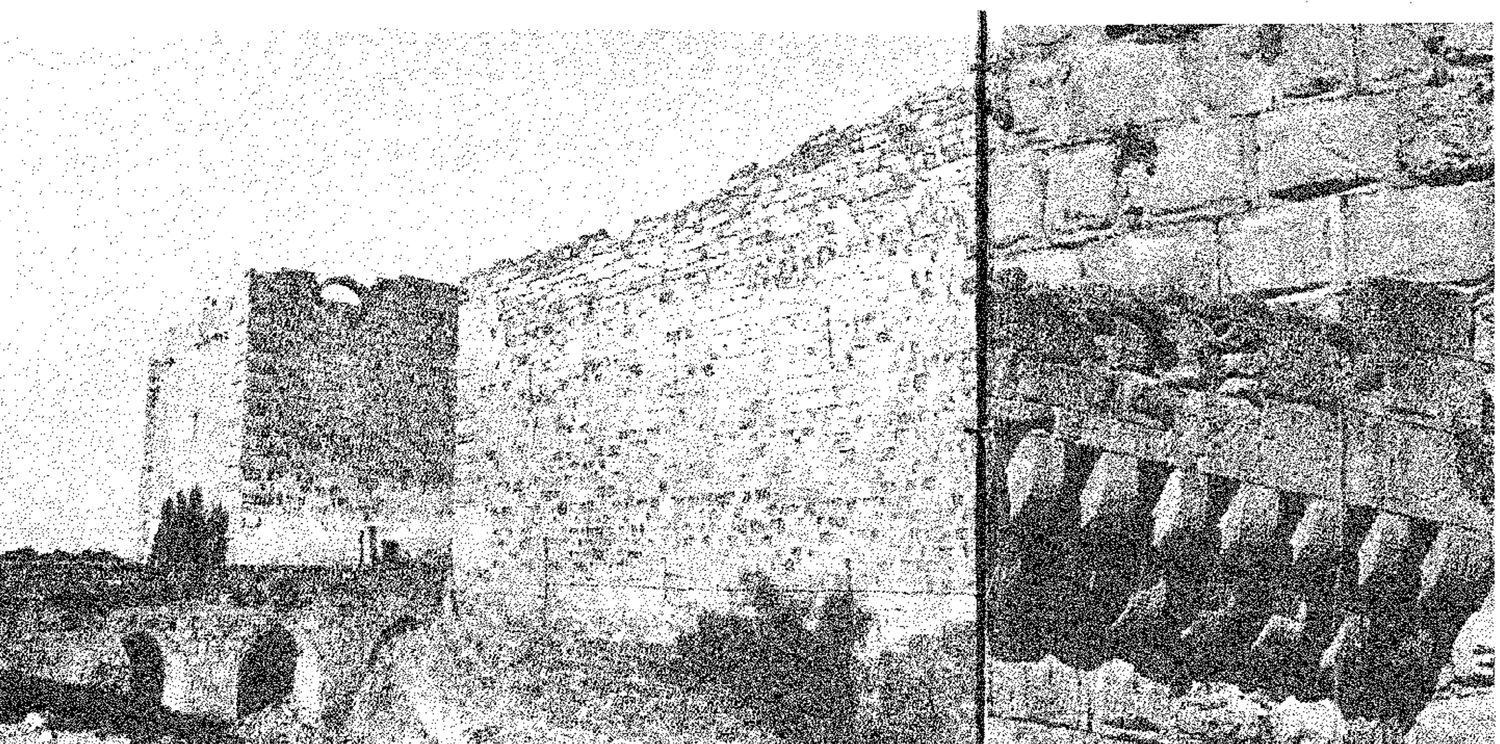
وحين جعل الأمويون دمشق عاصمتهم، اصبحت بصرى تابعة إداريا وحربيا للعاصمة.

أول مصلى:

تطلعنا بقايا الآثار العربية في بصرى على تاريخ تلك الحقبة، بما فيها من شواهد قيمة. فمن جهة نعرف أنها كانت ملتقى الطرق التجارية، ومحطة أساسية على طريق الحج، ونقطة استراتيجية خاصة في الحروب الصليبية.

في هذه المدينة التي تكاد تكون اليوم قرية، ستة وثلاثون جامعا أثريا. إذ كانت الحكومات المتعاقبة تتنافس في بناء الجوامع فيها. ولعل أول مصلّى[ويقال إنه مزار]، في القسم الشمالي من البلاد العربية، بني فيها. وهو ما يزال عند الزاوية الشمالية، لصيقا بالأسوار. ويدعى «مبرك الناقة» يستحضر هذا الاسم إلى الأذهان حادثتين: الأولى أن ناقة النبي (صلعم) بركت في ذلك المكان. والثانية أن الناقة التي كانت تحمل إلى سوريا أول نسخة من القرآن الكريم، أيام الخليفة الثالث، بركت هناك.

والمصلى مكون من غرفتين بسيطتين منفصلتين بقوس منكسرة قليلا، ومرتكزة على أعمدة من حجر البازلت، ويقوم تحتها أول محراب بني في سوريا، اتجاهه صوب مكة المكرمة، قبلة الحج.



□ استحكامات الجهة الشمالية من القلعة.

□ الجسر المتحرك الأيوبي الذي يقود إلى باب القلعة في البرج الشمالي — الغربي.

والمحراب مزين بالصدف، وما تزال فيه كتابة ترجع إلى العهد الأموي، وتذكر بعبور النبي (صلعم) في بصرى: «هذا المحراب مصلى النبي صلى الله عليه وسلم».

ثم بني، بعد زمن من ذاك، جامع ومدرسة، والحقا بالمصلى، الذي بات محجا عزيزا على قلوب المسلمين.

الجامع العمري:

في السنوات الأولى من القرن الثامن الميلادي، بدىء ببناء أول جامع أموي في بصرى. وقد بني على شاكلة مسجد الرسول الكريم في المدينة المنورة. فهو عبارة عن قاعة مسقوفة، تنفتح على ساحة، يحيط بها سور تخللته عدة أبواب. أما تقنية البناء فهي بصراوية، فكل المبنى من البازلت، حتى السقوف والأدراج والأبواب، ويخلو تماما من الخشب.

إنه الجامع العمري الذي يعزى تأسيسه إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكان يضم قاعة مستطيلة للصلاة، يرتكز إلى عمود أساسي، أعلى من الأعمدة الأخرى الجانبية، وثمة قنطرتان مرتكزتان إلى الأعمدة، تنفتح الأولى على الساحة التي تحد الفراغين المسقوفين اللصيقين بالقاعة. يحيط بجناحي القاعة رواق مزدوج، ذو أعمدة. أما سقف القاعة والرواقين، فمكون من صفائح حجرية تستند إلى قناطر من البازلت، بواسطة أعمدة افقية. ومصاريع الأبواب عبارة عن قطع حجرية بازلتية ضخمة. تدور بواسطة بروزين في طرفيها الأسفل والأعلى، داخلين في ثقبين في العتبتين العليا والسفلى. أما السلم فمن حجر البازلت، وهي تقود إلى السطح حيث كان المؤذن يؤذن. وهي عبارة عن حجارة بارزة من الجدار إلى خارجه.

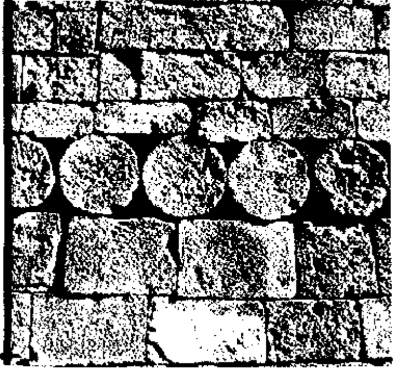
في العهد السلجوقي اضيف إلى الجامع رواق

□ مخطط مدينة بصرى.

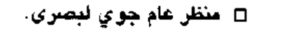
١ ديربحيرا.
٢ كنيسة بيزنطية.
٣ جامع المبرك ومدرسته ومقبرته.
٤ الجامع العمري.
٥ مسجد الخضر.
٦ القلعة العربية حول المسرح.
٧ مدرسة ابي الفدا (او الدباغة) ومستودع المياه الكبير.
٨ الحمام الايوبي.
٩ الباب الغربي.
١٠ الباب النبطي.
١١ الديكومانوس الروماني.
١٢ حمامات رومانية.
١٣ الاسواق القديمة.
١٤ الاسوار.

آخر، في الجهة الشمالية من الساحة ، وزود بمنارة مربعة، فيها فتحات صغيرة. ثم أضيف رواق خارجي في الجهة الشرقية، والجامع، رغم كل ما أضيف إليه، والاصلاحات التي أجريت عليه، والتعديلات المختلفة، ما يزال يحتفظ بوجهه الأصيل.

وتعود إلى العهد الأموي كذلك الحصون التي أضيفت إلى المسرح، ليغدو مركزا حربيا. سدت في البدء مداخله ونوافذه. وقد اتخذته القبائل القيسية واليمنية معقلا وحصنا إبان صراعها. كذلك كان له شأن في الصراع الأموي — العباسي واحتل القرامطة بصرى فترة من الزمن. ودخلت في حوزة الفاطميين فترة أخرى.

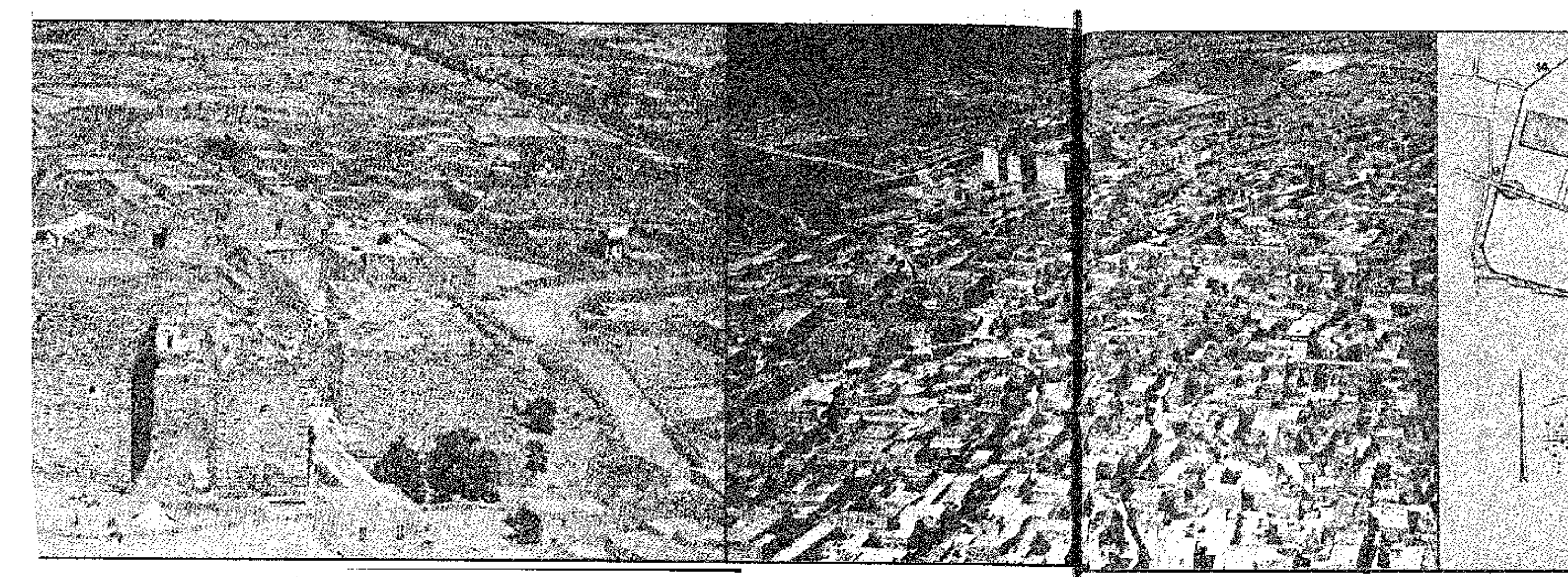


□ أعمدة متداخلة مع حجارة الجدار لتدعيمها. وهي من الطراز الأيوبي، الذي يشاهد في بناء الابراج.



السلجوقيون يبنون مدرسة:

حوالي القرن الحادي عشر الميلادي، دخلت بصرى في حكم السلجوقيين. عام ١١٣٦ بنى كمشتكين، والي بصرى مدرسة ملحقة بمصلى المبرك، وسماها مدرسة المبرك. وهي مبنية على نحو دائري، حول ساحة وسطى مربعة، عليها



□ منظر عام جوي لبصرى.

□ منظر عام لبصرى من الطائرة. وترى الابراج الضخمة.

قبة، لم تبق منها إلا الآثار، في طرفها الجنوبي قاعة للصلاة، وفي الطرفين الشرقي والغربي إيوانان كبيران وفي الطرف الشمالي فسحة واسعة، تنفتح مع قاعة الصلاة على الساحة الوسطى، بواجهة لها ثلاثة أبواب واسعة، أحدها أكبر من الآخرين، وكلها على شكل قناطر، تقطعها عند قطرها عتبة، ويحد الايوانيين قوسان، يستندان إلى أعمدة ضخمة. والطراز المعماري الحوراني واضح في كل ذلك.

إلى الجنوب الغربي من المصلى الأموي، منارة مربعة، اضيفت إلى مجموع البناء، ورفعت بحجارة البازلت، وزينت بنقوش، هي عبارة عن زهور وزخارف عربية، لم يبق منها إلا آثار قليلة.

جامع الخضر:

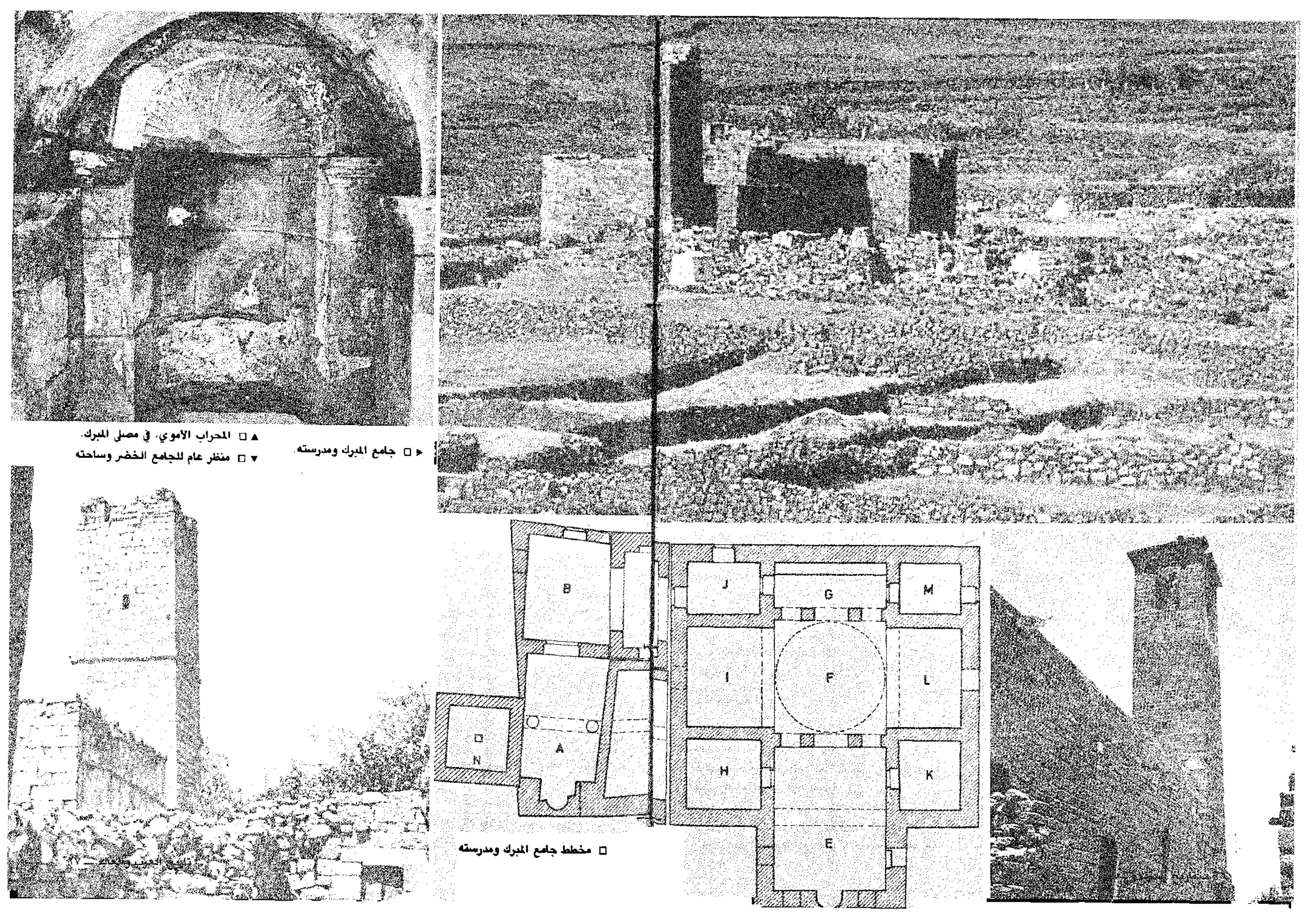
ولم يقتصر عمل كمشتكين على بناء المدرسة، فقد أعاد بناء مسجد الخضر. وهو قائم في شمال غرب المدينة، قرب نبع — يستظل شجرة قديمة جدا يقدرها ويكبرها البصراويون.

ينفتح المسجد على ساحة تحيط بها جدران بازلتية، رصفت دون بلاط، تاركة المجال لتسرب النور عبر فتحاتها، وثمة باب مصراعاه من البازلت، ينفذ إلى ساحة ثانية، مبلطة بالبازلت، تظللها أشجار التوت والتين. مقاييس قاعة الصلاة غير كبيرة ولكنها شديدة التناسق، وتطل على الساحة. وثمة فسحة مربعة، يقطعها قوسان متوازيتان، تستندان إلى أعمدة واطئة، وتحملان مسطحات السقف الحجرية. وتزين المحراب أصداف. أما المنارة فينفذ إليها عبر ممر ضيق، يقود كذلك إلى السطح.

محاولات الصليبيين احتلال بصرى:

في هذه الفترة حاول الصليبيون احتلال بصرى انطلاقا من القدس. ولكن محاولاتهم فشلت، فقد كان والي دمشق يهب بجيوشه إليها، فيرحل الصليبيون. ثم تسلم إدارتها أمير دمشق، بعد أن حاول التونتاش، واليها، تسليمها للصليبيين، لينصبوه واليا على دمشق.

كان واضحا أن بصرى ضرورية لحماية دمشق، من جهة، ولتزويدها بقمح حوران ومنتجات سهوله. لذلك قرر ولاة دمشق تحصين بصرى، فدعموا جدران المسرح — دون أن يمسوا المسرح ذاته — وبنوا برجين في الشرق



□ المحراب الأموي، في مصلى المبرك. ▲

□ منظر عام للجامع الخضر وساحته ▼

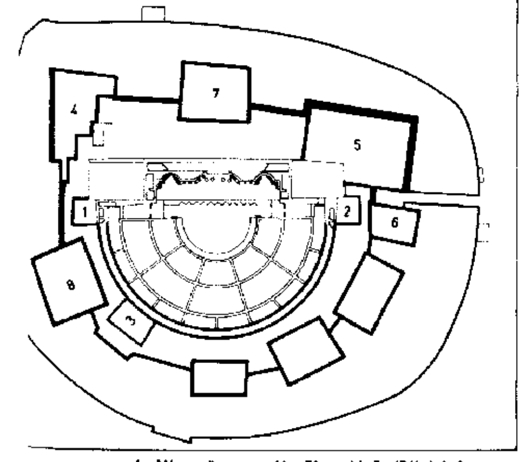
□ جامع المبرك ومدرسته. ◄

□ مخطط جامع المبرك ومدرسته

والغرب. ثم بنوا برجا ثالثا، على الجناح الجنوبي الغربي من المسرح.

وفي عهد صلاح الدين، حين احتل دمشق بعد وفاة نور الدين، قدم والي بصرى إلى العاصمة، وانضم بجيشه إليه. وبدأ صلاح الدين بتدعيم بصرى، وأنهى هذا التحصين أخوه ملك الدين، فأصبح المسرح قلعة محصنة من جميع الجهات.

وقد استعان الأخوان بخيرة المهندسين، وأجروا تعديلات لم تمس جوهر البناء، وإنما حولوا المسرح إلى مستودع مياه مسقوف، يؤمن ماء الشرب خلال أي حصار، ويزود الحمام المقام إلى الشرق من المسرح. وعلى المدرجات أقيمت ثكنة وجامع، وفوقها مستودع أسلحة، هو عبارة عن قاعة كبرى مسقوفة. وخلف هذه جميعا أروقة للمرور والتحرك، يرتكز سقفها على أعمدة بازلتية.



□ مخطط القلعة المحيطة بالمسرح وترى الابراج (١ ــ ٢ ــ ٣) السلجوقية ــ والباقية الأيوبية.

□ قباب المخازن الأيوبية. صورت قبل إزالتها.

□ المنشآت الأيوبية داخل المسرح قبل إزالتها منذ عهد قريب.

□ قاعة الصلاة المستطيلة في الجامع العمري.

وأحيطت هذه القلعة (التي كانت المسرح) بأبنية دفاعية: ثمانية أبراج هائلة مربعة، متصلة ببعضها بممرات خاصة دائرية، مدعمة بالجدران المائلة المتينة. وأحيط كل ذلك بخندق عميق، لا يعبر عليه إلا بباب متحرك ضخم يصبح جسرا عند الحاجة، ويرفع، فيغدو جزءا من السور دونه الخندق الملئ بالماء. وفوق الباب أماكن خاصة لمطلقي السهام. وأضيف إلى مجموع البناء رحى، وثلاثة مصليات.

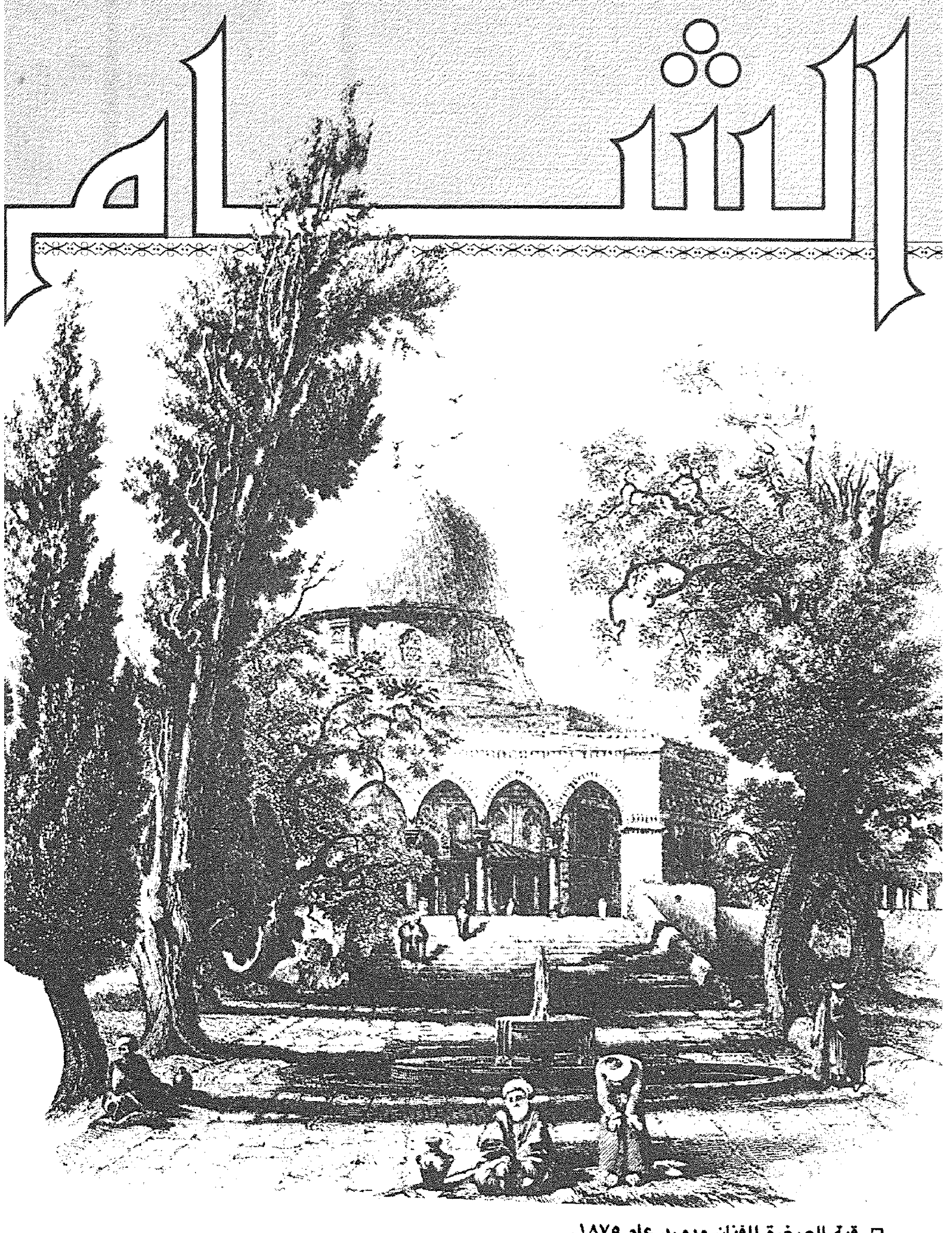
ثم دعِّم جدار الجامع العمري الشمالي بجدران سميكة جدا. وبنيت مصليات عدة، وأعيد بناء أخرى، وأنشئت مدرسة جديدة.

مرحلة الانحسار:

عام ١٢٦٠م بلغت جيوش هولاكو أسوار بصرى، ثم احتلتها ودمرتها. واستطاع الظاهر بيبرس أن يوقف زحف جيوش هولاكو، وأصبح سلطان مصر وسوريا، فأعاد بناء الحصون والقلاع في سوريا، ومنها بصرى.

ولكن بصرى في العهد المملوكي عرفت الانحدار تدريجيا، حتى فقدت قيمتها كمحطة على طريق القوافل، وكمركز تجاري ممتاز، فقد ابتعدت عنها طرق القوافل مسافة أربعين ميلا.

ورزحت بصرى تحت كاهل الاهمال والسنين، فلم تنهض ذكراها من بين الركام إلا حين قدم إليها أول الزائرين من الآثاريين، في نهاية القرن التاسع عشر. ثم توالت بعثات الدارسين، ومن أبرزها بعثة جامعة برنستون. وقام علماء معروفون، مثل كريزويل وإيكوشار وسوقاجي بأبحاث هامة في بصرى.



□ قبة الصخرة للفنان ودورد عام ١٨٧٥.

في صدر الإسلام
الفتح العربي - الدولة الأموية

د. محمّد مخزوم

تاريخ بلاد الشام زاخر بالأحداث الجليلة، التي يصلح كل منها ليكون نقطة بداية لمرحلة جديدة في التاريخ المحلي والعالمي، ويمتد تاريخ الشام عميقا في الزمن، فهو قد بدأ مع بداية معرفة الانسان للحياة على هذا الكوكب، وبما أن هذا التاريخ جزء لا يتجزأ من تاريخ الأمة العربية، وتاريخ العرب ولئن كان قديما، فالعرب دخلوا الباب العريض للتاريخ الانساني مع قيام الاسلام، ومع حركة الفتوحات العربية.

ودور الشام في هذه الفتوحات أنها كانت أول بلدان العروبة التي حررها العرب المسلمون، ثم كانت البلد الذي حمل الراية، وقام بأعباء الرسالة فحقق وصول رسالة العرب إلى قلب الصين وقلب أوروبة وأفريقيا، وكان هذا في العصر الأموي أزهى عصور التاريخ العربي، حيث يكفيه فخرا أنه يدعى من قبل الجميع باسم «العصر العربي» أو «عصر الدولة العربية».



المستعرض لتاريخ بلاد الشام، منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا يخرج بعدة انطباعات رئيسة حول السمات الأساسية لهذا التاريخ، تتصدرها سمة العروبة والعطاء العربي في كافة الميادين. فالعروبة صاحبت شخصية الشام ولم تتركها أبداً، على الرغم من خضوع هذه البلاد أحياناً لحكم امبراطوري خارجي؛ وفي مجريات حوادث ماضي الشام الطويل، كان للفتح العربي الاسلامي لهذه البلاد، أعظم الآثار عليها، من ذلك: تثبيت طابع العروبة فيها، وتبديل البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعمرانية. فعلى صعيد السياسة الداخلية والخارجية، تحول دور القبائل العربية من الهامش إلى الصميم، وعلى صعيد المدن، نجد قبل الفتح أن مدينة القدس كانت أهم مدن جنوبي بلاد الشام تتلوها دمشق، وأن انطاكية كانت أهم مدن الشمال وأبرزها دوراً، تتلوها قنسرين، ولكن بعد الفتح، وبسبب انتشار الاسلام، وانسلاخ البلاد عن الامبراطورية البيزنطية، وقيام الحروب الدائمة معها، ثم تأسس الخلافة الأموية في الشام، كل هذا أدى إلى تقهقر القدس حيث تقدمتها دمشق، وتخلفت في ذات الوقت مدينة بصرى، واضمحل دورها كثغر تجاري لبلاد الشام على بوابات شبه جزيرة العرب، وتأخرت انطاكية في الشمال ووصلت قنسرين إلى حالة الاحتضار، وتقدمت حلب

□ د. محمد مخزوم: الجامعة اللبنانية ــ كلية الآداب.

وتبعتها معرة النعمان. وعندما يرغب الباحث في استعراض تاريخ الشام في عصر صدر الاسلام يجد نفسه بحاجة للحديث عن وقائع حركة الفتوحات، ثم ما لحق ذلك من أحداث العصر الراشدي، فقيام الخلافة الأموية وما حققته هذه الخلافة من إنجازات.

ومع عدم الاقلال بأهمية الأحداث التي وقعت قبل قيام الخلافة الأموية، فإن الفترة الاموية هي فترة ذروة العطاء في تاريخ الشام وحتى في تاريخ العرب والاسلام.

والصلات بين عرب شبه الجزيرة قبل الاسلام وبلاد الشام كانت متينة جداً، فإلى الشام كانت إحدى رحلتي أهل مكة كل عام، وإلى الشام توجهت أنظار الرسول الكريم، فكانت قبلته الاولى، وإليها وجه الدعاة والحملات الاولى خارج شبه الجزيرة.

وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم، وما أن فرغ خليفته الأول من حروب الردة، حتى جهز ابو بكر الجيوش لتحرير الشام من الحكم الروماني الشرقي. ولدى التفحص الدقيق لأخبار فتوح الشام نجد خلف هذه الأخبار خطة متوازنة أخذت بعين الاعتبار الجوانب العسكرية المحصنة والجغرافية الاستراتيجية، والسياسية والبشرية، والاقتصادية، والدينية.

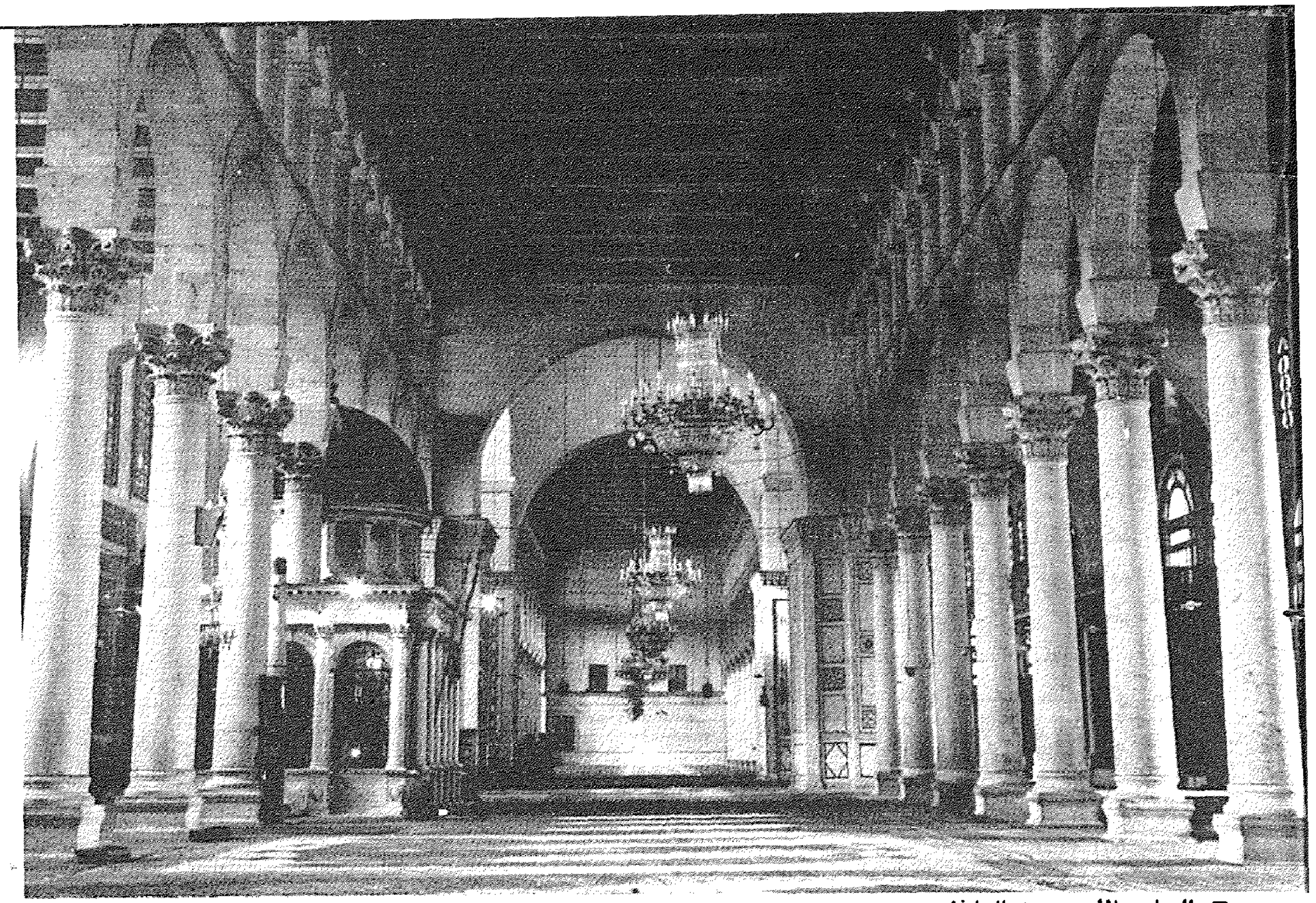
ففي سنة ١٣هـ/٦٣٤م، استنفر أبو بكر العرب في بقاع الجزيرة، وشكل ثلاثة جيوش ضم كل واحد منها ثلاثة آلاف، ثم امدها إلى أن وصلت إلى السبعة، وجعل على راس هذه الجيوش: يزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص، وارفق هذه الجيوش عدداً من مشاهير المسلمين والصحابة مثل أبي عبيدة بن الجراح، وخالد بن سعيد بن العاص؛ ويبدو أن مهمة أبي عبيدة كانت العمل كضابط ارتباط وتنسيق لهذه الجيوش، وصلة وصل لها بالخلافة. ولم تتحرك هذه الجيوش كتلة واحدة، وإنما جاء تحركها على دفعات، كل دفعة ذهبت في اتجاه معين. ويرى بعض الباحثين أن سبب ذلك يعود إلى عدم وجود خطة واضحة في ذهن أبي بكر حول مهمة هذه الجيوش: أهي فتح أم غارة؟ وأن أبا بكر كان كلما وصلته قبيلة ما من قلب الجزيرة دفعها نحو بلاد الشام تخلصاً منها متيحاً لها أن تبحث عن حظها، وكان يستجيب لتطورات الأحوال.

والذي يبدو أن واقع الحال لم يكن هكذا ابداً، فأبو بكر مثله مثل بقية القرشيين كان يعرف الشام معرفة جيدة، وكان يعيش وسط آمال وخطط فتح هذه البلاد وتحريرها من سيطرة بيزنطة، وكان مما يشجع على ذلك عروبة سكان الشام، وقوة نزعاتهم الاستقلالية الوحدوية، مع ما كانت تعانيه بيزنطة من مشاكل وانقسامات سياسية وكنسية.

ولم يدفع أبو بكر القوات تخلصاً منها، إنما كان وراء ذلك خطة عسكرية واضحة تستهدف تحرير الشام أولاً، ثم متابعة الفتوحات في بقية اقطار الأرض، انطلاقاً من وضع الشام الاستراتيجي والجغرافي: فمن ساحل الشام الجنوبي يتوجه المرء إلى مصر فالشمال الافريقي فأوروبة الغربية، ومن الساحل الشمالي يتوجه نحو القسطنطينية فأوروبة الشرقية، ومن وسط الشام بالاتجاه الشمالي الشرقي نحو أعالي بلاد الرافدين فأرمينية فأجزاء كبيرة من آسيا او إلى أوروبة الشرقية.

وحين دفع أبو بكر قواته على شكل مجموعات صغيرة، كان وراء ذلك خطة عسكرية قائمة على العقيدة القتالية لعرب الصحراء، وقد أخذت هذه العقيدة في اعتباراتها طبيعة المقاتل العربي وأحواله من حيث التسليح والتموين والمقدرة على القتال وطرق القتال، وايضاً طبيعة القوات البيزنطية من كافة النواحي.

لقد جند أبو بكر قواته من قبائل الجزيرة، وأفراد هذه القبائل كانوا يتقنون من الحروب الأعمال السريعة، ولا يعرفون الالتزام بقوانين وقواعد للزحف المنظم، وكانت أسلحتهم خفيفة، ومؤنهم قليلة جداً، وبكلمة موجزة كانت قوات أبي بكر قوات غير نظامية محترفة، عليها أن تقاتل جيوشاً نظامية لاحدى أعرق الامبراطوريات في معرفة الفنون القتالية، ولذلك كانت أولى مهام القوات العربية تمزيق تجمع القوات البيزنطية، ثم إنهاك هذه القوات وإضعاف معنوياتها، واخيراً إنزال ضربة قاصمة وسريعة بها، وكان هذا ما حصل.



□ الجامع الأموي من الداخل.

أرسل أبو بكر قواته على شكل مجموعات صغيرة لتعيث في كل بقعة وتدمرها، ولتجبر قوات بيزنطة على التمزق والملاحقة للعدو بدون فائدة، وكانت القوات العربية تتجمع بين آونة وأخرى لتنزل ضربات كبيرة بالقوات البيزنطية، وهكذا فقد اصطدمت القوات العربية بقوات بيزنطية في أكثر من معركة كبيرة كانت كلها مقدمة لمعركة فاصلة وقعت في اليرموك.

ويبدو أن جيش عمرو بن العاص توجه من المدينة سالكاً الطريق الموازي لشاطىء البحر الأحمر نحو فلسطين من جنوبها، بينما سلك الجيشان الآخران طريق المدينة ـ تبوك ـ معان، فوادي الأردن، وكانت مهمة شرحبيل العمل في منطقة الأردن وسورية الداخلية، ومهمة يزيد دمشق وسواحلها، واصطدمت هذه القوات بجيوش بيزنطة فهزمتها. وكان الامبراطور البيزنطي هرقل مقيماً في حمص، وعندما جاءته أخبار زحف الجيوش العربية، وأنباء انتصاراتها وهزائم قواته، حرك قوات ضخمة بقيادة أخيه تيودور، ووصلت أخبار التحرك البيزنطي هذه إلى العرب، فكتب أبو عبيدة بخبرها إلى أبي بكر، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد قائد جبهة العراق: «أما بعد فإذا جاءك كتابي هذا فدع العراق، وخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه، وامض متخففاً في أهل القوة من أصحابك الذين قدموا العراق معك من اليمامة، وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز حتى تأتي الشام، فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة، والسلام عليك».

واستجاب خالد للأوامر، وتحرك نحو الشام، فاجتاز الصحراء بسرعة مدهشة، وكان عبوره إلى الشام من أعظم الأعمال العسكرية وأكثرها مغامرة وشجاعة. ونتج عن هذا العبور نتائج كبيرة، فقد ظهر بشكل مفاجىء في منطقة دمشق وجنوب بلاد الشام، فهاجم بصرى وهزم حاميتها، ثم صالح أهلها، فأصبح سيد منطقة حوران. وأربك ظهور خالد المفاجىء هذا تيودور وكان سبب إخفاق مهمته، ولقد بعثت أعمال خالد النشاط والحماس بين القوات العربية، ومن

حوران راسل خالد أمراء الجيوش العربية وطلب منهم أن يلاقوه جميعاً في منطقة أجنادين، ليس بعيداً عن الرملة.

وفي أجنادين التقت القوات العربية المتحدة التي قاربت الخمسة والعشرين ألفاً مع القوات البيزنطية لفلسطين وجيوش تيودور، وكانت هذه القوات تفوق القوات العربية عدداً وعُدداً، وهزم خالد البيزنطيين، وألحق بتيودور العار، وجعله يفر إلى أخيه، فسبب رحيله عن حمص نحو انطاكية لجمع جيش جديد، وإرساله ضد العرب لمنعهم من التقدم شمالاً.

وسقط حاكم فلسطين البيزنطي بين القتلى في اجنادين، ولقد حررت هذه المعركة فلسطين من الحكم البيزنطي وأعادتها عربية الشعب والحكم والعقيدة، وتشابه هذه المعركة من هذه الزاوية في نتائجها معركة القادسية بالنسبة للعراق، ولقد حدثت هذه الأحداث كلها سنة ١٣هـ/٦٣٤م، في أواخر حياة أبي بكر.

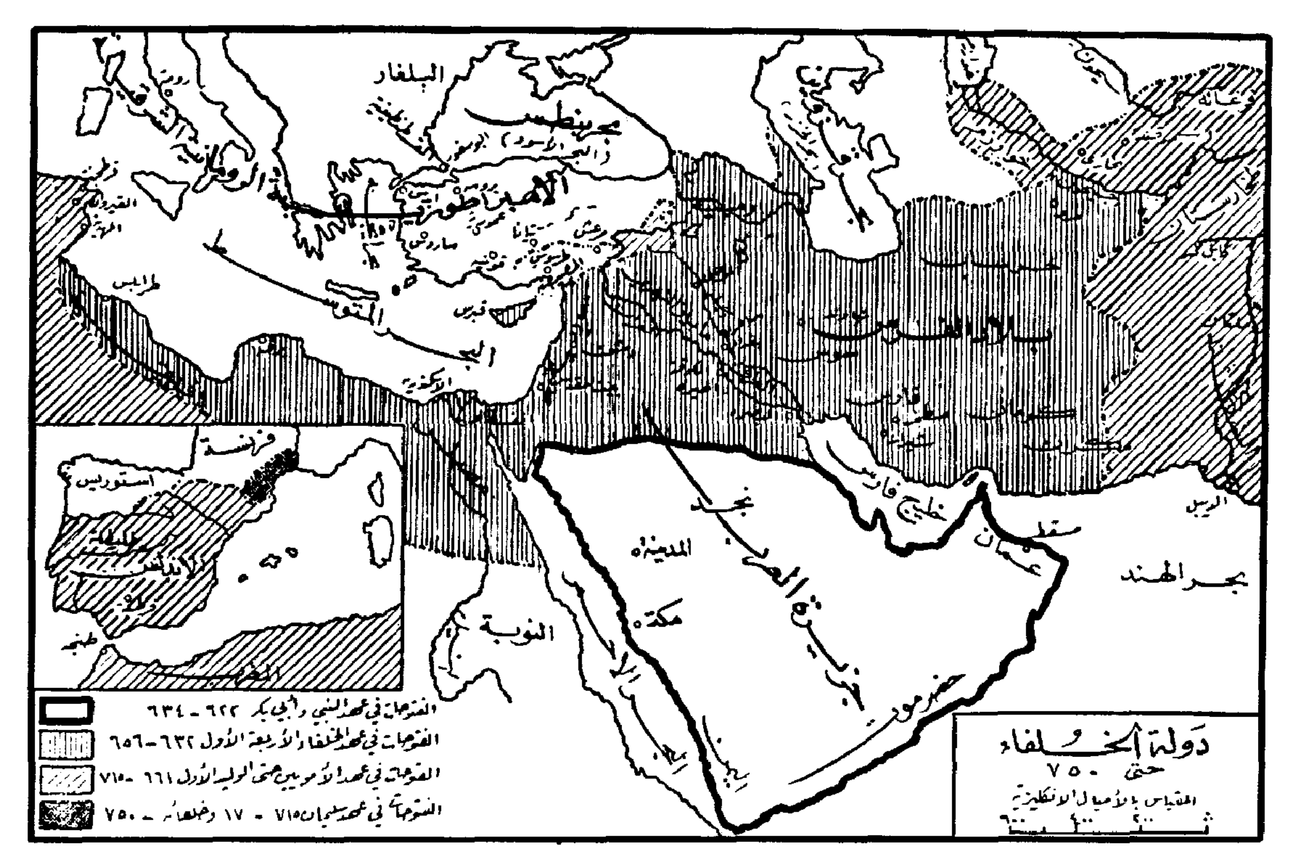
وبعد أجنادين أصبح الطريق مفتوحاً أمام العرب للتحرك نحو دمشق، وقبيل مشارف دمشق هزم العرب النجدات البيزنطية التي أرسلها هرقل في معركتين عنيفتين جداً في مرج الصفّر وفحل، ووصلوا أسوار دمشق، وأخذوا في حصارها، ولكن بعد الاستيلاء على المنطقة الجبلية المعروفة بثنية العقاب «الثنايا» ومدينة بيروت وساحلها، فبعد عزل دمشق الكامل أخذوا في حصارها.

وفي هذه الأثناء وصلتهم أخبار وفاة أبي بكر واستخلاف عمر بن الخطاب، وافتتح عمر عهده بعزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة للقوات العربية في الشام، وأحل أبا عبيدة بن الجراح محله، ولم يُحدث هذا العزل، الذي عزي لأسباب كثيرة شخصية بحتة وعامة تتعلق بمصالح الامة، لم يحدث تأثيراً كبيراً على وضع القوات العربية إذ بقي خالد القائد المؤثر والفعال، حيث أن أبا عبيدة كان لا يقدم على عمل إلا بعد مشورة خالد، ثم بعد ذلك كان يوكل إليه تنفيذ كل ما كان يشير به عليه.

وحاصر العرب دمشق لفترة طويلة سقطت بعدها سنة ١٤هـ/٦٣٥م، وعقب سقوطها تحركت سراياهم شمالاً فتجاوزت منطقة مدينة حماه واستمرت شمالاً، وأخذ العرب يحكمون سيطرتهم على جميع أجزاء بلاد الشام ويطهرونها من الجيوب البيزنطية، ويعملون في سبيل إعادة تنظيمها؛ لكن بيزنطة ما كانت لتتخلى عن بلاد الشام دون أن تبذل كل ما بقي لديها من طاقات، ودون استنفاذ إمكاناتها جميعا، فجند هرقل جيشاً عظيماً جداً ضم جنسيات الامبراطورية، وزحفت القوات البيزنطية جنوباً تريد اقتلاع العرب وتحطيمهم، ووصلت أخبار التحرك البيزنطي إلى أبي عبيدة، وكان في منطقة حمص، فعقد مجلساً حربياً ضم كبار قادة قواته، وتباحث معهم في الأمر، فقر رأيهم على الانسحاب إلى موقع يمكنهم من السيطرة على الشام، ومن التراجع نحو شبه الجزيرة، وقرروا ايضاً الكتابة إلى عمر بوصف حالهم وبطلب المدد.

وانسحبت القوات العربية جنوباً متخلية عن جميع المدن والأراضي التي أخذتها، وتجمعت هذه القوات في منطقة اليرموك، وكان لهذا الانسحاب أثره على القوات البيزنطية، حيث ولد الغرور في نفوس قادتها، كما دفعهم إلى إنزال العقاب بجميع الذين تعاونوا مع العرب مما زاد من نفرة السوريين وكراهيتهم للبيزنطيين. والتقت القوات العربية بالقوات البيزنطية في اليرموك بالقرب من بحيرة طبرية في منطقة يجري بها نهر وادي الرقاد، وكان ظهر الجيش العربي باتجاه الصحراء وجناحاه يحميهما جوانب وادي الأردن، وفي الأمام كان الجيش البيزنطي، ونشط خالد بن الوليد في إعداد خطط الحرب نشاطاً واسعاً تجلت فيه عبقريته العسكرية، وطبق خالد خططه بوعي وشجاعة، فسبب تحطيم القوات البيزنطية، وكان ذلك في صيف سنة ١٥هـ/٦٣٦م. ولا ريب أن القوات البيزنطية كانت على الأقل ضعفي القوات العربية التي قدرت بخمسة وعشرين ألفاً.

ومما لا شك فيه أن معركة اليرموك كانت إحدى معارك التاريخ الانساني الكبرى لما نجم عنها من نتائج، فبعد هذه المعركة عاد العرب فاستعادوا دمشق والمناطق التي استولوا عليها من قبل، وتابعوا زحفهم شمالاً حتى جبال طوروس، وفرّ هرقل نحو القسطنطينية



وهو يردد: «وداعاً يا سورية، وداعاً لا لقاء بعده»، فلقد حررت اليرموك سورية من الحكم البيزنطي ورسخت طابعها العربي.

وبعد اليرموك استولى العرب على القدس، ونظفوا الشام كله من بقايا البيزنطيين، واستولوا على قيسارية، وأخذوا يعدون العدة لمرحلة جديدة من الفتوحات. ففي سنة ١٧هـ/٦٣٨ جاء الخليفة عمر بن الخطاب إلى الشام، وعقد في الجابية [قرب بلدة نوى في حوران] مؤتمراً تقررت فيه مناحي التحركات العسكرية والسياسية والدعوية المقبلة، وإثر ذلك زحفت القوات العربية بقيادة عمرو بن العاص نحو مصر، كما زحفت قوات عربية أخرى نحو أعالي بلاد الرافدين [الجزيرة]، وبعد احتلال الجزيرة دخلت هذه القوات أرمينية واستولت على غالبية أراضيها، وبعدما خضعت الشام والجزيرة للعرب، جعلوا الشام ولاية منفردة، وجعلوا من الجزيرة أيضاً ولاية أخرى، وقاموا بتقسيم الشام إلى أربع مناطق عسكرية، دعيت كل واحدة منها باسم جند، وهذه الأقسام هي: جند الأردن، جند فلسطين، جند دمشق، جند حمص(*).

* * *

وسلف القول أنه عندما سيرت الجيوش من المدينة لفتح بلاد الشام كان أحدها تحت قيادة يزيد بن أبي سفيان، وقد ضم جيش يزيد فيما ضم أخاه معاوية؛ وفي أيام عمر، عندما استكمل فتح بلاد الشام جعل حكمها لأبي عبيدة بن الجراح مع يزيد بن أبي سفيان، لكن هذين القائدين ماتا في طاعون عمواس سنة ١٨هـ/٦٣٩م، فقام عمر باستخلاف معاوية مكان يزيد، وعندما مات عمر كان أمر الشام بيد معاوية وعمير بن سعد الأنصاري، وبعدما استخلف عثمان «عزل عميراً وترك الشام لمعاوية»، ثم أضاف له فيما بعد حكم الجزيرة.

ومنذ اللحظة التي صار معاوية فيها سيد دمشق، أخذ يخطط ليجعل من نفسه سيد أهل الاسلام مثلما كان والده سيد أهل الجاهلية. فقد جاء في أنساب الأشراف للبلاذري أن معاوية قدم «من الشام على عمر، وقد حج عمر، فدخل عليه معاوية، فقال له عمر: متى قدمت؟ قال: الآن وبدأت بك، قال: فأت أبويك، وابدأ بهند، فانصرف معاوية فبدأ بهند، فقالت له: يا بني إنه والله قلما ولدت حرة مثلك، وقد استنهضكم هذا الرجل، فاعملوا بما يوافقه، واجتنبوا ما يكرهه،

وقال له أبو سفيان: إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقوا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم، وقصر بنا تخلفنا، وصاروا قادة، وصرنا أتباعاً، وقد ولوكم جسيماً من أمرهم فلا تخالفوهم، وإنك تجري إلى أمد لم تبلغه وستبلغه».

وتسلم عثمان بن عفان منصب الخلافة، ومر حكمه في البداية بسلام، لكن ما لبث أن أخذ يواجه العديد من المشاكل والقضايا، فعجز عن إيجاد الحل، ولم يعد يستطيع تحمل أعباء حكم الدولة، فانفلت زمام الأمور من يديه، وآلى ذلك إلى الثورة عليه وقتله، وبعد مقتله صار علي بن أبي طالب خليفة جديداً، وقد ملئت فترة حكمه بالحروب الأهلية، وتميزت بعدم الاستقرار، ثم جاءت النهاية فسقطت الخلافة الراشدة، وحل محلها على الصعيد الرسمي والعملي حكم الأسرة الأموية الملكي الوراثي، وعلى صعيد المعارضة — الامامة من شيعية إلى خارجية.

واستولى معاوية بن أبي سفيان على السلطة استيلاء، وانتزع لنفسه منصب الخلافة، وأسس أسرة مالكة بقوة السلاح، لا بموجب أي حق شرعي أو دعوى قانونية صحيحة، ولذلك لاقى معارضة شديدة دائمة، فاضطر إلى الابقاء على استخدام القوة المسلحة، وزاد من حجم الجيوش، واعتمد في إدارته وأعماله العسكرية على العنصر العربي دون سواه، وكان ذلك مسوغاً لطبيعة المرحلة، ومتابعة لخطط الفتح.

وقد أسهب المؤرخون في الحديث عن معاوية، فوصفوا شخصيته الفذة، وذكروا أن أبرز ما كان يميزها: الحلم، والدهاء، وحسن السياسة والكرم، وهذه الصفات ما تزال مقترنة باسم معاوية حتى هذا اليوم، وليس ثمة شك أن صفات كهذه مع ما تميز به الرجل من طموح كبير، كانت وراء نجاحه في بلوغ أهدافه، ولقد أعطت مواهبه في الحكم ثمارها خلال الفترة الطويلة التي حكم فيها الشام، وهي فترة امتدت عبر عهود ثلاثة من الخلفاء الراشدين استطاع خلالها تأكيد سلطانه وبناء جيش قوي، حيث لم يظهر في وجهه معارضة قوية، أو انتقاد شديد لحكمه على عكس ما كان عليه الحال في بقية الولايات.

وبعدما استولى معاوية على الخلافة وتفرد بها، أعاد الاستقرار إلى أجزاء الدولة المضطربة، وأحسن اختيار معاونيه، واتخذ من دمشق عاصمة لدولته، وأجرى تعديلات كبيرة وتطورات على نظم إدارة الدولة شروعاً بمنصب الخلافة، فقد حوّل النظام السياسي في الدولة العربية من نظام قائم على نوع من الشورى إلى نظام ملكي ثيوقراطي، وبذلك كان هو «أول الملوك» في تاريخ العرب والاسلام، وهو «أول من رتب الخلافة وأقام أبهتها وأجراها على قاعدة الملك» حسب قول القلقشندي.

على أننا على الرغم من إيرادنا لهذه الأوصاف، يجب أن نتناولها بشيء من الحذر وألا نجنح إلى المبالغة في تفسيراً عصرياً عصريا، ذلك أن معاوية رغم اهتمامه بمظاهر الأبهة الملكية، ظل في الواقع يحكم ويتصرف بمثابة زعيم مكي، يعرف كيف يصطنع الرجال ويرضيهم، وكان يحكم بالتشاور مع جهاز ضم رؤساء القبائل، ولم يتصرف تصرف المستبدين من الملوك، وهذا ما حدا بالمؤرخ البيزنطي ثيوفانس إلى وصف معاوية «بالمستشار الأول»، ولم يصفه بالملك أو الامبراطور.

اما السمات العامة للدولة، فقد ظلت كما هي ثيوقراطية، الاسلام شرعتها ودينها الرسمي، ولعل أهم ما استحدثه معاوية من أمور كان ما يتعلق بمظاهر الحكم من أمور لم تكن معهودة عند العرب، فقد ابتنى لنفسه قصراً سماه «الخضراء» وجلس على السرير، وأحاط نفسه بالحجاب، وكان أول من أقام الحرس تمشي بالحراب بين يديه، وأوجد الشرط لحراسته، وانعزل أثناء الصلاة في مقصورة خاصة تحجبه عن بقية المصلين.

ومن الناحية الادارية، هناك من يرى أن النظام الأموي الاداري في الشام كان امتداداً للنظام القديم الذي كان سائداً في الشام، والموروث عن الدولة البيزنطية، ولكن ينبغي ألا ننسى هنا أن معاوية اعتمد في تنظيم إدارته على الأسس العامة التي طورها الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب؛ فقد استبقى معاوية بعض موظفي الجهاز الاداري لما قبل الفتح، الذين كانوا يكتبون بالاغريقية، وظلت هذه اللغة وقتاً غير قصير لغة الدواوين في الشام، اما في العراق

الدرهم الاموي الاندلسي، خطوة اساسية نحو تعريب الادارة.



فكانت دواوينه تكتب بالفارسية، وفي مصر بالقبطية والاغريقية، وكذلك العملة التي تداولها الناس أيام معاوية كانت هي نفسها التي سادت في الشام قبل الفتح، إنما مع بعض التعديلات العربية، وهذا الحال ينطبق على الاقاليم الأخرى، حسب التأثيرات السياسية التي كانت تخضع لها قبل الفتح العربي.

بيد أن معاوية وإن اعتمد في سياسته الادارية والمالية على تنظيمات الخليفة عمر بن الخطاب، إلا انه أضاف كثيراً من التجديدات التي اقتضاها الحال لضبط الأمور والاشراف فعلياً على إدارة الدولة، فكان أن أظهر ديوان الخاتم مع إدارات أخرى جديدة.

وأقلقت مسألة مصير الحكم بعد معاوية هذا الخليفة، فكان أن اعتمد طريقة الوراثة، فسمى ابنه يزيد ولياً لعهده وأرغم الناس على مبايعته.

وكان من ثمرات الاستقرار الذي جاء مع معاوية، استئناف حركة الفتوحات، فاتسعت على هذا رقعة الدولة في أيامه حتى وصلت أطرافها في المشرق إلى هراة وكابل وبخارى، وبلغت الفتوحات في المغرب شواطىء المحيط الأطلسي، كما استمرت الحرب على الجبهة البيزنطية دونما توقف، وباتت تعرف باسم حرب الصوائف والشواتي.

ولم تقتصر العمليات العسكرية على اليابسة، بل تعدتها إلى البحر، فمنذ أيام الخليفة عثمان بني معاوية أسطولاً عربياً كبيراً، افتتح به قبرص أولا، ثم حطم به الأسطول البيزنطي في معركة ذات الصواري ثانياً [٣٦هـ/٦٥٧م].

وخطط معاوية للقضاء على الامبراطورية البيزنطية، بالاستيلاء على عاصمة ملكها — القسطنطينية — فجهز في سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م حملة برية — بحرية عملاقة بقيادة ابنه يزيد، وتمكنت هذه الحملة من حصار القسطنطينية من الجهة الآسيوية، لكنها عجزت عن اختراق اسوارها بسبب منعتها ومتانتها، ولعدم تمكن الأسطول من القيام بمهامه على أحسن وجه، حيث فتكت النار الاغريقية به، فقد أمر معاوية

بانسحاب الجيش المرابط حول أسوار القسطنطينية.

ومات معاوية سنة ٦٠هـ/٦٨٠م فتولى ابنه يزيد الخلافة، بعد أن مهد له أبوه الأرض، وروض الناس، وما أن عم خبر وفاة معاوية، حتى تفجرت الاضطرابات في بعض مناطق الدولة خاصة الحجاز والعراق، فاستخدم يزيد العنف وقضى على جميع الثورات في كربلاء والمدينة ومكة؛ لكن حياة يزيد لم تطل حيث توفي وهو في ريعان الشباب سنة ٦٤هـ/٦٨٣م، واضطرب الوضع بعد وفاته في الشام، حيث تنازل ابنه معاوية الثاني عن العرش، ثم توفي في ظروف غامضة، فأدى ذلك إلى طرح مسألة الخلافة وانقسام البيت الأموي على نفسه وإلى الصراع بين قبائل الشام، وأخيراً حسم الموقف، بأن عقد مؤتمر بالجابية، تقرر فيه اختيار مروان بن الحكم خليفة أموياً جديداً. وجهد مروان في سبيل إعادة توحيد الدولة وجلب الاستقرار إليها، فحقق بعض النجاحات، وتوفي سنة ٦٥هـ/٦٨٥م فخلفه ابنه عبدالملك، فأعاد تأسيس الدولة الأموية من جديد، وجلب إليها الاستقرار. وتفحص عبدالملك أصول الاضطرابات وأدرك مدى التغييرات والتطورات التي لحقت العرب وأهالي دولتهم المترامية الأطراف، فأعمال المعارضة حتى نهاية عصر يزيد كانت عربية محضة خاصة في العراق والمشرق، ومع أيام عبدالملك بدأت تفقد لونها العربي وتكتسب ألواناً عجمية إضافية.

وصحيح أن ما أنجزه عبدالملك بن مروان بتوحيده لأطراف الدولة كان عملاً جباراً، لكن ما أضافه إليه من أعمال كانت مؤثراتها على المدى الطويل أعمق وأكبر، فقد رسم عبدالملك سياسة لتعريب أمم دار الخلافة، وعلى هذا الأساس صدرت قرارات تعريب الادارة بشكل شامل وذلك مع النقود والاقتصاد، كما اهتم عبدالملك بالثقافة والتعليم والدعوة إلى الاسلام وتيسير سبل الدخول فيه، ففي العراق قامت مدينة واسط، وهي مدينة شامية غرست هناك لتحل محل كل من البصرة والكوفة، وكذا الحال بالنسبة للقيروان وتونس. ومن أيام عبدالملك وصلتنا أخبار أولى عمليات الاندماج بين العرب الفاتحين وسكان البلاد المفتوحة، وخاصة في خراسان مما بشر بنجاح خطة إنشاء الأمة المستعربة الجديدة. والمتتبع لسير خلفاء بني أمية بعد عبدالملك، خاصة عمر بن عبدالعزيز، يرى مدى حرصهم على الوصول بهذه الخطط إلى غاية النجاح، ولكن نجاح الثورة العباسية حطم كل شيء.

وتوفي عبدالملك سنة ٨٦هـ/٧٠٥م فخلفه ابنه الوليد، الذي قرر استئناف حركة الفتوحات. واستهدفت المخططات متابعة نفس النشاطات على المحاور الشرقية القديمة، والسيطرة بشكل كامل على حوض البحر المتوسط وعلى منافذ في الشرق والغرب، وهكذا فتحت بلاد ما وراء نهر جيحون، وتوغلت الجيوش العربية في داخل الهند والصين وبلاد الخزر، وكمل فتح الشمال الافريقي، وفتحت الأندلس، فأصبح المنفذ الغربي للبحر المتوسط عربياً على طرفيه الافريقي والآسيوي.

كما عم الرفاه بلاد الشام، وكثرت أعمال البناء لمختلف الأهداف والنشاطات، فبني جامع بني أمية في دمشق، ومسجد الصخرة في القدس، ودور العجزة والمشافي ومعاهد العلم والتدريس، وشقت الأقنية وشيدت السدود وتطورات الزراعة والتجارة والصناعة.

وتوفي الوليد بن عبدالملك سنة ٩٦هـ/٧١٥م فخلفه أخوه سليمان، الذي عمل على تنفيذ الشطر المتبقي من خطة السيطرة على البحر المتوسط، حيث شكل حملة كبيرة، أرسلها بقيادة أخيه مسلمة بن عبدالملك للاستيلاء على مدينة القسطنطينية؛ وحاصر العرب عاصمة البوسفور طويلا وأصروا على اقتحام أسوارها، وانتقل الخليفة إلى منطقة حلب، حيث أشرف على سير العمليات، وتوفي سليمان أثناء الحصار سنة ٩٩هـ/٧١٧م، فخلفه ابن عمه عمر بن عبدالعزيز.

وأمر الخليفة الجديد بفك الحصار عن القسطنطينية وبتراجع القوات العربية، وقرر إيقاف أعمال التوسع العسكري والتفرغ تماما للشؤون الداخلية وتنفيذ خطط إنشاء الأمة الجديدة بروح جديدة وعمق أعظم، وحرارة واندفاع شديدين. وعلى الرغم من قصر مدة حكم عمر بن عبدالعزيز (توفي ١٠١هـ/٧٢٠م) فإن

الانجازات التي تمت كانت من النوعية والقبول بمكان جعلت عصر عمر بن عبدالعزيز عصراً متميزاً، ألحقه الناس بعصر الخلافة الراشدية، جاعلين هذا الخليفة الأموي خامس الخلفاء الراشدين.

ووصل عمر بن عبدالعزيز إلى الخلافة لا بفضل نسبه وتصنيفه العائلي، وإنما بفضل شخصيته المرتفعة وسلوكه المثالي. والمتتبع لحياة عمر قبل أن يمارس مسؤولية الخلافة وبعدها تستوقفه النزعة الانسانية التي كانت تغلب على تصرفاته، ويعجبه إيمانه الصرف بالمبادىء الاسلامية، وهذه صفات لازمته طيلة حياته، مضاف إلى ذلك كله أنه كان يمتلك الجرأة الكافية ليجهر بما يعتقد به مهما اشتدت المواقف وصعبت الظروف.

وسعى عمر بن عبدالعزيز إلى إحقاق الحق ورفع الظلم، فأعلن للناس: «إن الله فرض فرائض وسن سنناً، من أخذ بها لحق، ومن تركها محق، ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس: يوصل إلينا حاجة من لا تصل إلينا حاجته، ويدلنا إلى ما لا نهتدي إليه، ويكون عوناً لنا على الحق، ويؤدي الأمانة إلينا وإلى الناس، ولا يغتب عندنا أحداً، ومن لم يفعل فهو في حرج من صحبتنا والدخول علينا».

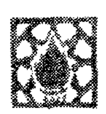
كما سعى إلى إلغاء التحكم والطبقية والاستغلال، وتأمين المساواة بين المسلمين جميعاً، وعامل غير المسلمين «أهل الذمة» بالرفق والأخلاق فألغى جميع الضرائب المستجدة وغير العادلة، فقد كتب إلى واحد من عماله يقول: «انظر إلى أهل الذمة فارفق بهم، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه».

وأحيا عمر بهذا مشاعر المواطنة لدى شعب الدولة المترامية الأطراف، وسد الفجوة ما بين الحاكم والمحكوم، واتبع لغة الحوار مع أحزاب المعارضة، وأوجد الحلول للنزاعات القبلية، وأصلح إدارة الدولة واختار من يعاونه على تنفيذ خطط الاصلاح، وخفف الضرائب، وعندما شكا بعض الولاة إليه أن ذلك قد يؤدي إلى إنقاص الموارد، وإلى عجز في الميزانية أجابه: «إن الله تعالى ارسل نبيه محمداً هادياً لا جابياً»، وعمد إلى إيقاف التبذير بالنفقات.

ولئن افادت إجراءات عمر بن عبدالعزيز السواد الأعظم من الناس، فقد ألحقت الضرر بالمستغلين والمتسلطين، فقرروا التخلص من عمر بن عبدالعزيز، فدسوا له السم وهو ما يزال في شرخ الشباب فقتلوه، ولم يقدروا انهم بصنيعهم هذا قتلوا الشباب المتجدد للخلافة الأموية.

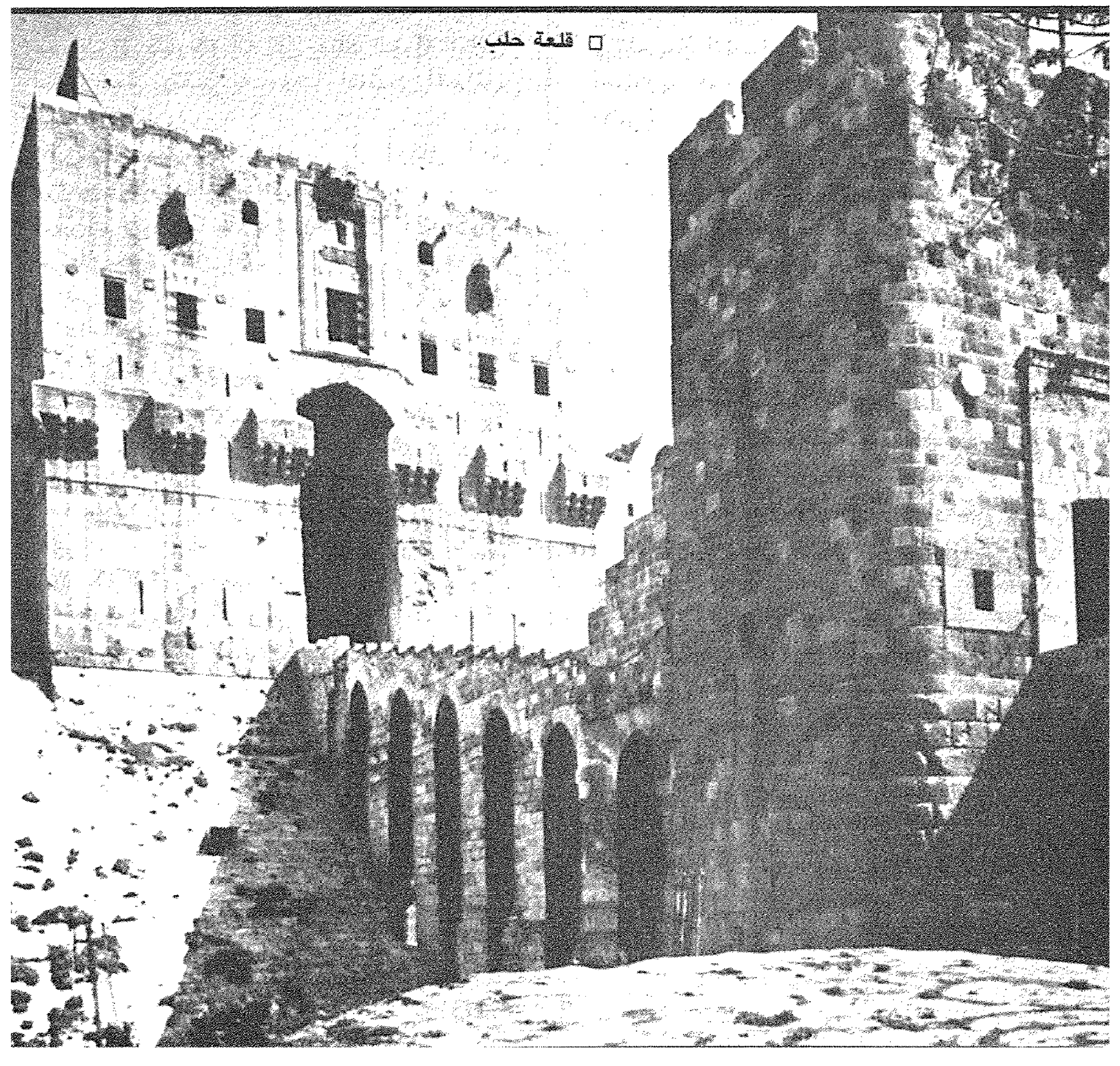
ودخلت الخلافة الأموية بعد عمر بن عبدالعزيز في دور الانهيار، وهزت أركانها الثورات التي نادت بالاصلاح والعدل والمساواة، وعانى البيت الأموي من الانشقاق الداخلي واهمل الجيش، وكاد يتحول إلى قوة بوليس لقمع الثورات، ووجدت طبقات الدهاقين الفرصة المناسبة في خراسان، فأحكمت صناعة ما يعرف بتنظيم الدعوة العباسية، التي قادت سلسلة من الأعمال أدت إلى إسقاط الخلافة الأموية، وإقامة الخلافة العباسية، التي اتخذت من العراق مقراً لها، ومن الأعاجم بطانة ووزراء. وهكذا تعطل دور الشام العربي المعطاء، ولكن إلى حين، ففي القرن الرابع هـ/ العاشر م عادت شخصية الشام ثانية إلى الظهور ونمت واشتد عودها، فصانت شرف العروبة أمام التحدي البيزنطي فالصليبي فالمغولي، وحافظت على آداب العربية وثقافتها وتاريخها شروعاً بالمتنبي فأبي العلاء المعري إلى ما لا نهاية...

(*) عدل هذا التقسيم في عهد يزيد بن معاوية حيث قسم جند حمص إلى قسمين دعيا: جند حمص وجند قنسرين.



الدَّولة الحمدانيَّة في حلب

د. سُهيل زكّار



□ قلعة حلب.

بعدما تمت بنجاح أعمال الفتوحات العربية الكبرى في العصر الراشدي، تبدلت صورة العالم القديم بشكل جذري، وذلك لأول مرة في تاريخ الانسانية، حيث صارت الأراضي الواقعة شرقي نهر الفرات وغربيه تدار من قبل سلطة واحدة.

وانتهى العصر الراشدي ــ كما هو معلوم ــ بقيام الخلافة الأموية؛ وقد قامت هذه الخلافة بإكمال حركة الفتوحات في آسية وأفريقية وأوروبة، كما نقلت المؤثرات والنظم العربية الاسلامية، إنما تبعاً لمنطلقات ومواريث الحضارة الخاصة ببلاد الشام.

ومن المؤكد أن بلاد الشام كانت أول بلدان الوطن العربي في التاريخ تميزاً بالطابع العربي [يطلق عليه تجاوزاً ــ السامي]. وهكذا نلاحظ أنه منذ أيام عبدالملك بن مروان تمّ صنع إنجازات كبيرة وواسعة التأثير، فقد رسمت الدولة الأموية سياسة لتعريب الأمم والبلدان المفتوحة، وأمر عبدالملك بتعريب النقود والادارة والاقتصاد. وتحدثنا المصادر المبكرة عن نجاحات هذه السياسة فتروي أن أعداداً كبيرة من سكان خراسان أخذت تتحول إلى الاسلام وتعمل على الاندماج مع العرب الفاتحين، وأن هؤلاء بدورهم شرعوا في سكنى المدن وترك المعسكرات حول مدينة مرو وسواها.

وكانت أعمال التعريب قد قطعت أشواطاً كبيرة في مصر والشمال الأفريقي، وسارت عمليات الاندماج بنجاح ملحوظ في كل مكان، وقد أخاف هذا التطور في خراسان «الدهاقين وورثة الاقطاع والكهنوت الساساني» فقاوموه مقاومة فعالة، وبعدة وسائل، عن طريق التثبيط والتسرب إلى الحركات الثورية المعارضة للنظام الأموي الشامي، وعن طريق إحداث تنظيمات تهدف إلى الاطاحة بالخلافة الأموية. ومع خلافة عمر بن عبدالعزيز قويت حركات الاندماج، وأخذت أشكال تيارات جماهيرية، وبالمقابل اشتدت حركات الدهاقين المعارضة، وأحدث هؤلاء ما عرف باسم «الدعوة العباسية»؛ وفي المصادر المبكرة رسائل قيل إنها وجهت من قبل إبراهيم الإمام العباسي إلى أبي مسلم الخراساني، تطلب منه أن لا يبقي على عربي في خراسان، حتى وإن كان رضيعاً.

ونجحت حركة الدهاقين في خراسان، وتمكنت من إسقاط الخلافة الأموية، وبذلك وجهت ضربة قاصمة لبلاد الشام، ولحركات التعريب وإقامة الأمة الجديدة التي خطط لها الاسلام، وتسلط الأعاجم على الخلافة الجديدة، ورافق ذلك قيام حركات الزندقة، ورفض العروبة والاسلام مع الشعوبية.

وحاولت بلاد الشام النهوض سريعاً والتعافي من الضربة التي نزلت بها، ويمكننا أن نرى ذلك أولاً في ثورة عبدالله بن علي ضد أبي جعفر المنصور، ثم في أعمال أخرى، فالرشيد عندما ضاق ذرعاً بتسلط الأعاجم استقر طويلاً في رافقة الرقة، والمأمون بعدما تخلص من مرو ثم من بغداد، استقر في شمالي بلاد الشام، وفي الثغور قضى نحبه، وعندما أراد المتوكل التخلص من المتحكمين الأتراك جاء إلى دمشق.

وأخفقت جميع هذه المحاولات، لكن عندما تفككت أوصال الخلافة العباسية، وظهرت الدول المستقلة، سعت بلاد الشام نحو استعادة وحدتها وشخصيتها للقيام مجدداً بدورها المرسوم، إنما حدث أن استقلت مصر الاسلامية فيمن استقل مبكراً، وحاولت مصر ــ تنفيذاً لقواعد سياستها الخارجية الموروثة ــ أن تحتل بلاد الشام، فنجحت بشكل عام في احتلال الجنوب والاحتفاظ به، وأخفقت في الاحتفاظ بشمالي بلاد الشام مما أدى إلى زوال وحدة البلاد، ودفع الشمال إلى الاستقلال.

□ د. سهيل زكّار: استاذ التاريخ الاسلامي في جامعة دمشق.

وهكذا أخذت المناطق الشمالية تسعى للتعبير عن شخصيتها، ومن الملاحظ أن هذا السعي ظهرت ملامحه الأولى بشكل اجتماعي واقتصادي وثقافي وحضاري عام، ثم فيما بعد بشكل سياسي؛ وكان مما عجل في ظهور الشكل السياسي الأوضاع التي عاشتها الامبراطورية البيزنطية المصاقبة أراضيها لشمال الشام، فمنذ القرن العاشر، عرفت هذه الامبراطورية فترة من القوة والاستقرار لم تشهدها من قبل، وترافق ذلك مع ظهور روح حركة صليبية توسعية، يدعوها المؤرخون باسم «صليبية القرن العاشر».

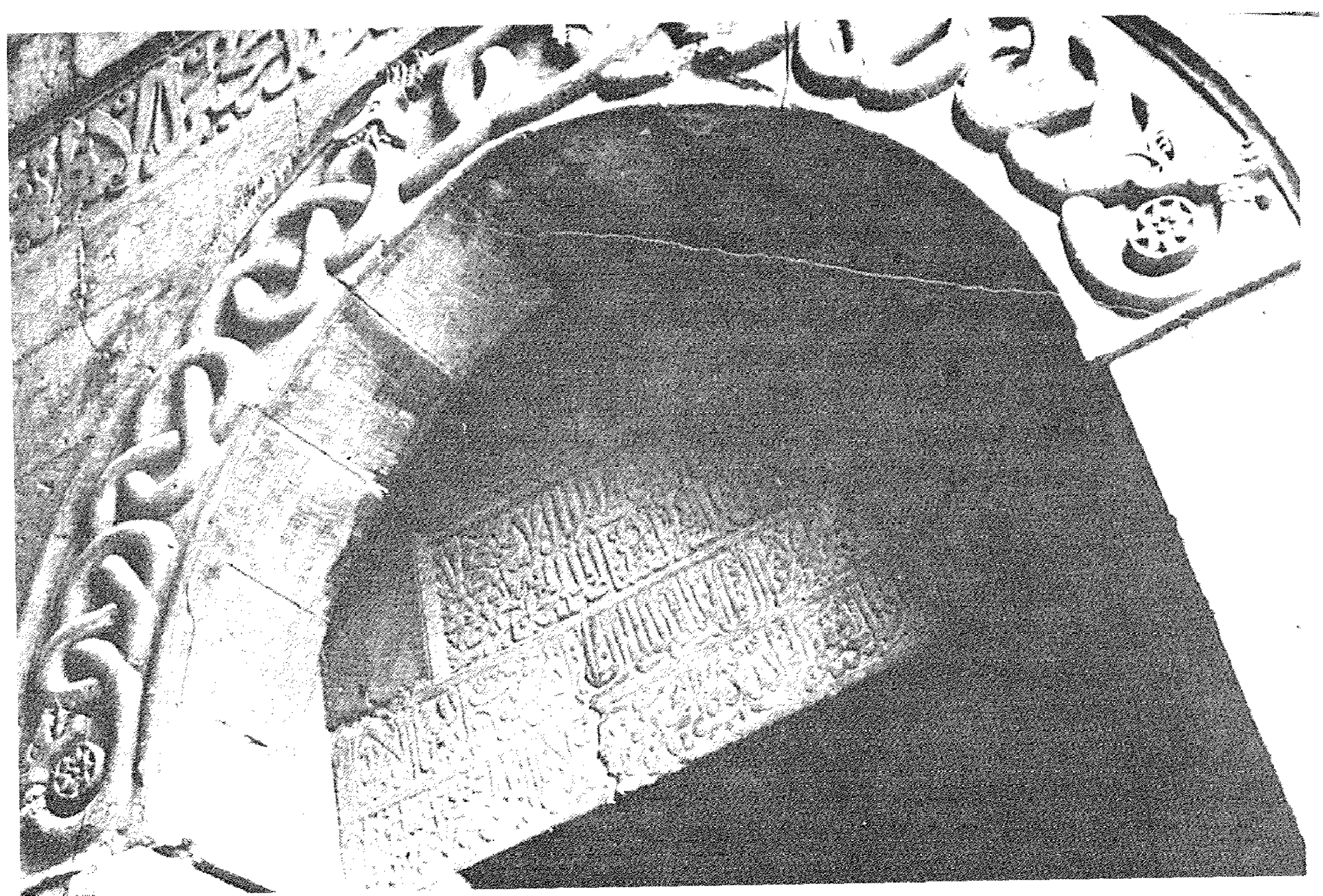
ضمن هذه المعطيات العامة يمكن فهم تاريخ الدولة الحمدانية في حلب والدور الذي اضطلعت به عسكرياً وحضارياً، ومع ذلك لا يمكن الشروع في الحديث عن تاريخ هذه الدولة دون شرح بعض المعطيات الداخلية الأخرى، وقد ارتبط ذلك بأوضاع الشام والجزيرة والقبائل العربية فيهما:

سكن الشام قبل قيام الفتوحات الاسلامية عدد من القبائل العربية كان أكثرها ــ تبعاً لروايات النسابين العرب ــ منحدراً من أصل يماني. ومن أشهر هذه القبائل قبيلة كلب التي استقرت في جنوب بلاد الشام، وكان لها دورها البالغ الأهمية في العصر الأموي؛ كما هاجر مع الفتح وبعده عدد من القبائل إلى شمالي بلاد الشام، وكانت غالبية القبائل التي استقرت في الشمال من أصل قيسي، وكان من أشهر هذه القبائل قبيلة كلاب. وفي سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م، بعد وفاة الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، التحمت قوى قبائل قيس بقيادة الضحاك بن قيس وزفر بن الحارث الكلابي بقوى كلب ومن ساندها من اليمانيين بقيادة مروان بن الحكم في معركة مرج راهط، وهزمت قيس، وانتصرت اليمن، وكانت قبيلة كلاب ــ كما قلنا ــ أكبر القبائل القيسية التي اشتركت في هذه المعركة، وفر زعيمها زفر بن الحارث شمالاً واعتصم في قرقيسياء (البصيرة في سورية حيث يلتقي الخابور بالفرات) ورفض الاعتراف بمروان بن الحكم كخليفة، ولم يستطع مروان أن يقسره على مثل هذا الاعتراف. ولعل من أهم نتائج هذه المعركة أنها قسمت بلاد الشام إلى قسمين: شمالي تسكنه القبائل القيسية وخاصة كلاب وتسيطر عليه، وجنوبي تسكنه القبائل اليمانية، وخاصة كلب وتسيطر عليه، وهكذا غدت بلاد الشام واقعياً عبارة عن دارين: دار لكلب في الجنوب ودار لكلاب في الشمال، وكان الحد الفاصل بين ديار كلب وديار كلاب نقطة وهمية تقع جنوبي حمص، وغالباً ما كانت عند الرستن على نهر العاصي.

إن قضية الأنساب العربية مع تشكل القبائل العربية قبل الاسلام، وتأثر هذا التشكل بالهجرة بعد الفتوحات الاسلامية، بحاجة إلى دراسة علمية على ضوء الدراسات الاجتماعية الحديثة وقوانينها، إنما يبدو أن من الأسباب التي ساعدت على تركز القيسيين وسكناهم شمال الشام هو أن اليمانيين دخلوا بلاد الشام واستقروا في جنوبيها قبل الفتوحات الاسلامية، ثم إن هجرة القيسيين تمت بالاتجاه إلى الشام عبر طرق بلاد الرافدين فالجزيرة فالشام.

المهم أننا لم نسمع بعد معركة مرج راهط بسيطرة سكنية أو سياسية لأية قبيلة قيسية في جنوب بلاد الشام، والعكس هو صحيح أيضاً، ومع مرور الزمن اعتبرت قبيلة كلاب شمالي بلاد الشام دياراً لها، واعتبرت أي تحرك قبلي من الجنوب عملاً عدائياً موجهاً ضدها، ويلحظ المرء هذا بشكل واضح في القرن الخامس للهجرة حينما أقام الكلابيون الدولة المرداسية في حلب، فقد دخلت الدولة المرداسية في صراع مستمر مع الخلافة الفاطمية، وغالباً ما استعان الفاطميون بالكلبيين في حملاتهم ضد حلب، وقاتلت كلاب بضراوة ضد الحملات الفاطمية لأن جنودها كانوا كلبيين، وليس لحماية إمارتهم في حلب فقط، ويمكن إيجاد شواهد على هذا في شعر ابن أبي حصينة، شاعر المرداسيين، وفي حوادث مشابهة.

ويلحظ المرء انه بعد استقلال الجزء الشمالي من شمال الشام، بات بعض الجغرافيين العرب والمؤرخين يطلق عبارة الشام ليعني بها الجزء الشمالي من البلاد. وقبل الاسلام كانت مدينة قنسرين ثم أنطاكية أهم مدن شمال الشام، وقد تأثرتا بالفتح العربي، وتراجعتا، خاصة قنسرين التي غابت شمسها، وأشرقت مكانها شمس مدينة حلب فغدت مركزاً لشمالي بلاد الشام،



□ قلعة حلب ـ باب الحيات.

وصار تاريخ الشام الشمالي هو تاريخ حلب بالدرجة الأولى، ولحسن الحظ أن تربة حلب كانت تربة تاريخية، كثرت فيها الكتابات التاريخية التي حفظت لنا تفاصيل أخبار معظم الوقائع التي شهدتها حلب ثم الشام فديار العرب والمسلمين أجمع.

وقضى موقع حلب الهام أن تكون لها أوثق العلاقات واهمها مع آسية الصغرى في الشمال ومع الشام الجنوبي ممثلاً بدمشق، ومع إقليم الجزيرة في الشرق والشمال الشرقي، كما أنها اعتبرت بوابة العراق ودهليزاً نحو بغداد، لذا اشتد الصراع حولها بين عدة قوى محلية وخارجية، وكانت القوى المحلية صغيرة في الغالب محدودة الامكانات والموارد، بينما كانت القوى الخارجية ذات أحجام امبراطورية وموارد هائلة، ولم يكن من السهل أبداً على حلب الحفاظ على استقلالها واستمرار وجودها.

بعد هذه المقدمات ننتقل للحديث عن الدولة الحمدانية:

يعود الحمدانيون في أصلهم إلى قبيلة تغلب، وكانت هذه القبيلة من أشهر القبائل العربية وأكبرها، وكانت تقطن أعالي منطقة الجزيرة قبيل قيام الاسلام، وأثناء فترة الفتوحات، وكانت تدين بالنصرانية. ولقد رفضت تغلب بعد الفتح دفع الجزية، وسبب ذلك مشكلة كبرى للخلافة، عالجها الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب بأن ضاعف ضريبة الصدقة عليها، ضمن شروط اخرى، منها أن لا تقوم القبيلة بتعميد أولادها.

وحافظت قبيلة تغلب على مكانتها في العصر الأموي، إنما تأثرت هذه المكانة بتدفق قبائل جديدة من شبه الجزيرة، كذلك تأثرت بما شهدته منطقة الجزيرة في أواخر العصر الأموي، وأثناء الحكم العباسي المبكر، من ثورات وحركات سياسية، خاصة ثورات الخوارج. وأثناء هذه الحركات ظهرت بين صفوف قبيلة تغلب اسرة زعامة هي الأسرة الحمدانية، وقامت الصلات بين هذه الأسرة والخلافة العباسية منذ عهد المعتضد، وعمل أفراد هذه الأسرة إلى جانب الخلافة ضد الخوارج، ثم بشكل انشط وأوسع

ضد القرامطة، وأثناء ذلك تكونت شخصية الاسرة، وأصبحت تشكل إحدى القوى العسكرية ــ لكن ليست الكبيرة ــ للدولة العباسية، واستخدمت الخلافة هذه القوة واعتمدت عليها في أكثر من مناسبة وبقعة، وقد وطد هذا من مكانة الحمدانيين، وورطهم في قضايا الدولة العباسية في الجزيرة ثم العراق، وأخذوا ينجذبون أكثر فأكثر نحو السلطة، ونحو بغداد.

واتخذ أوائل أفراد الأسرة الحمدانية من مدينة ميا فارقين في أعالي الجزيرة، مركزاً لهم، وتطلعوا في نفس الوقت نحو الموصل، وسعوا للسيطرة عليها، فكان أن تحقق ذلك سنة ٢٩٣هـ/ ٩٠٦م، إذ عين الخليفة المكتفي الأمير أبا الهيجاء والياً على الموصل، ولم يستطع أبو الهيجاء أن يولي الموصل عنايته الكلية، بل اهتم بمشاكل الصراع في بغداد، وانجرف مع تيارات السياسة في بغداد صعوداً وهبوطاً، وهكذا قضى معظم أيامه في حاضرة بني العباس، واضطر بسبب ذلك أن ينيب ابنه الأكبر الحسن (الذي عرف فيما بعد باسم ناصر الدولة) في إمرة الموصل.

وهنا لا بد قبل الاستطراد في الحديث عن ناصر الدولة وحكمه من أن نطل، ولو بسرعة، على أهمية الموصل ومكانتها: لقد كانت مدينة الموصل بسبب موقعها الجغرافي مدينة هامة ذات موارد اقتصادية كبيرة، كانت تأتيها من الزراعة والتجارة، وهي كمدينة تقع وسط سهل خصب، يمدها دجلة بالماء، وهي قريبة من البادية ومن قبائلها العربية، وهي أيضاً لم تكن بعيدة عن الأراضي البيزنطية، لكنها منذ قيام الدولة العباسية كانت دائماً وثيقة الصلة ببغداد، ومشاكل العراق السياسية، أي أنها كانت قطعة من العراق، وقد بقيت هكذا حتى نهاية النصف الأول من القرن الخامس هـ/ الحادي عشر ميلادي، عندما تحولت لتصبح قطعة من بلاد الشام، تشارك في مشاكلها وقضاياها.

لقد أصبحت الموصل في تلك الفترة جسراً يوصل للسيطرة على شمال بلاد الشام، ومن ثم الجنوب، ذلك أن القرن الخامس قد شهد هجرة التركمان بقيادة السلاجقة الذين جاءوا من المشرق، فكانت الموصل المحطة الأولى للانطلاق نحو بلاد الشام والانقضاض عليها، وفي تاريخ الدولة الزنكية وأحداث الحروب الصليبية مثال مبرهن على صحة هذا.

ومع أن الموصل كانت قبل القرن الخامس قطعة من العراق، إلا أنها شاركت جزئياً وبشكل فعال ومؤثر أحياناً في الحياة السياسية لبلاد الشام، لكن هذه المشاركة كانت جزءاً من المشاركة في الصراع من أجل السيادة والسلطة في عالم الخلافة العباسية.

أصبح الحسن بن أبي الهيجاء أميراً للموصل بعد أبيه، ويمكن اعتباره الباني الفعلي للدولة الحمدانية هناك، لا بل أكثر من ذلك، فقد تمثل تاريخ هذه الدولة في الموصل به، كل ذلك على الرغم من أنه مثل أبيه، قد انغمس في مشاكل الصراع من أجل السلطة في بغداد، وكان أخوه علي أثناء ذلك يساعده ويقود قواته.

ولقد نجح ناصر الدولة لفترة قصيرة من الزمن في تسلم منصب إمرة الأمراء في بغداد، لكنه أرغم على ترك بغداد والعودة إلى الموصل، وعندما وقعت بغداد في حوزة الأسرة البويهية من الديلم، قام نزاع بين هذه الأسرة وناصر الدولة، وقد اضطر ناصر الدولة أثناء هذا الصراع إلى إخلاء الموصل، واللجوء إلى حلب. وفي سنة ٣٥٣هـ، عزل معز الدولة البويهي ناصر الدولة عن إمارة الموصل، وعين مكانه ابنه أبوتغلب، وعندما ضعف ناصر الدولة بسبب شيخوخته، ضيق ابنه أبو تغلب عليه، وأعرض عن مشورته، ثم قام أخيراً في سنة ٣٥٦هـ بسجنه في إحدى القلاع، وقد توفي ناصر الدولة في سجنه سنة في سجنه سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م.

وقبل أن يتوفى ناصر الدولة كانت مقاليد الموصل في يد ابنه أبو تغلب، الذي لقب نفسه بالغضنفر. وبعد وفاة ناصر الدولة، قام صراع بين أولاده، وقد أضعف هذا الصراع قوة الأسرة الحمدانية؛ وقد استغل هذا الخلاف من قبل الدولة البويهية، ومن قبل عناصر أخرى محلية في الجزيرة، كان أبرزها قبيلة عقيل وجموع أكراد ميا فارقين، وفي سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م استطاع البويهيون احتلال الموصل، وجاء هذا بمثابة نهاية فعلية للدولة الحمدانية، وفي سنة ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م حاول الحمدانيون استعادة الموصل،

وحققوا في هذا السبيل نجاحاً مؤقتاً، وأخيراً سقطت الموصل في أيدي قبيلة عقيل، وورثت املاكها الدولة العقيلية في الموصل، والدولة المروانية الكردية في ميا فارقين.

ونعود مجدداً إلى الشام، فنجد أنه بعدما قامت الدولة الاخشيدية في مصر، قام الاخشيد بمد نفوذه إلى بلاد الشام، ولقد دخلت حلب في سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٧م في حوزة الدولة الاخشيدية، إنما بشكل رسمي فقط، حيث عين الاخشيد أحمد بن سعيد بن عباس الكلابي نائباً عنه وواليا على حلب. وفي هذه الفترة وصل إلى شمال الشام والجزيرة جموع جديدة من بداة شبه الجزيرة العربية، وضمت هذه الجموع مجموعات من قبيلة كلاب، وقبيلة نمير، وقبيلة قشير، وقبيلة عقيل، ولقد سببت هذه الهجرة فوضى سياسية كبيرة في شمال بلاد الشام والجزيرة، وهكذا لم تستقم الأمور للاخشيد في حلب. وفي سنة ٣٢٧هـ/ ٩٢٩م فوض الخليفة الراضي لمحمد بن رائق أمور حلب، فجاء إلى حلب وانتزعها من نواب الاخشيد، لكن الاخشيد استرد حلب منه، وكان ابن رائق مهتماً بالصراعات السياسية في بغداد أكثر من اهتمامه بحلب، ونتيجة للصراع على إمرة الأمراء والتحكم بالخليفة العباسي والخلافة، اضطر ابن رائق إلى الالتجاء في سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٤م إلى ناصر الدولة في الموصل، وقام ناصر الدولة بقتل محمد بن رائق، ومد بصره نحو بلاد الشام، وأراد الآن أن يسيطر على القسم الشمالي من البلاد، وهكذا حصلت المواجهة بين الحمدانيين والاخشيد، ولم تكلل جهود ناصر الدولة الأولى بالنجاح، وأبقى الاخشيد ولاية حلب في يد أحمد بن سعيد الكلابي.

وكانت قبيلة كلاب متميزة بالتمزق والخلاف بين رجالاتها، والتحاسد والتناحر والبغضاء بين زعاماتها، وقد دفع هذا بعض أمراء كلاب إلى السفر نحو الموصل، فاتصلوا بعلي بن عبدالله أخي ناصر الدولة، ودعوه للذهاب معهم إلى حلب، وتسلم مقاليد الأمور فيها. وكان علي، الذي شهر بلقب سيف الدولة، حاكماً لمدينة نصيبين، وكان قد مل الصراعات حول السلطة في بغداد، وسئم من مشاريع أخيه، لذلك لاقت الدعوة الكلابية هوى في نفسه، فعزم على الذهاب، وعرض الأمر على أخيه، فوافق بعد تردد، وتحرك سيف الدولة نحو الشام بصحبة الكلابيين حيث لم يكن لديه جيش خاص به، واستطاع أن يدخل حلب دون مقاومة في ٨ ربيع الأول سنة ٣٣٣هـ/ ١٧ تشرين الأول ٩٤٤م، وبذلك بدأ عهداً جديداً في تاريخ شمالي بلاد الشام.

ولم يقبل الاخشيد باستيلاء سيف الدولة على حلب، وقام صراع حاد بين الأمير الحمداني وصاحب مصر، وكانت هنالك جولات من القتال تمكن خلالها سيف الدولة من السيطرة على دمشق، وتوحيد شمال الشام مع جنوبه، لكن الدولة الاخشيدية لم تسلم للأمر، وحشدت قواتها، وكانت كبيرة، واستطاعت إيقاع الهزيمة في صفوف سيف الدولة، ولم تكتف بانتزاع دمشق منه، بل انتزعت مدينة حلب أيضاً لفترة قصيرة، وأخيراً عقد اتفاق في سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م بين الدولة الاخشيدية وسيف الدولة، ترك بموجبه حكم الشام الشمالي لسيف الدولة، وعليه يمكن اعتبار هذه السنة هي البداية الفعلية لقيام الدولة الحمدانية في حلب.

والتفت بعد هذا سيف الدولة إلى دولته، فوطد امورها، وأقام لنفسه بلاطاً فخماً أراد أن يضاهي به بلاط بغداد وغيرها من حواضر الاسلام، وجمع في هذا البلاط عدداً كبيراً من العلماء في كل فن والشعراء، وكان على رأس الشعراء المتنبي، ثم ابو فراس ومن الأدباء ابن خالويه، ثم من الفلاسفة العلماء الفارابي وعدد آخر كبير، ولقد استخدم سيف الدولة رجال بلاطه للدعاية له ولحكمه، والواقع أن شهرة سيف الدولة وعظمته قائمة على ما صنعه رجال بلاطه من دعاية له، وخاصة المتنبي، أكثر من صدورها عن أعمال جليلة قام بها أو تمت في عصره.

ولم يقم سيف الدولة داخل مدينة حلب، بل ابتنى لنفسه قصراً كبيراً خارج أسوار المدينة، حوّل إليه قناة ماء من نهر قويق، ويلاحظ هنا أنه لم يول قلعة حلب أية عناية، حيث لم يقم بترميمها ولا بتقوية دفاعاتها، كل هذا على الرغم من إحاطة المخاطر به وبدولته من كل جانب، وخاصة من الشمال حيث الدولة البيزنطية.

لقد قامت عقلية سيف الدولة الحربية على

أساس الهجوم وليس على مبدأ الدفاع، وفي الحقيقة شغل سيف الدولة معظم وقته في الأعمال الحربية ضد الامبراطورية البيزنطية، وكانت هذه الامبراطورية تعيش فترة استفاقة وتجميع قوة، وقد تهيأ لها عدد من القادة والأباطرة العظام. وخاض سيف الدولة بإمكاناته المحدودة حروباً طويلة ومعارك مريرة ضد هذه الامبراطورية، ولم تكن حروب سيف الدولة حروباً توسعية هادفة، بل امتازت بأنها كانت مجرد غارات بدون أهداف هجومية واضحة، لقد كان غالبيتها له مقاصد دفاعية.

ويلاحظ هنا أنه مهما كانت مقاصد سيف الدولة وخططه، فإن نشاطاته العسكرية أنزلت ضربات مؤلمة جداً بالبيزنطيين، مما دفع الادارة البيزنطية إلى تدارس الوضع بشكل علمي خاصة داخل مؤسساتها العسكرية، وأخيراً جرى وضع أسس استراتيجية عسكرية للتعامل معه، وقضت هذه الأسس بوضع حاميات كبيرة في بعض مراكز الحدود تحت قيادة ضباط كبار، وتجديد وسائل الاتصال السريعة بين مراكز الحدود والقصر الامبراطوري في القسطنطينية عن طريق الشارات النارية والدخان والمرايا العاكسة، ومركزة قوى مراقبة في المناطق الجبلية والمعابر الصعبة التي كانت قوات سيف الدولة تعبر منها جبال طوروس إلى داخل الأراضي البيزنطية.

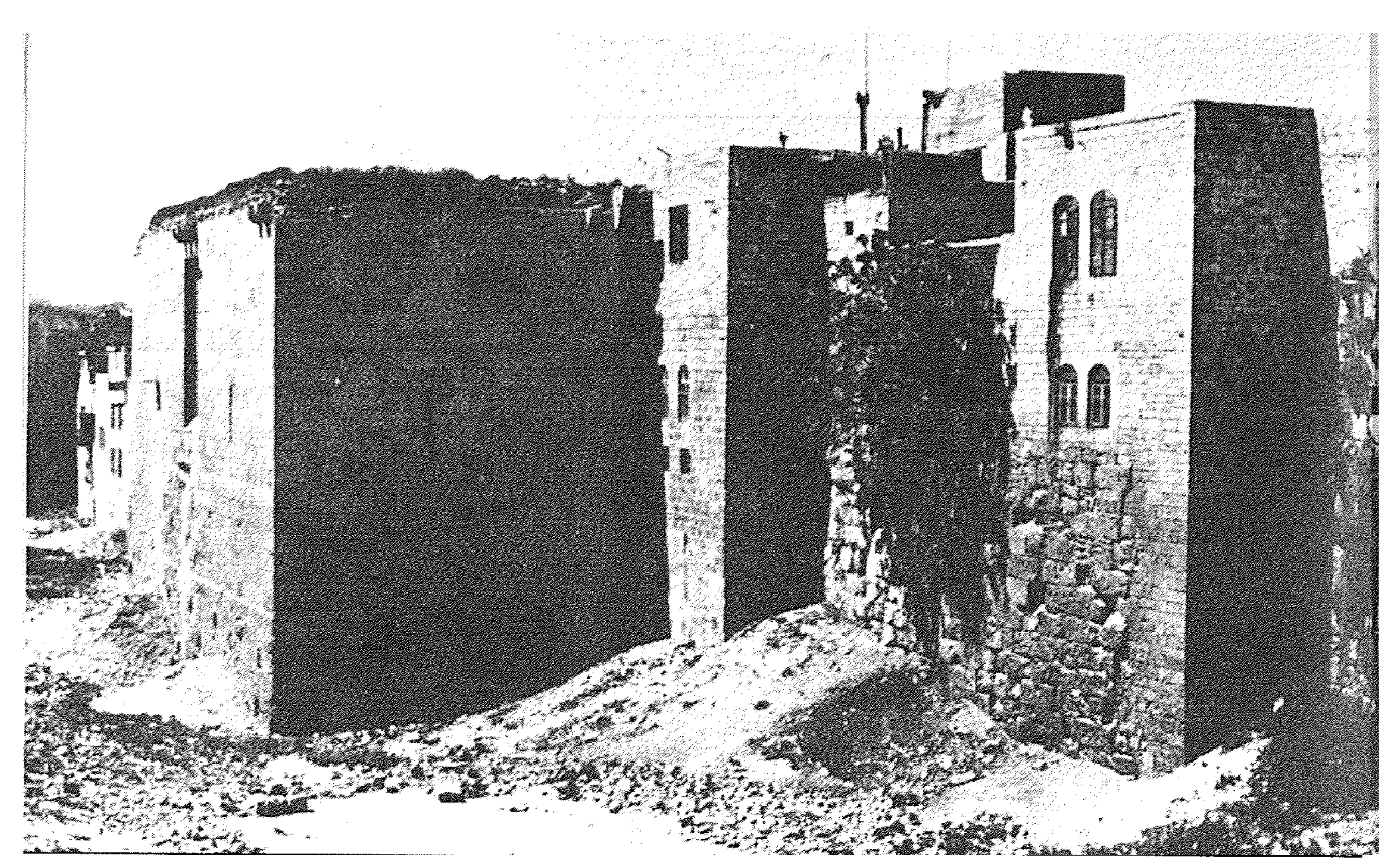
وقضت الخطط البيزنطية الآن بأن يبلغ المراقبون في الجبال القيادات الحدودية، فتسرع هذه إلى حشد قواها وإبلاغ العاصمة، وبعد عملية الحشد هذه يتم إرسال عدة كتائب من الفرسان تتولى مهام منع قوات سيف الدولة من تحقيق أهدافها بنجاح، ويطلب منها عدم الاشتباك بمعركة عامة مع القوات العربية،وفي نفس الوقت ترسل القيادة البيزنطية قواتها من المشاة نحو الممرات الجبلية، لتتمركز هناك، وتقوم بقطع الطريق على سيف الدولة وعساكره أثناء العودة، وبالفعل نفذت بيزنطة خططها هذه بنجاح تام، فأنزلت ضربات مدمرة بسيف الدولة وقواته.

وكان قد نجم عن سياسة سيف الدولة العسكرية، وتكوينه لبلاطه عدة نتائج خطيرة، فلقد احتاج بلاطه واحتاجت حملاته إلى نفقات مالية كبيرة للغاية، وقام سيف الدولة بجمع هذه النفقات من المصادرات والضرائب الثقيلة، وباللجوء إلى مبدأ رأسمالية الدولة في احتكار الاستيراد والتصدير، وفرض الأسعار الموائمة للسلطة في البيع والشراء، ولذلك شكا الناس من معاصري سيف الدولة من ثقل ضرائبه وغلظة إدارته المالية، وبرز هذا بشكل واضح في كتابات ابن حوقل الجغرافي، والمهلبي صاحب كتاب المسالك والممالك، المعروف باسم الكتاب العزيزي، وعند القاضي عبدالجبار الهمذاني إمام المعتزلة في أيامه، وتجلى في كتاب سير الثغور لأبي عثمان الطرسوسي، وغير ذلك من مصادر معاصرة، حتى أن الخليفة المعزلدين الفاطمي كتب في رسالة له وجهها إلى قائده جوهر الصقلبي أثناء العمل على فتح مصر، كتب يقول: «بنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم، وليس لهم فيها نصيب: يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب، ويتظاهرون بالكرم، وليس لواحد منهم كرم في الله، ويتظاهرون بالشجاعة، وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة».

إن هذه الحالة ممتعة للباحث التاريخي، تزيل من أمام ناظريه غشاوة صوت الاعلام والدعاية، وتمنعه من الايمان بدور البطل الفرد، ومهما يكن الحال يعزو ابن حوقل إلى أن سياسة سيف الدولة المالية قد أرغمت بقايا قبيلة تغلب، وكان عددها يقدر بحوالي العشرة آلاف، وكانوا يدعون ببني حُبيب، أرغمتهم على ترك الجزيرة والهجرة إلى داخل الأراضي البيزنطية، والتخلي عن الاسلام، وتبني النصرانية والحرب مع بيزنطة ضد سيف الدولة والعرب والمسلمين.

ونظراً لانعدام القاعدة القبلية لحكم سيف الدولة فقد قام بتجنيد عدد كبير من الغلمان الأتراك والديلم، مثلما جرت العادة في بغداد، ولم تنفعه قواته هذه، وقام بعض أفرادها في أواخر عهد سيف الدولة بالثورة عليه.

وآل الصدام مع بيزنطة، واستراتيجيتها الجديدة إلى إنزال عدة ضربات مميتة بسيف الدولة، نجا من إحداها بحشاشة نفسه بكل صعوبة، وتمكنت بيزنطة من احتلال مناطق الثغور الحصينة، وأخذت طرسوس وأنطاكية، وتفرغت لحلب، وأخيراً تمكن البيزنطيون، في سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م من اختراق مدينة حلب، عاصمة



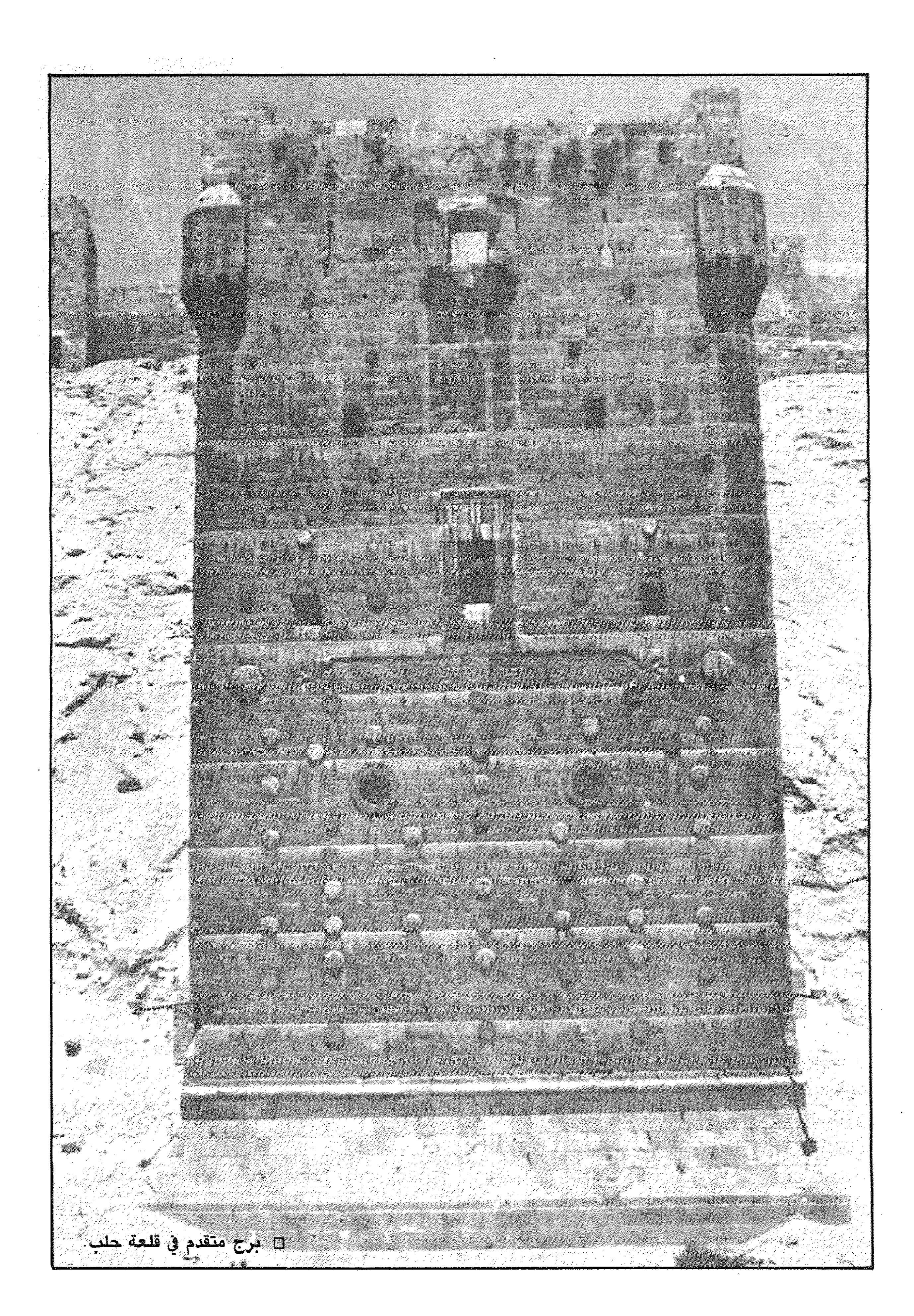
□ سور حلب مع الأبراج.

ملك سيف الدولة، ولقد دمر الجيش البيزنطي هذه المدينة الجليلة تدميراً فظيعاً، وجمع منها غنائم هائلة الكمية، واقتاد قطار من الأسرى فيه ما يزيد على عشرين ألف فتاة وفتى.

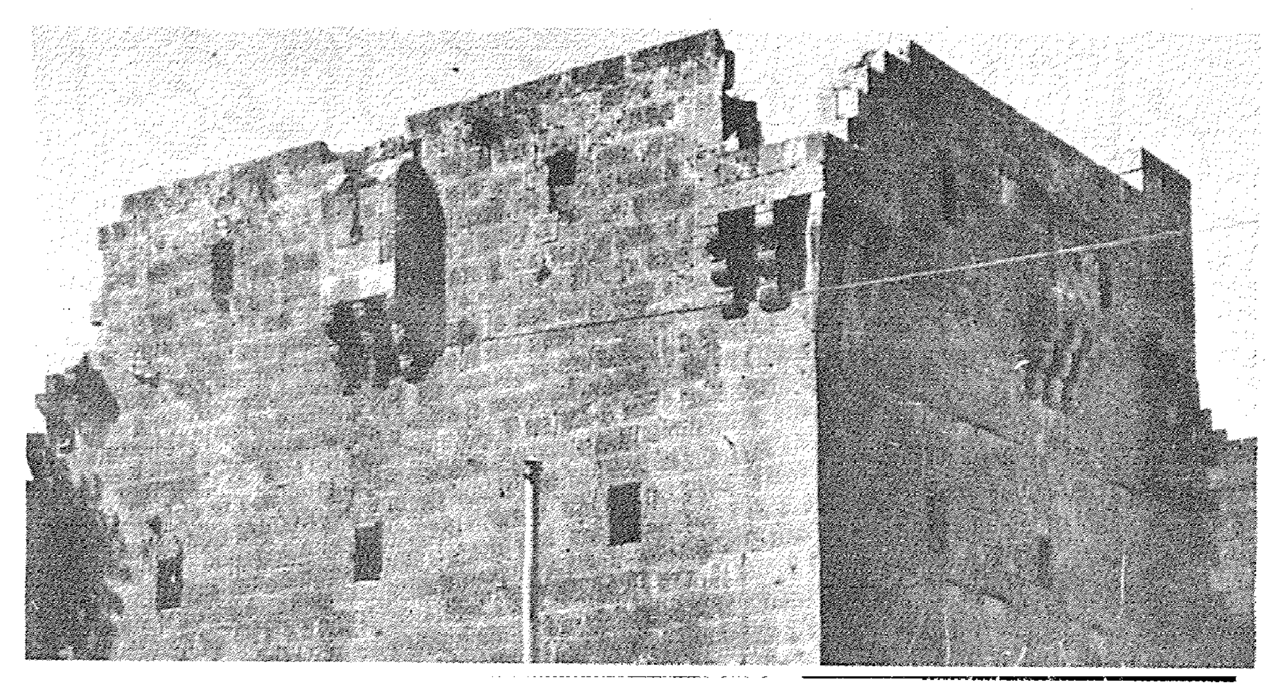
ولم يستطع سيف الدولة القيام بأي عمل ناجع، يدفع به الجيش البيزنطي عن حلب، وأثر سقوط حلب على سيف الدولة تأثيراً كبيراً سبب مرضه الشديد، كما سبب له كثيراً من المشاكل المعقدة، وهكذا انفرط عقد دولته وأخذت الثورات تتفجر ضده في كل مكان، واستمر الضغط البيزنطي عليه يستهدف تصفيته جسدياً وتصفية دولته نهائياً، وأصيب سيف الدولة بالفالج، وفي صفر من عام ٣٥٦هـ/ كانون ثاني ٩٦٧م، اشتد المرض على سيف الدولة واستبد به فتوفي في حلب، وحمل تابوته منها إلى ميافارقين، فدفن فيها.

وعندما توفي سيف الدولة، كان ولده سعد الدولة، أبو المعالي شريف في ميافارقين مع والدته، فاستدعي إلى حلب، فقدمها ودخلها، وتسلم منصب الامرة فيها، لكن إسمياً، فقد كانت مقاليد الأمور في يد حاجب أبيه قرعويه، وكان من أصل تركي. وفي مطلع عهد سعد الدولة ثار ضده خاله أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان، فارس بني حمدان وشاعرهم، ثار في منطقة حمص، وتمكن قرعويه من القضاء على الثورة وقتل هذا الشاعر المشهور.

ولم يتوقف نشاط بيزنطة وأعمالها ضد بلاد الشام زمن سعد الدولة، وكان على رأسها الامبراطور نقفور فوقاس، وقد أضعف ذلك حكم سعد الدولة. وحاول سعد الدولة مباشرة الأمور بنفسه، فمنعه قرعويه، حيث استولى على الأمور في حلب، واستبد بها، ومنع سعد الدولة من الدخول إلى المدينة، وكان ذلك في سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م. واستطاع سعد الدولة تكوين قوة قادها ضد حلب، فحاصرها، فاستنجد قرعويه بالامبراطورية البيزنطية، واستغل البيزنطيون الفرصة فوسعوا ممتلكاتهم في منطقة الثغور وسواحل أنطاكية، كما استولوا على حلب مجدداً، ولم ينسحبوا منها إلا بعد وضع معاهدة مفصلة، احتفظ لنا ابن العديم مؤرخ حلب بنصها، وتعتبر هذه المعاهدة من أهم وثائق القرن العاشر، وفيها



□ برج متقدم في قلعة حلب.



□ باب الحديد.

مادة سياسية وتجارية واجتماعية ودينية هامة جداً.

وظلت حلب تحت حكم غلمان سيف الدولة حتى ما بعد سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م حيث استطاع سعد الدولة العودة إليها، ولقد خاض سعد الدولة بعض المعارك ضد بيزنطة، لكنه استنجد بها أكثر من مرة لحمايته من المخاطر التي جاءته من دمشق وغيرها، حيث كان الفاطميون قد احتلوا مصر وجنوب الشام، وفي لجة الفوضى والاضطراب توفي سعد الدولة سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م فخلفه ابنه أبو الفضائل سعيد.

وأصبح سعيد الدولة أميراً على حلب غداة وفاة أبيه، ولكنه لم يكن أوفر حظاً من أبيه، فكان أميراً بالاسم فقط، حيث أن مقاليد الأمور آلت الآن إلى يد واحد من غلمان جده سيف الدولة، وإسمه لؤلؤ السيفي الكبير.

وتمتاز فترة حكم أبي الفضائل سعيد الدولة مع الفترات التي تلتها بمحاولات الخلافة الفاطمية الملحة والمتكررة للاستيلاء على حلب، وتدخل بيزنطة المباشر وغير المباشر لحماية حلب ومنع الفاطميين من أخذها. لقد أرادت بيزنطة إبقاء حلب بمثابة دولة حاجزة بينها وبين الخلافة الفاطمية وسوقاً مفتوحة للاستيراد والتصدير.

وقد بقي أبو الفضائل في منصبه حتى توفي مسموماً في سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م ويعتبر موته هذا التاريخ الفعلي لانتهاء الحكم الحمداني في حلب.

وبعدما توفي حكم لؤلؤ أولاً لفترة وجيزة باسم طفليه (سعيد الدولة) وكانا يدعيان بأبي الحسن علي وأبي المعالي شريف، واتصل لؤلؤ مع القاهرة واعترف بسيادتها، فشجعته وساعدته، فقام بنفي الأميرين الحمدانيين إلى مصر، وأعلن نفسه حاكماً منفرداً لحلب، وساعده في حكمه ابنه منصور، ويعتبر حكم لؤلؤ مع ابنه فترة انتقال مرت ما بين زوال الدولة الحمدانية، وقيام دولة جديدة أخرى في حلب، هي الدولة المرداسية، وأهم ما حدث زمن لؤلؤ وابنه منصور كان محاولات قبيلة كلاب بزعامة صالح بن مرداس السيطرة على حلب.

فقد استعادت قبيلة كلاب وحدتها تحت زعامة صالح بن مرداس، فاحتلت الرحبة (قرب الميادين الحالية) وازداد نفوذها في المنطقة ودخل صالح في صراع مكشوف مع منصور بن لؤلؤ، وعلى الرغم من تدخل كل من القسطنطينية والقاهرة في هذا الصراع تمكن من احتلال حلب سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٥م، فأنهى بذلك بقايا الدولة الحمدانية وأقام دولة عربية جديدة في شمالي بلاد الشام.

ابن عساكر وتحرير بلاد الشام

د. رضوان السيد

«... وكانت الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكثرت اجنادهم، وعظمت هيبتهم، وزادت صولتهم، وامتدت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضعف اهلها عن كف عاديتهم، وتتابعت غزواتهم.. وامتدت مملكتهم إلى عريش مصر، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماة وحمص ودمشق.. وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبر...»[1].



□ د. رضوان السيد رئيس تحرير مجلة الفكر العربي

كان هذا واقع بلاد الشام مطالع القرن الخامس الهجري، فقد احتلت الفرنجة سواحلها، وأحاطت بداخلها، ولم تبق إلا مدائنها الأربع التي ذكرها **ابو شامة** جزرا معزولة في بحر من مدائن احتلها هؤلاء، وغلبت عليهم خيلهم ورجلهم. ووسط هذه المحنة الصماء التي نزلت بهذا الثغر العظيم من ثغور الاسلام ولد أبو القاسم علي بمدينة دمشق عام ٤٩٩هـ، في أسرة علم وفقه وحديث وزهد.

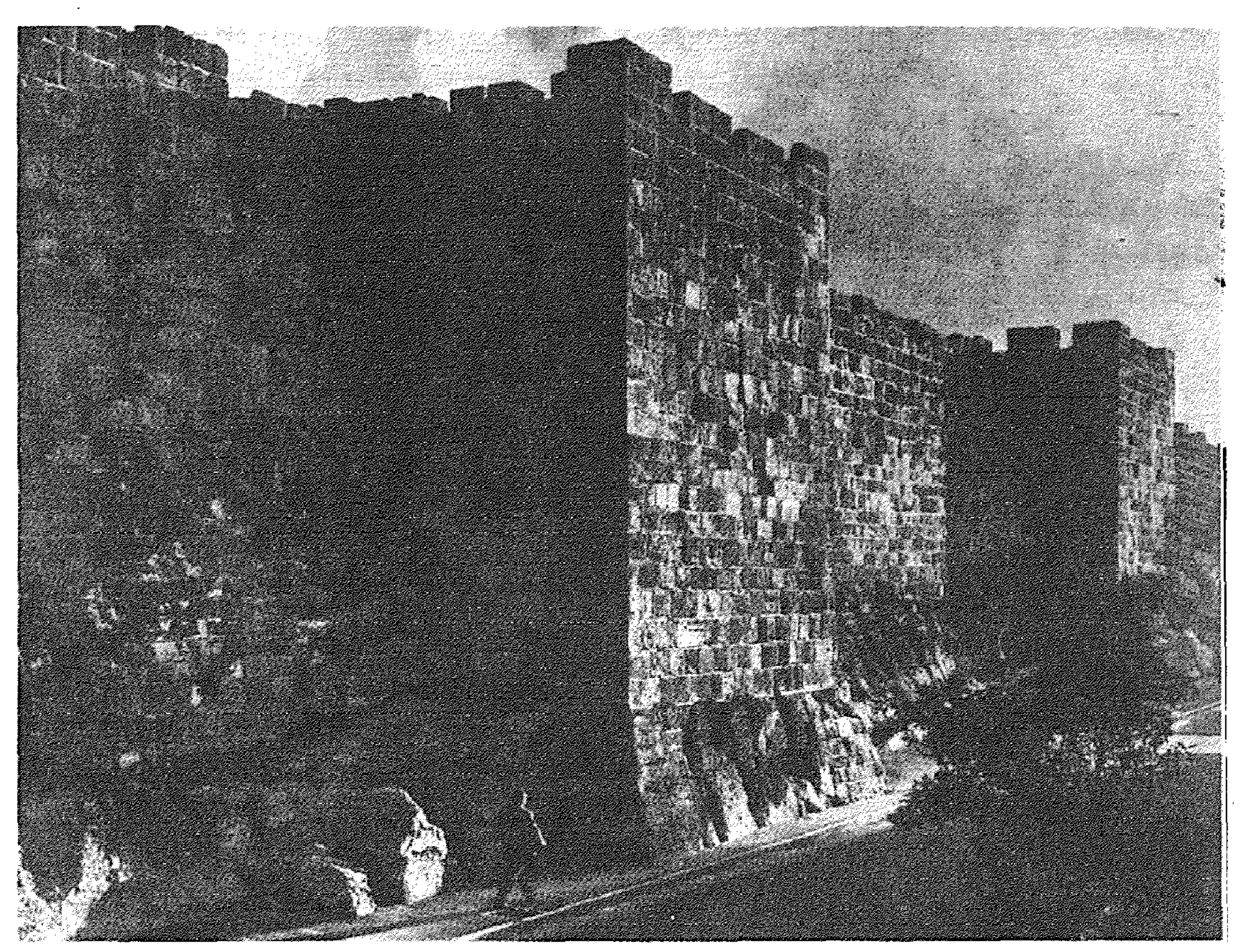
وقد درس الفتى علي على يد والده الحسن بن هبة الله أول الأمر، ثم أخذ عن أخيه الأكبر صائن الدين هبة الله، وجده لأمه يحيى بن علي القرشي. لكن دمشق وبلاد الشام اللتين كانتا تعانيان من غزوات البيزنطيين مذ ضعف الفاطميون وتراجعوا واختلفوا، ثم من غزوات الفرنجة الذين أغاروا واحتلوا، لم تعودا البيئة التي يمكن أن تشبع نهم فتىً طلعة. فما أن اشتد عوده حتى غادر دمشق والشام متابعا تلك السلسلة الطويلة من الشبان الراحلين في طلب العلم. خرج ابن عساكر إلى بغداد عام ٥٢٠هـ، وقد شدا شيئا من علم القرآن والعربية والرواية والفقه فأخذ عن علمائها، وأفادهم من محفوظاته ورواياته(٢). ومن هناك حج وعرف علماء الحرمين، وأولئك الحجاج من كبار رجال العلم في مشرق العالم الاسلامي. وربما بدأ هناك تطلعه للرحلة إلى المشرق استكمالا لرحاته العلمية، وتعرفا على عوالم العلم الاسلامي الأخرى هناك مما لم يكن شائعا ببلاد الشام أو مزدهرا ببغداد(٣).

عاد ابن عساكر إلى مسقط رأسه دمشق فوجد المحنة بالفرنجة والفتن الداخلية نتيجة ضعف الحكام وتشرذمهم على ما كانت عليه قبل رحلته. فقد قتل أمير المدينة الشجاع بوري بن طغتكين (٥٢٦هـ) الذي ظل بامكانياته الضعيفة يدفع عن البلاد هجمات المعتدين طوال خمس وعشرين عاما. ولم تستطع السلطة بدمشق بعد بوري أن تشكل التحدي المطلوب لزحوف الفرنجة. لكن وسط هذه الظلمة الحالكة بدأت أولى انتصارات المسلمين الصغيرة في مواجهة الغزاة في مكان آخر من بلاد الشام في الجزيرة وما حولها عندما ظهر صاحب الموصل عماد الدين زنكي فوحد المنطقة هناك وانتزع حصن الأثارب من أعداء الأمة (٥٢٤هـ).

* * *

وقف ابن عساكر وسط كوكبة من فقهاء دمشق ومحدثيها في قلب جماعة المدينة وعامتها، رأت مهمتها في وجه الغزو الصليبي أمرين اثنين: الجهاد والوحدة. ولسنا نملك من تراث ابن عساكر ما يعيننا على رسم صورة واضحة لرؤيته الفقهية للسلطة في عالم الاسلام في عصره، إنما كان همه أن تقوم سلطة موحدة تضم الشتات، وتضرب العدو الغازي. ويبدو انه بدأ التفكير في جمع تراث بلاد الشام في تاريخ كبير في عشرينات ذلك القرن المليئة بالأحداث. ولا شك أن رحلته إلى بغداد التي عرفته على تاريخها الذي وضعه الخطيب البغدادي (ـ ٤٦٣هـ) أطلقت النوازع الكامنة لمحاولة ضخمة كهذه، بيد أن أحداث بلاد الشام المعاصرة ظلت الدافع الأساسي. فلم يكن الحافظ ابن عساكر رجل حرب وسنان، كما انه لم يكن بوسعه في قلب جماعة بلاد الشام أن يتجاهل الأزمة المستعصية على مستوى السلطة، ومستوى مقاومة الغزاة. من هنا، كان **تاريخه الكبير** الذي يؤصل «التاريخ»، يؤصل الاستمرار والعراقة بدمشق والشام منذ بدء الخليقة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ هو القول الواضح في طريقة مكافحة الغزاة وبناء الجماعة الواحدة في عالم الاسلام من جديد(٤). وليست مسألة **الوحدة والجهاد** مسألة تقدم هذا الأمر أو ذاك عند الحافظ. فلا وحدة بغير جهاد، ولا جهاد بغير وحدة. ففي الوقت الذي كان فيه الحافظ يؤلف تاريخ بلاد الشام، ويكتب رسائل ومجالس في عراقة كل قرية من قراها (المزة، والربوة، والنيرب، وجسرين، وبرزة، وكفربطنا، ومبنين... الخ)، كتب رسالته في **الحث على الجهاد** التي روى فيها أن «أبواب الجنة تحت ظلال السيوف». هكذا كانت بلاد الشام في نظر الحافظ تقاتل هؤلاء الطارئين بسيوف أبنائها، كما تقاتلهم بعراقتها وتاريخها واستمراريتها هي الباقية وهم الزائلون. فأهل الشام «حصن الأمة» وهم إلى «منتهى الجزيرة مرابطون».

إن هذا هو الفارق الرئيسي بين محاولة الخطيب حافظ بغداد، ومحاولة ابن عساكر حافظ



□ أسوار مدينة القدس (من كتاب القلاع ايام الحروب الصليبية). ترجمة العميد الركن محمد وليد الجلّاد، مركز الدراسات العسكرية ١٩٨٢.

الشام. فقد كانت إشكالية الخطيب إسلامية داخلية: تنافح عن اتجاه داخل الاسلام هو الاتجاه الأشعري، وتتحفز في مواجهة المعتزلة وبني عُبيد الذين كانوا مسيطرين أيامه في مصر والشام. أما ابن عساكر فقد كان يؤصل لوحدة مجاهدة تستجمع كل شيء في وجه التمزق الداخلي والعدو الزاحف. وأشعرية ابن عساكر (التي يأتي في نطاقها كتابه في الذب عن الأشعري) تأتي في المرتبة الثانية.

* * *

خرج ابن عساكر من دمشق للمرة الثانية أوائل ثلاثينيات القرن السادس الهجري في رحلة علمية باتجاه مشرق العالم الاسلامي، فزار مراكز العلم الاسلامي الكبرى هناك: همذان وتبريز وهراة ومرو وأصبهان ونيسابور. لكنه وهو يجمع الأجزاء الحديثية، ويأخذ عن كبار الشيوخ، ويعمق **التلوين** الأشعري في عقيدته، ظلت دمشق، وظل الشام، حاضرين في خلده وتصرفاته ومروياته. لقد بحث عن دمشق في أسانيد الأحاديث والرحلة، وبحث عن دمشق في حكايات أولئك الذين زاروها أو عرفوا رجالاتها في مواسم الحج والزيارة. وعندما رجع إلى الشام ودمشق «بسماعات غزيرة، وكتب عظيمة لم تدخل الشام قبله»، سخر ذلك كله لتاريخه الكبير، همه الأوحد في محاولته المناضلة تلك.

ووجد عند عودته أن أفكار عماد الدين زنكي الأولية حول التوحيد والجهاد في سياق واحد تتبلور في مساع حثيثة لتوحيد بلاد الشام وإخراج الفرنجة منها في الوقت نفسه، فقد توالت انتصاراته وجهوده التوحيدية حتى لم يبق غير دمشق خارج نطاق سيطرة مجاهديه. وقد أدرك الطرفان: الزنكيون من جهة، والصليبيون من جهة ثانية، ان السيطرة على دمشق هي المقدمة للسيطرة على القدس وساحل بلاد الشام، فحاول

الطرفان أن يضعا دمشق في نطاق سلطتهما. واستشهد عمادالدين أمام قلعة جعبر عام ٥٤١هـ فهاجم الفرنجة دمشق عام ٥٤٣هـ، واستطاعت جماعتها ردهم بعد لأي ومشقة. لكن النهضة الاسلامية لم تخمدها شهادة عمادالدين بل غذتها وقوتها فتابع ابنه نورالدين محمود المسيرة إلى نهايتها ودخل دمشق عام ٥٤٩هـ. هكذا لم تبق بين المسلمين والقدس غير رمية حجر:

كأني بهذا العزم لافُلَّ حَدُّهُ
واقصاه بالأقصى وقد قُضِيَ الأمْرُ
وقد أصبح البيتُ المقدَّسُ طاهراً
وليس سوى جاري الدِماءِ له طُهْرُ

عندما أعلن ابن عساكر انحيازه إلى السلطة قائدة النهضة الاسلامية تلك؛ فلنورالدين ألف اربعينيته في الجهاد: «أما بعد، فإن الملك **العادل الزاهد المجاهد المرابط**.. أحب أن أجمع له أربعين حديثا في الجهاد...». إن هذه الكلمات القليلة في مطلع هذا المجموع الحديثي تحدد أسباب تأييد ابن عساكر لنورالدين: **انه عادل** في الداخل، **والعدل موحد**، «فلم يكن الله عز وجل ليظهر أهل فرقة على جماعة أبدا». إن المسلمين الموحدين لا يمكن أن يهزموا، ولا شيء كالعدل يوحدهم تحت راية الجهاد المحرر. وابن عساكر يؤيد نورالدين لأنه **مجاهد مرابط**. هنا يتجاهل ابن عساكر «أصل السلطة» — أي مسألة شرعيتها، لصالح «وظيفيتها»[٥]. إن نورالدين يستحق الدعم والتأييد لأنه مرابط في ثغر الاسلام، ولأنه مجاهد من أجل التحرير. فإذا أضفنا لذلك عدلة بين المسلمين الذين يقودهم في حروب التحرير هذه، يصبح الاعتراف بشرعيته ضرورة منطقية. لقد تقدمت اعتبارات الوحدة والجهاد عند مؤرخ دمشق، وحافظ الشام على كل امر آخر. وقد أدرك نورالدين نفسه أهمية محاولة ابن عساكر الثقافية لمسألتي الوحدة والجهاد فاستحثه على اتمامها. يقول ابن عساكر في مقدمة **تاريخ دمشق الكبير**[٦]: «... ورقي خبر جمعي له إلى حضرة الملك القمقام الكامل العادل الزاهد المجاهد المرابط الهمام أبي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر.. وبلغني تشوقه إلى الاستنجاز له والاستتمام.. فراجعت العمل فيه راجيا الظفر بالتمام...».

* * *

وإذا كانت اللحظة السياسية الاسلامية حاضرة تماما في تاريخ **دمشق** الكبير كله، كما حضرت في آثار ابن عساكر الأخرى وأجزائه ومجالسه، فإن هذه اللحظة تزداد تجذراً بتحدد مضامينها عن طريق ظهور لحظتين أخريين في نطاقها الواسع: اللحظة السلفية واللحظة العربية. أما اللحظة السلفية فتبدو في تراجم ابن عساكر للرجال في التاريخ. انه يؤكد في نماذجه على اتباع الدمشقيين والشاميين بعامة سيرة السلف. يذكر ذلك في مقدمته للتاريخ، ثم في الأكثرية الساحقة لسير الرجال الذين ترجم لهم. تقف السنة عنده في مواجهة البدعة من جهة، وتقف سيرة السلف في مواجهة ابتداع بعض الخلف، وخروجهم على مفهوم الاسلام/ الدين باتجاه الفرقة أو الشرذمة. انه الاسلام الجامع الموحد والقائم على مفهوم الجماعة. فإذا كانت الوحدة السياسية تتحقق بإمام عادل مجاهد، فإن التأسيس لهذه الوحدة يقوم على عقيدة جامعة تمتد عبر آلاف الرجال منذ الصحابة الذين نزلوا بالشام ونشروا العلم وسيرة السلف فيها، وحتى الاتجاه الحديثي الأشعري المتصاعد أيامه. ولا يتجاهل ابن عساكر أولئك الذين يعتبرهم من المتبدعة أو رجال الفرق في تاريخ الشام، لكنه يترجم لهم بطريقة تشعر بتقابلها وتناقضها وسوء عاقبتها في مواجهة سلفية الكثرة الكاثرة من رجالات ذلك الثغر الاسلامي عبر الحقب المتطاولة. إن الوحدة السياسية الشامية لن تستمر إذا تحققت إلا على أساس من عقيدة سلفية واحدة. تؤسس وحدة الداخل، وتوجه جهد المسلمين لمجاهدة الخارج المعتدي بدلا من التشرذم في الداخل حول قضايا عقيدية أو فقهية. وقد بنى نورالدين للحافظ ابن عساكر دار الحديث النورية لنشر عقيدة السلف ذات التلوين الأشعري في أوساط الشادين ورواة الحديث.

أما اللحظة العربية فتبدو عند ابن عساكر استردادية متفرعة على سلفيته. إن العرب المسلمين هم فتحوا «سورية»، وحولوها إلى «بلاد

الشـام» ضمن دار الاسـلام. هكـذا ارتبـط «الجهـاد» الشامي بـالعرب، كمـا ارتبـط بهم التحرير. وقد كانت تلك الأزمة الصليبية باعثا لكثير من الناس على الاعتقاد ان أولئك الذين حـرروهـا وصنعـوهـا أول مـرة، هم الكفيلون بتوحيدها وتحريرها للمرة الثانية. من هنا كان قول الشاعر الشامي في نورالدين:

تـدارك مـلة العـربـيّ ذبًّـا

إلى ان عَـدَّهُ مـنـهـا مَـعَـدُّ

إن العرب هم الكفيلون بحماية ملة النبي العربي، وإن نورالدين الذي تصـدى للقيام بهذه المهمة صار معديا عربيا بالاقدام على ذلك. هؤلاء العرب (الأعراب) سكان بلاد الشام الذين ينهضون لتحريرها، والذين رابطوا في ثغورها عبر العصور، ينطلقون منها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. بل انه لن تبقى أرض عربية في نهاية الزمان غير أرض الشام: «أول الناس هـلاكا الفرس ثم العرب إلا بقايا هـا هنا ــ يعني بالشام»[٧].

فلما صارت دمشق حاضرة نورالدين، رأى ابن عساكر انه لا عذر له في القعود عن تحرير باقي الأرض العربية الشامية، فلسطين:

وإن بذلْتَ لفتح القدس محتسباً

للأجر جوزيتَ خيراً غير محتسبِ

ولست تُعْذَرُ في ترك الجهاد وقد

أصبحت تملِكُ من مصر إلى حَلَبِ

وتوفي نورالدين عام ٥٦٩هـ دون أن يتاح له وضع المنبر الذي صنع لبيت المقدس في موضعه من المسجد الأقصى. لكنه كان قد أعد للتحرير عدته لا بالجهاد فقط، بل بتوحيد الشام ومصر، وبـإرادة لا تلين من أجل طرد الغـزاة «فكان لا يرى إلا الجد في غزوهم بجهده وطاقته».

وقـد اشتد حـزن الحافـظ على نـورالدين (الشهيـد)، وخشي أن تتوقف عمليـة تحـريـر القدس، لكن صلاح الدين الذي لقيه بالشام، وحضر دروسه في ربيع الأول عام ٥٧٠هـ طمأنه إلى انه ماض في خطة نورالدين للتحرير. بيد ان الأجل لم يمهل الحافظ ليـرى المسجد الأقصى فتوفي بدمشق في رجب سنة ٥٧١هـ. وصلى عليه السلطان صلاح الدين والذي كان قد احتمل من الحافظ تأنيبا مبطنا لعدم زحفه عـلى القدس مباشرة من دمشق. وكان الحافظ قد شرع في تـأليف كتـاب جـديـد في **الجهـاد** ليهـديـه لصلاح الدين هذه المرة.

وتقول بعض كتب التاريخ إن جنديا شاميا دخـل القدس ضمن جنـد صلاح الدين عـام ٥٨٣هـ قرأ بالأقصى أربعين الحافظ ابن عساكر في الجهاد بعد صلاة الجمعة، وفيها:

ــ مقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة.

ــ وان أبواب الجنة تحت ظلال السيوف.

الحواشي

(١) كتاب الروضتين ١/١٠؛ وكتاب الباهر، ص ٣٢ ــ ٣٣.

(٢) قارن عن شيوخ ابن عساكر البغداديين مقالة بشار عواد معروف في كتاب «ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته/ دمشق ١٩٧٩م، ص ٤١ ــ ٧٤. وقد اعجب به البغداديون وقالوا فيما يذكره ياقوت في إرشاد الاريب ٥/١٤٤: «قدم علينا من دمشق ثلاثة ما راينا مثلهم ــ الشيخ يوسف الدمشقي، والصائن ابو الحسن هبة الله بن الحسن، واخوه ابو القاسم...».

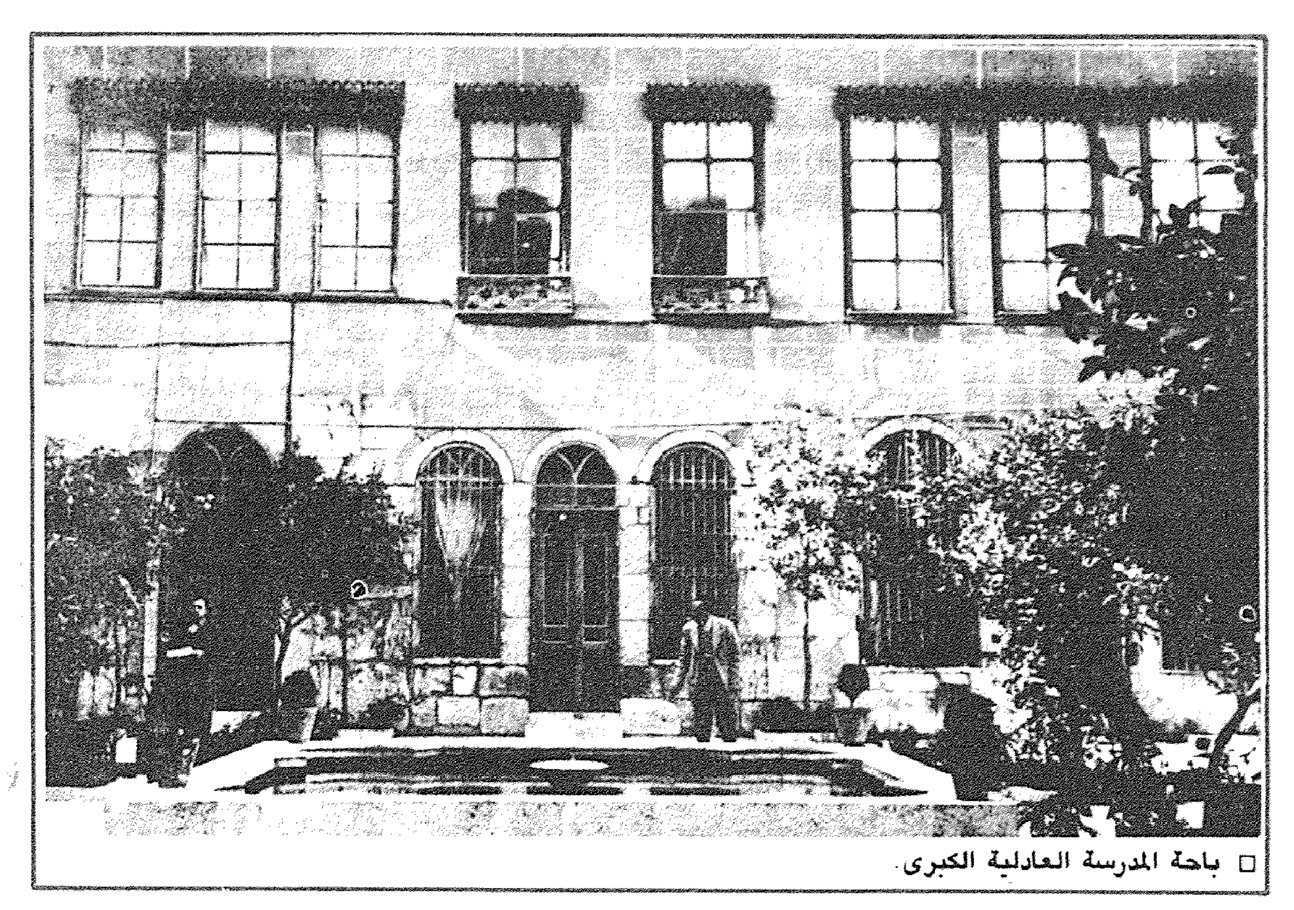
(٣) افدت كثيرا هنا من مقدمة الأستاذ الدكتور شاكر الفحام في كتاب: «ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته/ دمشق ١٩٧٩، ص ١ ــ كه.

(٤) قارن بمقالتي بعنوان: «المأثورات التاريخية الشامية بين ابـي زرعة الدمشقي وابن عساكر» في الكتاب المذكور في الحاشية رقم (٢) ص ٥٧٧ ــ ٥٩٨.

(٥) انظر هذه المسألة في الفكر السياسي الاسلامي كتابـي: «الأمة والجماعة والسلطة ــ دراسات في الفكر السياسي العربـي الاسلامي». بيروت، دار اقرا، نيسان ١٩٨٤.

(٦) تاريخ دمشق الكبير ١/٤.

(٧) تاريخ دمشق الكبير ١/٢٩٦ ــ ٢٩٨.



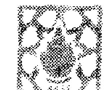
□ باحة المدرسة العادلية الكبرى.

التعليم في الشام في العصر الأيوبي

د. أمينة بيطار

الحديث عن التعليم في الشام في العصر الأيوبي، حديث يطول البحث فيه إذا دخلنا في تفاصيله، ويمكن تأليف عدة مجلدات في هذا المجال، لأن الحركة العلمية كانت نشطة، وأسباب هذا النشاط كان متعدد المناحي، إضافة إلى اهتمام الأيوبيين ببناء المدارس التي أخذت طابعا خاصا. وبرز في هذه الفترة علماء لمعت اسماؤهم، واندرجوا في أعمالهم العلمية ومؤلفاتهم في قائمة الخالدين. فإذا أردنا متابعة البحث في شخصيات العلماء، الذين كانوا أركان الحركة التعليمية، ومؤلفاتهم القيمة، ومن ثم التحدث عن الموظفين الاداريين وغيرهم، ومتابعة المدارس التي أسست وصفاتها الفنية، وأنواع العلوم السائدة في ذلك العصر بكل تفاصيلها، لعجز ذلك المقال المحدود الصفحات عن إيفاء الموضوع حقه. ولذلك سأعمل جاهدة على إعطاء لمحة عامة موجزة معبرة، أعمل فيها على إبراز أهم النقاط في هذا المجال، تاركة أمر التفاصيل في الجزئيات كل على حدة إلى مقالات أخرى بإذن الله.

□ د. امينة بيطار: جامعة دمشق ــ كلية الآداب.



تقدمت الحركة العلمية في الشام في العهدين الزنكي والأيوبي تقدما كبيرا وملموسا حتى كان حديث الناس في العهدين عن العلم والثقافة[١]. كان هذا في الوقت الذي كانت فيه بلاد الشام من الناحية السياسية والعسكرية تعاني الكثير من الصعاب. فقد كان على القوى الحاكمة فيها مواجهة الصليبيين الذين أسسوا أربع إمارات لهم في الرها وانطاكية وطرابلس والقدس وهم في أوج قوتهم[٢].

تمثلت الحركة العلمية في ذلك الوقت بانتشار المدارس المتخصصة ودور الحديث والخوانق والزوايا والمساجد، وكلها تحمل مهمة نشر العلم. فالمساجد لم تكن للصلاة وحدها، بل اتخذت كأماكن للتعليم وخاصة العلوم الدينية. وتلقى طلبة العلم فيها القرآن والحديث وفنونه، إضافة إلى علوم اللغة العربية، وكذلك كانت منازل العلماء تستخدم للغرض نفسه[٣].

ويبدو أن فكرة المدرسة الاسلامية خارج المسجد، اهتم بإنشائها ووجودها منذ أوائل العصر العباسي دون أن تتوضح وظائفها. فقد أوجد الخلفاء العباسيون الأوائل دور العلم وبيوت الحكمة لترجمة الكتب من اللغات الأخرى. وبعد ذلك ذكرت المصادر الاسلامية أسماء مدارس إسلامية مختصة، اسست في المشرق في خراسان وما وراء النهر منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وإذا كانت المدارس الاسلامية قد عرفت في المشرق منذ هذه الفترة، فلا بد أنها وجدت في غيرها من المناطق في نفس الفترة، أو في فترة لاحقة، وأن هناك إهمال في ذكرها، أو أن المؤلفات التي اهتمت بمثل هذه الموضوعات فقدت.

ومما ذكر عن المدارس في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، يتضح أن الجرايات لأرباب المدارس قد عرفت. فقد رسم أبو حاتم بن حبان البستي التميمي دارا له كمدرسة، والحق بها مسكنا للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقهة. ولها جرايات دارة يستنفقونها. وفيها خزانة كتبه في يدي وصي سلمها إليه ليبذلها لمن يريد نسخ شيء منها في الصفّة من غير أن يخرجها منها[٤].

أما باكورة المدارس المستقلة عن المساجد في الشام، فقد تمثلت بالمدرسة الرشائية التي انشأها رشأ بن نظيف بن ما شاء الله الدمشقي في سنة ٤٤٤هـ في دمشق، وجعلها دارا لدراسة القرآن الكريم[٥]. وتلا ذلك بعد فترة إنشاء مدارس متعددة في عهد عمادالدين زنكي وابنه نورالدين، الذي وسع مملكته التي انشأها أبوه، وسط تحديات الصليبيين الذين انزرعوا في قلب المنطقة، وكانوا لا يزالون حتى ذلك الحين يملكون قوتهم وحيويتهم وقدرتهم على التوسع[٦].

لم تكن المدارس قبل عهد نورالدين في الشام تجاوز ست عشرة مدرسة، وارتفع عددها في عهده إلى ثمان وخمسين. أي بلغ عدد المدارس المحدثة في عهده وحده اثنتين وأربعين مدرسة، كان نصفها من بنائه شخصيا، إضافة إلى ما بناه كبار رجال الدولة. وقد تابع صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية وليدة الزنكية، السير على طريق سيده نورالدين، كما تابع ذلك خلفاؤه من بعده، حتى أصبح عدد المدارس في دمشق وحدها في هذه الفترة، زهاء تسعين مدرسة. ويحددها ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤هـ باثنتين وتسعين مدرسة، وتسعة عشر رباطا وتسع عشرة خانقاه.

وقد ساعد على هذه النهضة العلمية أن عددا كبيرا من سلاطين الأيوبيين كانوا من العلماء. فقد كان صلاح الدين نفسه حافظا للقرآن، وراوياً للحديث، وصاحب ذوق لطيف في رواية الشعر وحفظه. جمع بلاطه جمهرة من العلماء والكتاب، كالقاضي الفاضل والقاضي ابن شداد، وعماد الدين الكاتب. حتى قيل أنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد سيف الدولة بن حمدان ما اجتمع ببابه. وزاد على سيف الدولة في الحباء والفضل والعطاء[٧]. وكان يحضر مجالس هؤلاء العلماء، يستمع إليهم، ومن ثم فإنه يشاركهم في ابحاثهم[٨]. كما برز عدد كبير من أبناء الأسرة الأيوبية في نظم الشعر وتأليف الكتب وتصنيفها من جهة، وبناء المدارس ورعاية رجالها وتأسيس المكتبات، واستصحاب العلماء والأدباء من جهة ثانية. فقد كان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين عالما بالحديث والنحو[٩]. أما السلطان الكامل فالحديث عن علمه كثير، فهو يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم، وعنده شغف بسماع

الحديث النبوي. وكان يناظر العلماء، وعنده مسائل غريبة من فقه يمتحن بها. فمن أجاب عنها قدمه وحظي عنده. وكان يبيت معه بالقلعة جماعة من أهل العلم ليسامروه[١٠].

كما نبغ من رجالهم المؤرخ المشهور ابو الفداء صاحب حماه، المتوفى سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م، مؤلف كتاب المختصر في أخبار البشر وغيره من المؤلفات. وكذلك بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك، المتوفى سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م الذي كان شاعرا أديبا، والملك الناصر بن الملك المعظم المؤيد الأيوبي صاحب اليمن المتوفى سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م. وكان من أهل العلم. اشتملت خزانته على مائة ألف مجلد، والملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق المتوفى سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م. وكان راغبا في الأدب وأهله، حتى أنه أعطى لكل من يحفظ المفصّل للزمخشري مائة دينار وخلعة[١١].

وتعود أسباب نشاط الحركة التعليمية، وكثرة بناء المدارس في العصر الأيوبي إلى ما يلي:

١ ــ كان بناء المدارس في هذه الفترة، ضمن إطار حركة الاحياء الثقافي للمدارس الأربعة، ولدعم هذه المدارس في وجه خصومها عموما، التي كان لها السيطرة في المنطقة، قبل دخولها تحت طاعة السلاجقة والزنكيين ثم الأيوبيين، ويتضح هذا ويتأكد حين نذكر قول نورالدين لجماعة من الفقهاء حين استدعاهم إلى القلعة بحلب على أثر خلاف قام بينهم حول مواد التدريس في المدارس. فمنهم من مال إلى المذهب، ومنهم من مال إلى علم النظر والخلاف. فقال لهم نورالدين: «نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين»[١٢].

٢ ــ لم يكن النشاط العلمي الذي ظهر في هذه الفترة ترفا فكريا ولا إفرازا تقليديا لأجهزة الدولة، ولكنه عملية بناء ثقافي وتربوي واسع النطاق لشعب لاقى من التحديات إثر اكتساح موجات الصليبيين واحتلالها لأجزاء من بلاد الشام. وكان من غاياتها المتعددة طمس معالم الحضارة الاسلامية. فنهض أبناء الأمة وزعماؤهم الذين يعرفون كيف يحمون وجودهم ويحافظون على شخصيتهم الحضارية، ودينهم القويم، ببناء المدارس، واتخاذ الجوامع منبرا للارشاد والتثقيف عن طريق بناء الزوايا. وقد اثمرت هذه السياسة، وحقق العرب المسلمون النصر على الصليبيين في حطين وغيرها.

٣ ــ الاهتمام الكبير الذي حظي به العلماء والمدرسون. فقد وفر لهم نورالدين، ومن بعده صلاح الدين والأيوبيين عموما سبل الرعاية والتشجيع. كما وفروا لهم الدخل الكبير والمساكن حتى يتفرغوا للعلم ونشره[١٣]. ومن شدة اهتمام نورالدين بالعلم فإنه كان يعمل على انتقاء المدرسين بنفسه، ويستقدمهم من أماكن بعيدة، ويفتح لهم المدارس الكثيرة، وكان يكفي وجود عالم من العلماء في مادة من المواد كدافع لبناء مدرسة يقوم بالتدريس بها. فقد بنى نورالدين مدرسة لشرف الدين بن أبي عصرون في دمشق، وفوض إليه التدريس بها. وسمح له أن يوليها من شاء. وبنى لقطب الدين النيسابوري مدرسة لم يتمها[١٤].

٤ ــ كان الغاية من بناء المدارس تخريج موظفين واساتذة متعمقين بفقه المدارس الأربعة، كيما يتولوا الوظائف الحكومية[١٥].

٥ ــ همة كل من نورالدين وصلاح الدين العالية في نشر الأمن والوقوف بحزم أمام الأعداء. فوثق الناس بحكامهم في الحفاظ على حياتهم، وانصرفوا للنهل من العلم. ولنا فيما كتبه أبو شامة أكبر دليل على ذلك، إذ قال: «حتى أن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقرا للعلماء والفقهاء والصوفية، لصرف همته إلى بناء المدارس والربط، وترتيب أمورهم، والناس آمنون على اموالهم وانفسهم»[١٦].

٦ ــ كانت المدارس تدرس العلوم الدينية، لذلك قصد السلاطين والأمراء والأغنياء من تأسيسها التقرب إلى الله وكسب الثواب. فقد رأوا فيها وسيلة لتعليم القرآن وتعاليم الدين الاسلامي، والتفقه بمذاهبه، ورجا آخرون الشهرة، وفريق ثالث كان يرى إنفاق ثروته فيما ينفع الناس، ويترك لهم ذكرى[١٧].

٧ ــ اعتمد سلاطين الأيوبيين على صناعة الحرب، وادركوا أهمية الاستفادة من تأثير علماء المسلمين والمتفقهة منهم خاصة في تثبيت سلطتهم

من جهة، والتقرب من الجماهير في المدن من جهة اخرى، ومن ثم دفعهم إلى الانخراط في الجيوش المقاتلة.

وعلى الرغم من كل ما قيل عن أسباب بناء المدارس، وأنها كانت لطمس حركات الهراتقة، فإنه يمكن القول، بأن الأيوبيين تسامحوا مع مخالفيهم في المذهب. فقد كانت المدارس في عهدهم تفتح للمذاهب الأربعة، على الرغم من انهم شوافعة. وزاد تسامحهم عندما أصبحوا بعضهم كالمعظم وابنه داود أحنافا. وقد تبع ذلك حسن معاملتهم للمسيحيين شرقيين وغربيين، وكذلك لليهود. وقد بدوا أقل تشددا من الزنكيين والسلاجقة مع اتباع المذاهب الشيعية. وقد يكون ذلك بسبب تغير الظروف الموضوعية حولهم. فقد زال سلطان الفاطميين السياسي، ولوحق دعاتهم، فلم يعودوا يشكلون خطرا عليهم. أما ما كان يجري من خلافات مع أصحاب المذاهب الأخرى في عصرهم، فمرده سياسي أكثر منه ديني.

كان من نتيجة اهتمام الأيوبيين ببناء المدارس ان أصبحت الشام مركز الثقافة العربية الاسلامية، تقاطر نحوها العلماء من سائر الأقطار نظرا للتشجيع الذي نالوه من الحكام ولتوفر المناصب العلمية في المدارس، وجودة واردها نسبيا إضافة إلى توافد الطلبة الذين يتوفر لهم التعليم والجراية من واردات الأوقاف التي أوقفت على المدارس الكثيرة.

اماكن التعليم وحلقاته:

تنوعت وتعددت أماكن التعليم في هذا العصر. فقد كانت المساجد أماكن لتلقي القرآن والعلوم الدينية وعلوم اللغة العربية ودراسات أخرى، وكذلك فقد كانت الخوانق والربط والمدارس. وهذه أماكن لتعليم الحلقات العليا، وتقابلها الكتاتيب والمياتم للحلقات الدنيا.

(أ) الحلقات العليا:

١ ـ المدارس:

لم تختلف المدارس عن الجوامع أو المساجد في وظيفتها أو الغرض منها، إلا أنها كانت أكمل وأوفى بأغراض الدراسة المتصلة بها، ولسكنى



□ المدرسة العادلية الكبرى (الواجهة).

الطلاب المنضوين إلى العلم بها. وتنوعت المدارس، فخصص بعضها للفقه وبعضها للحديث وبعضها للغة العربية، كالمدرسة النحوية التي انشأها الملك المعظم في مدينة القدس[١٨]. ومدارس للطب كالمدرسة الدخوارية في دمشق، التي أنشأها ودرس بها الطبيب مهذب الدين دخوار.

اما الفئة الاجتماعية التي انشأت المدارس فهم من سلاطين الأيوبيين، وبقية أفراد الأسرة الأيوبية، بما فيها نساء الأسرة. فقد ساهمت أختا صلاح الدين في تشييد المدارس، فبنت أخته ست الشام زمرد خاتون مدرستين للشافعية بدمشق[١٩]. وبنت أخته الثانية ربيعة خاتون مدرسة الصاحبة بدمشق للحنابلة، ودفنت في فنائها. واقتدت بهما بنات أخيهما الملك العادل أبي بكر. فقد بنت حنيفة خاتون مدرسة الفردوس في حلب، ورتبت فيها عددا من القراء والفقهاء. كما انشأت مؤنسة خاتون المدرسة العادلية الصغرى بدمشق للشافعية، وبنت عذراء خاتون بنت نورالدولة أخي صلاح الدين المدرسة

العذراوية في دمشق للحنفية والشافعية[٢٠]، وغيرهن كثيرات.

كما بنى العلماء والفقهاء والأمراء والأغنياء عددا لا بأس به من المدارس، ولحق بهم بعض العتقاء والخصيان.

أوقف بناة المدارس أو فاعلي الخير الأوقاف على المدارس. حتى أن أوقاف نورالدين كان حاصلها الشهري تسعة آلاف دينار صوري[٢١]. ولا عجب في ذلك. فالمدارس تقوم بإعالة الأساتذة والموظفين فيها، إلى جانب الانفاق على من ينتسب إليها للتعلم والاستفادة. وقد عجب ابن جبير من أوقاف مدارس الشام، واخذ يحث نشأة المغرب على الرحلة إلى هذه البلاد، للارتواء من مواردها العلمية، ويؤكد لهم أن المدارس فيها فارغ البال من أمور المعيشة[٢٢].

كانت المدارس على نوعين، أحدهما كان في أصله منزل، ولذلك فإنه لا طابع خاص له. والآخر بني خصيصا للتدريس. فكان له خصائص هندسية، وخاصة الايوانات فمنها ذات الايوان، أو الايوانين، ثم ظهر فيما بعد الطراز ذو الايوانات الأربعة.

كانت المدرسة ذات الايوانات الأربعة، مستطيلة البناء، يتوسطها فناء كبير مربع يعرف بالصحن، يتوسط كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان كبير[٢٣]. وتحيط بها الحجرات في الطابق الأسفل، وغرفات في الطابق الأعلى. وكان لأغلب المدارس أروقة أمام الحجرات والغرف. وقد تكون هذه الأروقة مزخرفة بمختلف أنواع المقرنصات.

وقد يختص كل إيوان بتدريس مذهب من المذاهب، وقد لا يختص. بل يمكن القول أن عدد الأواوين في المدرسة الواحدة لا علاقة له بوجه عام بعدد المذاهب التي تدرس فيها، فقد يدرس في مدرسة ذات إيوانين المذاهب الأربعة، مما يستنتج معه أن الايوان لا يدل على المذهب، وإنما يدل على طراز معماري، أو أسلوب فني في العمارة العربية الاسلامية، تتجلى فيه براعة المهندس المسلم في تجميل المدارس والقصور وتزيينها[٢٤]. ويصف لنا ابن جبير مدرسة نورالدين زنكي فيقول عنها: «ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نورالدين رحمه الله، وبها قبره. وهي قصر من القصور الأنيقة، ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة، إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر»[٢٥].

لم تكن المدرسة للتدريس فقط، بل كانت مدفناً لواقفيها في الغالب، كما كان يلحق بها مسجد تؤدى فيه الصلاة[٢٦]. ومسكن للمدرس. فقد الحق بدار الحديث الأشرفية دار للشيخ المدرس بها. كما قطن الفخر بن عساكر بمدرسة الجاروخية[٢٧]. كما كان في المدرسة الرواحية سكن للمدرسين فيها. كذلك ألحق بالمدرسة الصالحية سكن للمدرس[٢٨].

وفوق كل ذلك كان يلحق بالمدرسة مكتبة عامرة بالكتب النفيسة، يستخدمها الطلاب والأساتذة. وكانت المكتبة مرتبة البيوت مقسمة الرفوف مفهرسة، لسهولة الوصول إليها على أدق وأفضل طرق تنظيم المكاتب في عصورنا[٢٩]. وكانت الكتب توقف للمدارس من قبل الواقف، أو من قبل فاعلي الخير.

وإلى جانب المكتبات العامة، فقد كان هناك مكتبات خاصة لها قيمتها العلمية. فقد كانت كتب القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البيساني العسقلاني، تتألف من مائة مجلدة[٣٠].

كانت المدارس في غالبيتها توقف للشافعية او للحنفية، وهناك مدارس أقل عدداً للحنابلة والمالكية، ومدارس مشتركة بين مذهبين أو أكثر، كالمدرسة الصلاحية في دمشق التي كانت للشافعية وجعل فيها قسم للمالكية.

كان المدرس يدرس بالطريقة التي يراها مناسبة لطلبته مع التقيد بشروط الواقف من حيث المذهب والمواد المقررة[٣١]. وكان يحسن إلقاء الدروس وإفهامها إلى الطلاب بدافع ذاتي، وحرصا على سمعته العلمية. كما كان المدرسون يفرضون بعض الآداب على أنفسهم، فيكتسبون احترام طلابهم وجماهير الشعب والحكام[٣٢].

لم تكن أيام الدراسة المقررة واحدة في كل المدارس. فقد كانت تتراوح بين ثلاثة أيام وخمسة من كل اسبوع حسب شروط الواقف. كما لم تكن مواعيد الدراسة محددة تحديدا دقيقا. وكانت عموما فيما بين طلوع الشمس

وآذان العصر[٣٣]. كما اختلفت العطل الدراسية السنوية من مدرسة لأخرى. وكان يسمح بعطل عارضة في أيام التشريف والمطر المانع من الحضور، وشدة الرّيح والبرد، وفي حال الضرورة غير المرضية يمكن تغيب كل من المدرس والطلبة لمدة ثلاثة أيام من كل شهر مع صرف مرتباتهم عن العطلة. ومن تغيب أكثر قطع معلومه النقدي والعيني[٣٤]. أما الاصابات المرضية فمأجورة حتى الشفاء دون تحديد زمن معين لفترة الاجازة[٣٥].

٢ ــ المساجد:

كانت المساجد معاهد للعلوم الدينية والعربية غالباً والاجتماعية والتاريخية أحيانا، والعقلية نادرا. وتميز التعليم في المساجد بالحرية المطلقة بالنسبة للمدرسين والطلبة في اختيار المناهج. وخير مثال على التعليم في مساجد دمشق الحديث عن المسجد الأموي. فقد كان فيه سبع زوايا تدريسية في هذه الفترة، حظيت بعناية الكثيرين، ووقفت لكل منها الأوقاف الكثيرة. ونال بها المدرسون أجرا واسعا، وألحق بزواياه ومدارسه مساكن للطلبة والأساتذة. وقد ترك لنا ابن بطوطة، وصفا للتدريس في الجامع في كافة حلقاته فقال: «وللمسجد الأموي حلقات للتدريس في فنون العلم، والمحدثون يقرؤون كتب الحديث على كراسي مرتفعة، وقراء القرآن يقرؤون بالأصوات الحسنة صباحا ومساء، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله»[٣٦].

٣ ــ التعليم في الأربطة والخوانق والزوايا:

تعددت الأربطة والخوانق والزوايا في هذه الفترة في بلاد الشام. ومطالعة في كتاب النعيمي الدارس في تاريخ المدارس تؤكد ذلك. والخانقاه بيت الصوفية ومدرستهم، وكذلك الرباط. إلا أنه بني أصلا بغاية المرابطة للجهاد. والصوفية في رباطهم متفقون على قصد واحد وعزم واحد.

كان تعليم الصوفية على قسمين، قسم إجباري غالبا ما يتعلقبالأمورالدينية واللغة العربية، وهي العلوم التي يترتب على الصوفي الاشتغال بها، ويلزم بحضور دروسها، وآخر اختياري يختاره الصوفي بحسب قابلياته واستعداده[٣٧]. أشهر خوانقهم في دمشق الخانقاه السميساطية والطواويسية والناصرية. أما الأربطة فعلى رأسها الرباط البياني[٣٨].

(ب) الحلقات الدنيا:

المحاضر أو المكاتب والمياتم:

يتم التعليم في هذه الحلقة في المساجد أو الكتاتيب. وقد ترك لنا ابن جبير وصفا حيا لتدريس الصغار في المسجد الأموي. ويرى أن حلقات تدريسهم فيه تكاد لا تنقطع طيلة اليوم. ويلقن الصبيان القرآن تلقينا. وبعد إتقانه يبدأون بالكتابة وتعلم الخط بنسخ الأشعار. ويجري للطالب بعد ختم القرآن احتفال عام يشترك فيه الطلبة وذووهم ومعلمهم[٣٩].

كانت الرغبة في تعليم الصبيان كبيرة، وهذه الرغبة من قبل الأهل والصبي والمقرىء مبعثها انه كان لمقرئي الصغار اجراء واسع. وكان الصبيان يأخذون على قراءتهم جراية معلومة، ترغبهم في القراءة، وترغب الأهالي بإرسال أبنائهم للتعلم والكسب.

وكان في دمشق محضرة كبيرة لتعليم الصبيان وخاصة الأيتام منهم. وكان لها وقف يأخذ منه معلم صبيان الأيتام، وينفق على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم. وكان التعليم في مثل هذه المكاتب أو المحاضر ابتدائيا يتعلم فيه الصغار قراءة القرآن والكتابة والخط عن طريق تكتيبهم الأشعار التي يتعلمونها أيضا عن طريق تعلمهم الكتابة.

أركان الحركة التعليمية:

١ ــ متسلمو الوظائف التعليمية:

(أ) المدرسون:

يقف المدرسون على رأس هيئة التدريس، ويشترط أن يتوفر فيهم العلم التام بمادة التدريس وحسن الديانة والورع والتقوى.

يتم تعيين المدرس من قبل واقف المدرسة، ونادرا ما يتم بمعرفة السلطان. ولكل مدرسة مدرس أو أكثر بحسب حاجة المدرسة، وأحيانا تكتفي المدرسة بالمعيدين، وتنتظر تعيين مدرس. وكان المدرس في مدرسة، كأنه جزء منها، إذ

لا يمكن أن يحل فيها مدرس جديد عوضا عنه، إلا إذا تنازل بنفسه له إما كليا أو جزئيا، إلا في أحوال استثنائية. وقد ينتقل المدرس برأيه من بلد يدرس فيه إلى آخر للقيام بنفس المهمة، وقد يكون الدافع أن شروط التدريس افضل في ذلك البلد، لأن أنظمة المدارس ووارد المدرسة يختلف باختلاف الواقف وشروطه. وكان هناك مدارس ذات شروط ممتازة، وأوقاف كبيرة يتنافس المدرسون على التدريس بها.

كان المدرس على الرغم من علو كعبه بالعلم، يعمل على حضور المشيخات مستمعا إلى دروس غيره[٤٠]. وذلك أشبه باستمرار الاطلاع على العلوم الجديدة والكتب المؤلفة من قبل العلماء في عصرنا الحالي.

برزت أسر علمية في بلاد الشام في هذا القرن، وتسلمت التدريس في المدارس. وكان نبوغ هذه الأسر في علم بعينه أو في علوم مختلفة. فكان بنو عساكر شيوخ الشافعية في علم الحديث[٤١]. ونبغ عدد من العلماء من آل عصرون في الفقه والحديث[٤٢]. وهناك أسرة الدولعي والحرستاني والشهرزوري وغيرهم.

أشهر علماء هذا العصر، عبد الكريم الحرستاني، وأبو القاسم الحرستاني، وعماد الدين الحرستاني والصائن بن عساكر، وأبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر، وأبو المظفر بن عساكر، والقاسم بن عساكر، والقاضي كمال الدين الشهرزوري وضياء الدين الشهرزوري، وشرف الدين بن عصرون وقطب الدين النيسابوري، والدخوار، وعلم الدين السخاوي.

درج المدرسون على منح طلابهم الاجازات وهي على نوعين:

إجازة أدبية فخرية تشبه الشهادة الفخرية التي تعطى في عصرنا الحالي. وتعطى لمن يتوسم فيهم الخير وهم صغار في السن، وحتى للرضع منهم.

وإجازة علمية ـ وهي موضع البحث في هذا المقال ـ وتعطى للطالب الدارس من قبل الأستاذ المشرف سواء بالتدريس أو الفتيا أو عراضة الكتب ينالها الطالب بعد أن يشعر أستاذه بمقدرته وكفاءته. وبعد أن يعرضه لأسئلة متعددة ومتنوعة في كتاب بعينه أو في الفقه عامة. وفي الحديث وغير ذلك أمام جمهور الناس مناقشة علنية تشبه احتفالا خاصا يجتمع فيه أهل الفضل والعلم[٤٣]. فإذا استطاع الطالب أن يجيب على كل الأسئلة التي تطرح عليه ينال الاجازة من المدرس لا من المدرسة، يكتبها له الأستاذ ويوقعها كي لا تزور، ولا يكتفي الطالب بإجازة واحدة. فقد يسعى لنيل غيرها. وكلما زاد عدد إجازاته زادت مكانته العلمية.

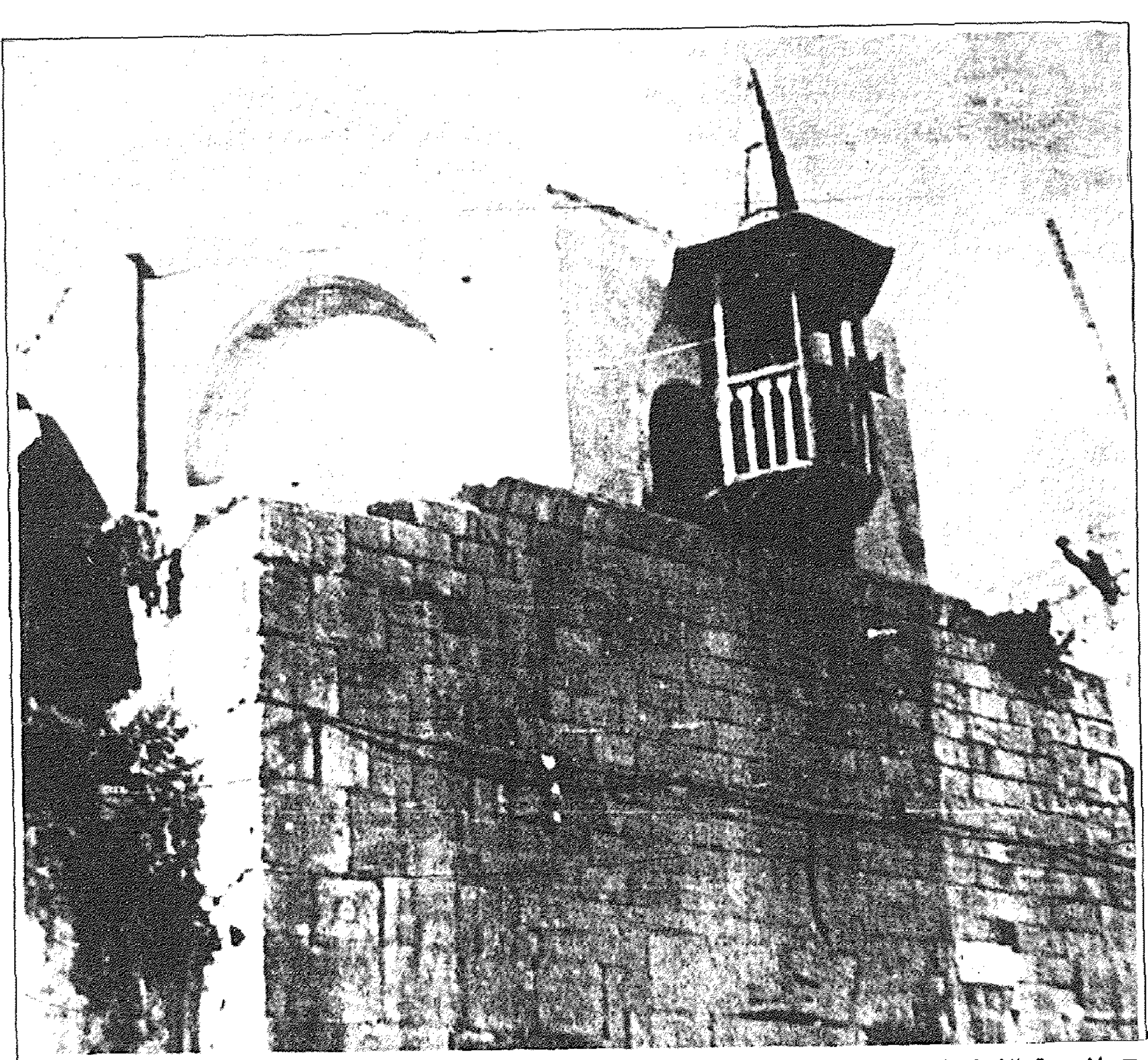
نالت المرأة حظا من العمل التعليمي، وإن لم تتسلم وظيفة التدريس في المدارس. ولعبت بعض النساء دورا لا يقل أهمية عما قام به الكثير من العلماء والفقهاء. وتتلمذ على أيديهن الكثير من الطلبة. وإن إماما عظيما كالحافظ بن عساكر كان عدد شيوخه من النساء نيف وثمانين امرأة[٤٤]. يعطينا دلائل متعددة منها:

ـ كثرة عدد النساء المشتغلات بالعلم والدين في ذلك العصر، بحيث أن محدثا حافظا كابن عساكر، سمع من نيف وثمانين امرأة، هذا فضلا عن كثرة النساء اللائي ترجم لهن ابن عساكر في تاريخه.

ـ لم تكن هناك غضاضة في أن يتلقى طالب العلم علمه على يدي امرأة. بل يبدو من ثنايا التراجم التي أوردها المؤرخ ابن عساكر لبعض نساء عصره وخاصة من أخذ عنهن، مدى تقديره لهن، فيقول: «أخبرتنا العالمة ملكة بنت داود... وأجازت لي جميع حديثها...». كما وصف زمرد بنت جاولي بن عبدالله بأنها مكرمة لأهل العلم.

ولكن أين كانت المرأة تتعلم في ذلك العصر لتتفقه وتصل إلى مرتبة العلماء؟ يبدو من خلال السطور التي دونها ابن عساكر، أن البيت كان المدرسة التي تتلقى فيها المرأة علومها[٤٥].

والملاحظ أن النساء اللائي اشتهرن بالعلم والدين في هذه الفترة نشأن في بيوت علم ودين. وإذا لم تكن كذلك وكان أهلها راغبين في تعليمها، فإنهم يهيئون لها فرصة تلقي العلم عن بعض فقهاء العصر أو فقيهاته. من ذلك ما يذكره ابن عساكر في ترجمته لزمرد خاتون بنت جاولي بن عبدالله، أنها سمعت الحديث من الفقهاء: «أبو الحسن بن قيس، وأبو الفتح نصرالله بن [illegible] وأبو طالب بن أبي عقيل



□ المدرسة الفرخشاهية: في زقاق الصخر عند مدخل دمشق الغربي، تعرف بعزالدين فرخشاه، وقفتها والدته حظ الخير خاتون زوجة شاهنشاه بن ايوب سنة ٥٧٨هـ على الحنفية والشافعية ويبدو فيها مئذنة المسجد الملحق بالمدرسة.

الصوري»[٤٦]. وقد تخصص بعض المدرسين في تعليم النساء[٤٧].

نال المدرس مكانة كبيرة في هذا العصر، وبالغ الزنكيون والأيوبيون في تقديرهم، حتى جعلوا منزلتهم أعلى من منزلة الأمراء حتى حسدهم الأخيرون على مكانتهم. وكانوا يعطونهم الكثير ويجدونه قليلا قياسا إلى خدماتهم. وكان نورالدين يقول: «هؤلاء جند الله، وبدعائهم ننتصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم، فلهم المنة علينا»[٤٨].

كما يؤكد المؤرخ عبداللطيف البغدادي استمرار ذلك في عهد صلاح الدين بماأورده قائلا: «لما دخلت دمشق وجدت فيها من أعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الاحسان الصلاحي جمعا كثيرا.. فكتب لي صلاح الدين بثلاثين دينارا في كل شهر على ديوان الجامع بدمشق، وأطلق لي أولاده رواتب حتى تقرر لي في كل شهر مائة دينار. ورجعت إلى دمشق، وأكببت على الاشتغال وإقراء الناس بالجامع»[٤٩].

ولمكانة العلماء المدرسين لدى الناس ورجال السياسة، فانهم كانوا يستطيعون توجيه النقد اللاذع لهم. فقد قال الحافظ بن عساكر لصلاح الدين: «نزهت نفسي عن مجلسك، فإنني

رايته كبعض مجالس السوقة لا يستمع فيه إلى قائل، ولا يرد جواب متكلم. وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نورالدين، فكنا كما قيل، كأنما على رؤوسنا الطير تعلونا الهيبة والوقار. فإذا تكلم انصتنا، وإذا تكلمنا استمع لنا. فطلب صلاح الدين من أصحابه الا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ»[٥٠].

(ب) المعيدون:

يعتبر المعيد من أعضاء الهيئة التدريسية، ويختلف هذا المنصب التعليمي اختلافا كليا عن نقيب الطلبة الذي يعتبر من جملة الطلبة. فهو المدرس الثاني، يعيد الدرس على الطلاب ويتوقف لشرح النقاط أو المشاكل التي لم يتم فهمها من الأستاذ، ربما لضيق الوقت او للاحترام الشديد من الطلبه لاستاذهم، والذي يمنعهم في كثير من الأحيان من طلب إعادة الشرح اكثر من مرة ليفهموه ويحسنوه[٥١]. كما يقرأ النص الذي يعينه الأستاذ للطلاب ويشرحه، فيهيىء الأذهان لفهم الدرس، ويراجع الطلاب فيما طلب منهم حفظه أو بحثه[٥٢]. ويكون اشتراك المعيد في التدريس مع أستاذه بداية لترقيته إلى رتبة مدرس[٥٣].

كان المجال مفسوحا أمام المعيد لينتقل إلى مرتبة مدرس، ولا بد له من أجل ذلك من أن يرحل في طلب العلم على الرغم من مشاق السفر. وغايته من هذا السفر، الاتصال بالعلماء عسى أن يجد جديدا عندهم فيتعلمه، وبعد الرحلة العلمية، غالبا ما يصبح المعيد مدرسا.

يساعد المدرس في عمله معيد أو اكثر. وممن أعاد في المدرسة النورية الكبرى شرف الدين ارسلان المتوفى سنة ٦٣٩، كان يعيد للامام برهان الدين مسعود[٥٤]، وقد أعاد ابن الصلاحي في المدرسة الرواحية اكثر من عشرين سنة. كما أعاد عبدالكريم الحرستاني بالمدرسة الأمينية عن ابن عصرون. وقد ذكر الكتبي أن ابن أبي عصرون استنابه بالزاوية الغربية بجامع دمشق، وضم إليه المدرسة الامينية[٥٥].

كان المعيدون على درجة علمية عالية، وسمعوا عن كثيرين من كبار المدرسين. فقد سمع المعيد عبدالكريم الحرستاني من جمال الاسلام السلمي وأبي الحسين بن قبيس. ورحل فسمع ببغداد ودرس على أبي منصور بن الرزاز شيخ الشافعية ومدرس النظامية. وسمع بخراسان من عدد من المدرسين. ونتيجة لذلك فإن مكانة المعيد كانت كبيرة، وكان عدد من العلماء يأخذون عنهم.

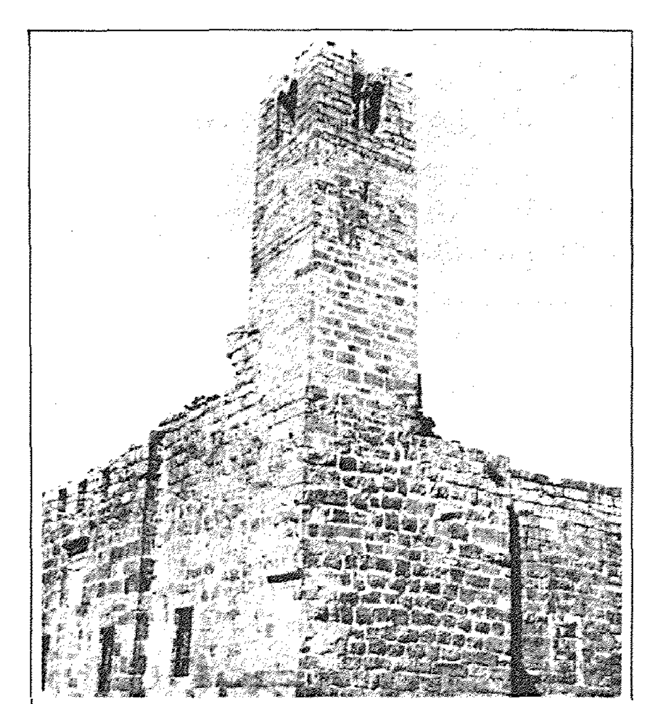
(ج) الطلاب:

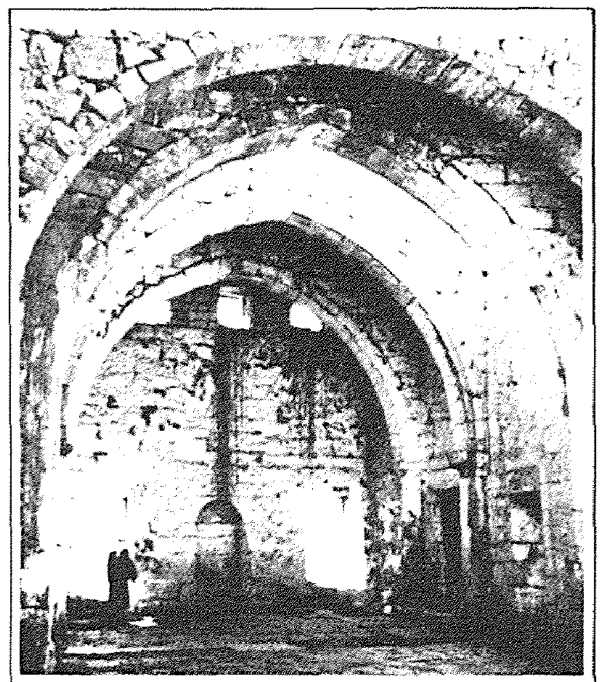
يطلق البعض عليهم فقهاء المدارس. ولم يكن يشترط سن معينة لقبول الطالب بالمدرسة، ولكن بعض الواقفين وضعوا شروطا فحواها أن تتوفر في طلبة مدارسهم قابلية التعليم واتصافهم بالفطنة والذكاء[٥٦]. كما كان من الواجب قسم الطلبة إلى فرقتين، المبتدئين والمنتهين[٥٧].

كانت مراقبة الدوام والمواظبة على الحضور هامة جدا ليتأكد الأستاذ من أن طلابه حضروا وسمعوا كل ما درس لهم ويدقق في هذا الأمر كاتب الغيبة الذي يسجل إسم كل من يتخلف عن الحضور ويرفعه إلى الناظر أو نائبه، فيخصم عليه راتبه بمقدار ما تخلف إن رأى مصلحة بذلك. كما يكتب اسم الباب الذي فاته لياطلب بأسئلة منه عند قراءة الكتاب[٥٨]. ولا ينال الاجازة منهم في التدريس إلا من أثبت لمشايخه كفاءته، وكان على استعداد لأن يزداد علما. ولا يصل الطالب إلى مرحلة متقدمة في العلم، إلا إذا أخذ عن مشاهير بلده، ورحل بعدها في طلب العلم[٥٩]. وكان الطالب يتدرج في مراحل تعلمه حتى يصبح فقيها منتهيا، ويختص بعلم من العلوم التي يوثرها.

كان طلاب العلم في كل مدرسة من المدارس، يأخذون مرتبات مخصصة تكون على الغالب من الوقف المخصص للمدرسة. وقد يتأثر هذا المرتب — إذا كان الوقف زراعيا — بأحوال المواسم العامة، وقد يقل المرتب لدرجة أن الطلاب الذين يعتمدون في إعاشتهم عليه يضطرون إلى ترك المدرسة في أثناء الجائحات[٦٠].

لم يكن الطلاب من العامة فقط، بل كان الملكوك والنواب والأمراء والقضاة والفقهاء





□ مدرسة ابي الفداء، وهي مدرسة أيوبية فريدة في فن عمارتها وهندستها، فيها مصلى عليه قبة، ومئذنة. شيّدها عام ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م.

يحضرون الدروس أيضا. فقد حضر درس القاضي جمال الدين الحصري الذي ألقاه سنة ٦١١هـ أعيان الشيوخ والقضاة الفقهاء. وحضر السلطان المعظم عيسى بن العادل، وشيخ الشافعية فخرالدين بن عساكر وغيرهم[٦١].

كان طلبة المدرس تاج الدين الكندي من أولاد الملوك، وكان يزدحم درب العجمي ــ حيث يقطن هذا المدرس ــ من رواد المدرسة. ويقول أبو شامة مؤكدا على علو مكانة الطبقة التي تحضر درسه «ومتى ما أريد اعتبار ذلك، فلينظر في الكتب التي عليها طبقات السماع عليه، ليعلم جلالة من كان يتردد إليه».

وكان المعظم عيسى يقرأ عليه دائما، قرأ عليه كتاب سيبويه نصا وشرحا، الايضاح والحماسة وشيئا كثيرا. وكان يمشي من القلعة راجلا إلى دار تاج الدين الكندي، والكتاب تحت إبطه. قال أحد طلاب الكندي فيما يرويه أبو شامة: «كنا نقرأ يوما عنده أنا ورفقائي فدخل الملك المعظم، فجلس فسكتنا. فقال الشيخ للمعظم: «إنما سكتوا لأجل السلطان ولم يفرغوا من حزبهم. فقال: لا والله إنما القراءة بالنوبة، فليتمموا، فأمرنا الشيخ فأتممنا حزبنا»[٦٢].

٢ ــ متسلمو الوظائف الادارية والعملية:

(أ) الوظائف الادارية:

ــ **الناظر**: يعتبر بمثابة مدير عام للمدرسة، فهو الذي يباشر شؤون المدرسة، وينظر في أوقافها، ويؤجر عقاراتها، ويشتري لها لوازمها ويعمر ويرمم وينظر ويصرف للموظفين رواتبهم، ويخصم من المتخلفين مقدار ما تخلفوا، ويزيد لهم في رواتبهم إن زادت الغلة، وينزل لهم فيها إن قلت. وكان يشترط فيه الأمانة والكفاية والعدالة وغيرها. وقد يكون للناظر نائب أو وكيل يعينه ممن يثق بهم.

ــ **الشاهد**: ويعتبر كالمراقب للناظر أو نائبه. فإذا باع أو اشترى أو أجر أو أعطى شيئا لأحد يكون ذلك بحضوره، ويضع شهادته على الصكوك والعقود.

ــ **المشارف**: هو المشرف على أمور المدرسة كالنظافة والخدمة وغيرها[٦٣].

ــ **الصدر**: هو الذي يجلب للمدرسة الكثير من أهل الطلب والعلم، وليس من الضروري أن يكون في كل مدرسة صدرا[٦٤].

(ب) الوظائف العملية:

كان للمدرسة مؤذن للآذان والقيام بالأمور الدينية الأخرى، وقيِّم يشرف على خزائن الكتب. وكان لهما مخصصات من وقف المدرسة.

انواع العلوم: (ثقافة العصر العامة):

ابرز سمات الثقافة في هذا العصر، الاهتمام بالثقافة الدينية من علوم القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه الاسلامي، وإلى جانبها العلوم اللغوية والاجتماعية وعلوم الطب وعلوم أخرى متفرقة.

١ ـ العلوم الدينية:

كان علماء الحديث يدرسون كتب الحديث المصنفة المشهورة. ومن اجلّ من اشتغل به في هذه الفترة الحافظ بن عساكر، وتقي الدين عثمان بن الصلاح[٦٥]. اما الفقه فكان يغلب على التدريس فقه الامام الشافعي، وبدرجة اقل فقه الامام أبي حنيفة، ويندر التدريس بالفقه المالكي والحنبلي.

اما علوم اللغة العربية وعلى راسها الأدب، فقد كان لأكثر علماء هذا العصر إلمام به، وكذلك بالنحو. ومن نحاة هذا القرن ومدرسي المادة في دمشق، تاج الدين زيد بن الحسن الكندي المتوفى سنة ٦١٣هـ[٦٦].

وحظي التاريخ بعناية الكثيرين ودرس في المسجد الأموي وفي اماكن اخرى متعددة. فقد كان أبو شامة يقرىء التاريخ درسا عاما في الجامع الاموي في دمشق[٦٧]. ومن اشهر مؤرخي هذا العصر ابن ابي طيء، والعماد الكاتب، وابن شداد، وابن الأثير، وابن عساكر وغيرهما[٦٨].

اما الطب، فقد كان في دمشق بيمارستانان قديم، وحديث هو البيمارستان النوري. وكان موقوفا على الفقراء والمساكين بما في ذلك العلاج والدواء. وإذا كان الدواء نادراً فلا يمنع عن احد[٦٩]. ومن الأطباء المشهورين مهذب الدين دخوار[٧٠] وابن أبي الحكم الذي جعل له أمر الطب في البيمارستان النوري. وقد وصلتنا صورة مشرفة لاشراف هذا الطبيب واهتمامه بمرضاه وتعليم طلابه تعتبر من أرقى الصور المعروفة. فقد كان يدور على المرضى في البيمارستان ويعتبر أحوالهم، وبين يديه المشارفون والخدام للمرضى. وكل ما يكتبه لهم لا يؤخر عنهم. فإذا فرغ من ذلك، طلع القلعة، وافتقد مرضى السلطان وغيرهم وعاد إلى البيمارستان، وجلس في الايوان الكبير حيث توجد خزانتان كبيرتان تحويان كتبا طبية. فيأتي إليه الأطباء والمشتغلون، فيجلسون بين يديه، ثم يجري مباحث طبية، ويقرىء التلاميذ، ولا يزال معهم في مباحث واشتغال ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات، ثم يركب بعد ذلك كله إلى داره في دمشق[٧١].

كان ابن عريف النحاسين ممن نبغ في علم العقاقير، أما اللبودي وأبو الفضل عبدالكريم الحارثي فقد نبغا في الهندسة، وهذا الأخير هو الذي أصلح الساعة التي بجامع دمشق وهندس أبواب البيمارستان النوري[٧٢].

أما العلوم العقلية والفلسفية، فلم يتح لها الانتشار لموقف الأيوبيين المعارض لها. ولا يعني هذا أن العصر خلا من كل علم في هذا المجال، بل إن الحلقات العلمية لم تتناول هذه المواضيع، على حين عزل الفلاسفة، وصنفوا آثارهم في الكتمان، وأخفوها عن العوام، وأطلعوا عليها الخاصة من أصدقائهم خوفا على حياتهم[٧٣].

في الختام أقول أن العصر الأيوبي وسبقه العصر النوري، كان عصر افتتاح المدارس وعصر التعليم بحق. وقد نبغ فيه فئة كبيرة من العلماء المتخصصين في مختلف العلوم والفنون. وكان التعليم فيه حق لكل إنسان عاقل **ذكراً** كان أم انثى، **فقيراً** كان أم غني. وبلغت بلاد الشام في هذا العصر شأوا عظيما من التقدم الثقافي والعلمي، وبذت أختها مصر على الرغم من أن البلدين كانا تحت حكم الأيوبيين، وذلك لعدم قدرة الأخيرة على الملاءمة بين تراثها الماضي الفاطمي بطابعه المخالف والمباين للقيم والأهداف الجديدة.

المراجع

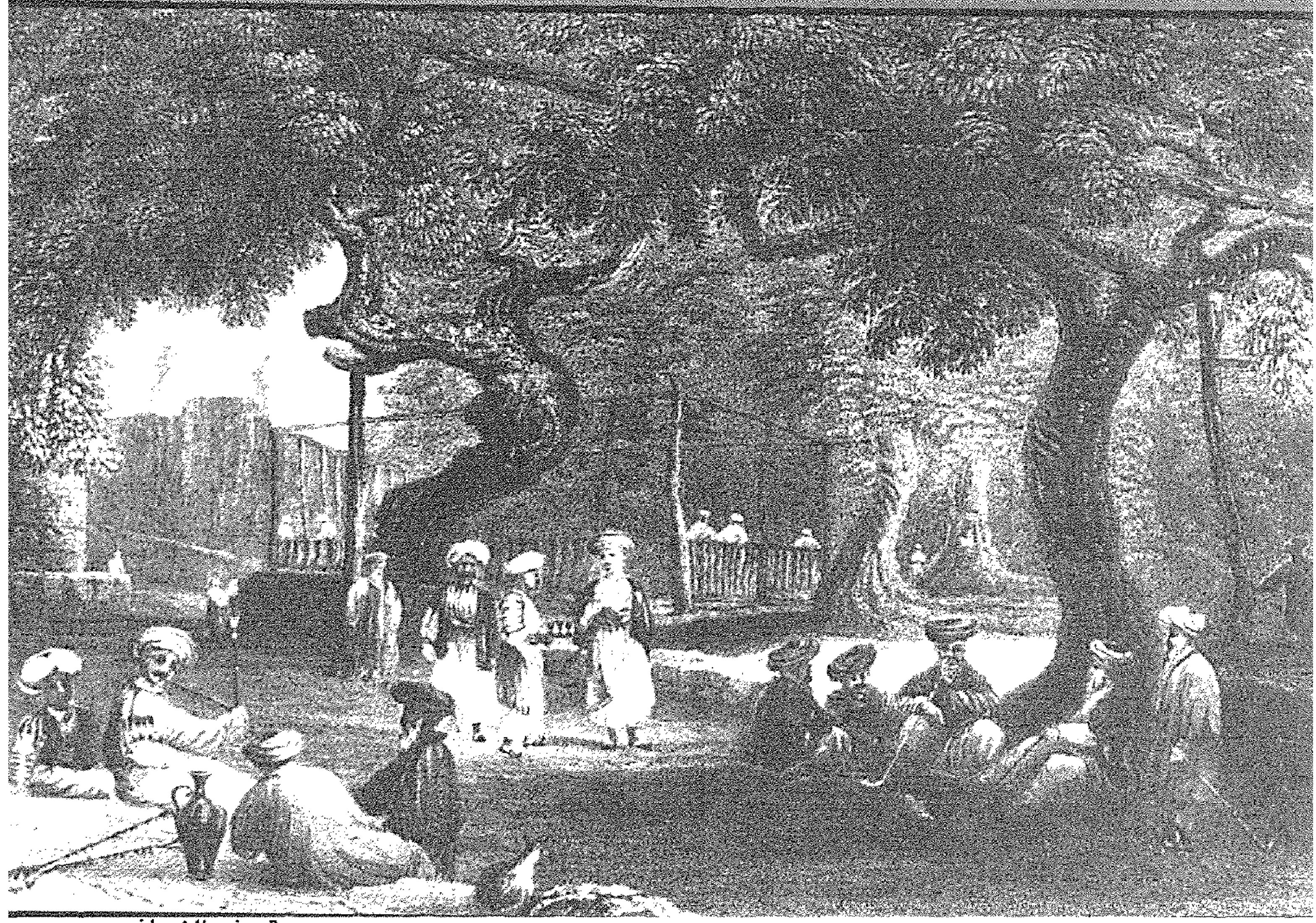
(١) محمد أحمد دهمان: في رحاب دمشق. دار الفكر، دمشق ١٩٨٢، ص ٢٥٩.
(٢) امينة بيطار: تاريخ العصر الأيوبي. دار الطباعة الحديثة، دمشق ١٩٨٢، ص ٢١ — ٣٣.
(٣) عاشور: الحركة الصليبية. ج ١، طبعة ثانية، ص ١١٦.
(٤) مجلة الفكر العربي، العدد ٢٠، مقال: المدرسة الإسلامية خارج المسجد، البدايات والوظيفة والعلم، ص ٤٢٦.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس. طبعة المجمع العلمي في دمشق، جزء ١، ص ١١.
— محمد كرد علي: خطط الشام. مطبعة المفيد ١٩٣٨، جزء ٦، ص ٧٠ — ٧١.
— كحالة: دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية. ص ٩٩.
(٦) عمادالدين خليل: نورالدين محمود. دار العلم، دمشق — بيروت ١٩٨٠، ص ٣ — ٤.
(٧) ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب. تحقيق سامي الدهان، طبعة المعهد الفرنسي، دمشق ١٩٥٤م، جزء ٣، ص ١٢٥.
(٨) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى. القاهرة ١٣٢٤هـ، جزء ٤، ص ٣٢٩.
(٩) ابن خلكان: وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان. تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٨م، جزء ١، ص ٣١٥.
(١٠) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك. نشر زيادة، القاهرة ١٩٤٣م، جزء ١، ص ٢٥٨.
(١١) عاشور: مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك. طبعة دار النهضة، بيروت ١٩٧٢م، ص ١١٨.
(١٢) ابو شامة: تاريخ الروضتين في اخبار الدولتين. دار الجيل بيروت، جزء ١، ص ١٣.
— نعمت اسماعيل علام: فنون الشرق الأوسط في العصور الاسلامية. دار المعارف بمصر، ص ١٢٦.
(١٣) عبدالغني محمود عبدالعاطي: التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك. رسالة ماجستير، ص ٦٦.
(١٤) كحالة: المرجع السابق، ص ٩٩.
— ابن واصل: مفرج الكروب في اخبار بني ايوب. جزء ١، ص ١٦٢ — ١٦٣.
(١٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان. دار صادر بيروت، جزء ٥، ص ٤١٥.
— شلبي: تاريخ التربية الاسلامية. مكتبة النهضة المصرية، طبعة ٣، ١٩٦٦، ص ١٩٥ — ١٩٦.
(١٦) ابو شامة: المصدر السابق. جزء ١، ص ١٤.
(١٧) محمد كردعلي: المرجع السابق. جزء ٦، ص ٦٩.
(١٨) محمد أحمد دهمان: في رحاب دمشق. دار الفكر دمشق ١٩٨٢، ص ٣١٠ — ٣١١.
(١٩) ابو شامة: ذيل الروضتين. ص ١١٩.
(٢٠) محمد كردعلي: المرجع السابق. جزء ٦، ص ٨٦.
(٢١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. دار الكتاب، بيروت، جزء ٩، ص ١٢٥.
(٢٢) ابن جبير: رحلته. دار التحرير للطبع والنشر ١٩٦٨، ص ٢٠٠.
(٢٣) نعمت إسماعيل: المرجع السابق، ص ١٣٧.
(٢٤) ناجي معروف: المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة، ط ٢ سنة ١٩٧٦، ص ١٢٨ — ١٢٩.
(٢٥) ابن جبير: المصدر السابق، ص ١٩٨.
(٢٦) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٤٤٨.
(٢٧) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ١٩ وص ٨٣.
(٢٨) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٢٦٨ وص ٣٢٢.
(٢٩) ابو شامة: المصدر السابق، جزء ١، ص ٢٦٨.
(٣٠) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٩٢.
(٣١) السبكي: المصدر السابق، ص ١٠٥.
(٣٢) من أجل الصفات التي يتحلى بها المدرس، انظر ابن جماعة: تذكرة السامع، ص ١٨٩.
— السمعاني: أدب الإملاء، ص ٦٦.
(٣٣) عبدالعاطي: المرجع السابق، ص ٢٤٦.
(٣٤) عبدالعاطي: المرجع السابق، ص ٢٤٨ — ٢٤٩.
(٣٥) عبدالعاطي: المرجع السابق، ص ٢٥٠.
(٣٦) ابن بطوطة: المصدر السابق، جزء ١، ص ١٠٨.
(٣٧) عبدالعاطي: المرجع السابق، ص ١٩٧.

(٣٨) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٢٠٢ ــ ٢٠٣.
ــ النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ١٦٤ وص ١٧٨.
(٣٩) ابن جبير: المصدر السابق، ص ١٩١.
ــ ابن بطوطة: المصدر السابق، جزء ١، ص ١٠٨.
(٤٠) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٨٦.
(٤١) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٨٥.
(٤٢) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٤٠٥ ــ ٤٠٦.
(٤٣) عبدالعاطي: المرجع السابق، ص ٢٦٥.
(٤٤) محمد كرد علي: المرجع السابق، جزء ٦، ص ٧٥.
(٤٥) عاشور: بعض اضواء جديدة على ابن عساكر والمجتمع الدمشقي في عصره، مؤتمر ابن عساكر، ص ٢١٧ ــ ٢١٩.
(٤٦) عاشور: المرجع السابق، ص ٢٢٠.
(٤٧) السخاوي: الضوء اللامع، جزء ١٢، ص ١٢٤.
(٤٨) عمادالدين خليل: المرجع السابق، ص ١٤١.
(٤٩) عبداللطيف البغدادي: الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر. طبعة القاهرة، ص ٨ ــ ١٠.
(٥٠) ابو شامة: المصدر السابق، جزء ١، ص ١٠.
(٥١) القلقشندي: المصدر السابق، جزء ٥، ص ٢٦٤.
(٥٢) عبدالعاطي: المرجع السابق، ص ٢٢٥.
(٥٣) كحالة: المرجع السابق، ص ١٠١.
(٥٤) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٦٢٠.
(٥٥) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٢٦٨.
(٥٦) السبكي: المصدر السابق، ص ١٠٥ ــ ١٠٧.
(٥٧) عبدالعاطي: المرجع السابق، ص ٢٣٧.
(٥٨) كحالة: المرجع السابق، ص ١٠٠ ــ ١٠١.
(٥٩) عبدالعاطي: المرجع السابق، ص ٢٦٢.
(٦٠) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٢٩٠.
(٦١) ابو شامة: ذيل الروضتين، ص ١٣٢.
(٦٢) ابو شامة: المصدر السابق، ص ٩٧ ــ ٩٨.
(٦٣) كحالة: المرجع السابق، ص ١٠١.
(٦٤) كحالة: المرجع السابق، ص ٩٥.
(٦٥) عمر موسى باشا: الأدب في الشام، ص ١٢٨.
(٦٦) عمر موسى باشا: المرجع السابق، ص ١٣١ ــ ١٣٢.
(٦٧) كردعلي: المرجع السابق، ص ٧٠.
(٦٨) عمر موسى باشا: المرجع السابق، ص ١٤٤ ــ ١٤٧.
(٦٩) ابن جبير: المصدر السابق، ص ١٩٨.
ــ ابن كثير: البداية والنهاية، جزء ١٢، ص ٢٧٨ وص ٢٨١.
(٧٠) النعيمي: المصدر السابق، جزء ٢، ص ١٢٧.
(٧١) النعيمي: المصدر السابق، جزء ٢، ص ١٣٧ ــ ١٣٨.
(٧٢) عمر موسى باشا: المرجع السابق، ص ١٥٣.
(٧٣) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٣٣٢ وص ٤١٠ ــ ٤١١.
ــ كحالة: المرجع السابق، ص ٩٦.

القهوة والمقاهي في دمشق

في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)

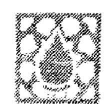
د. إحسان عباس



□ مقصف الزبداني.

كان كثير من الناس في القرن العاشر الهجري يعتقدون أن قهوة البن إنما عرفت أول ما عرفت في اليمن، ويعزون إلى الشيخ أبي بكر الشاذلي العيدروسي أمر الاهتداء إليها وإلى تأثيرها والتعرف إلى منافعها، وذلك أنه كان في إحدى سياحاته في اليمن، فمر بشجر البن فجرب أن يقتات من ثمره، فوجد على أثر ذلك أنه يبعث في النفس النشاط ويعين على السهر، وهذا نعم المعين على العبادة، فأخذ يداوم تناوله مستغنياً به عما عداه من مطعوم ومشروب، ونصح أتباعه ومريديه بتعاطيه، فابتدأ شيوعه من يومئذ في تلك البلاد.

د. إحسان عباس: الجامعة الأميركية ــ بيروت.



هنـالك روايات متعـددة عن بدايـات القهـوة وعن أول من اهتدى إليهـا، وكلها يتصل بالمتصوفة وحاجتهم إلى السهر، وقد يكون هذا الخبر الذي أوردته عن اكتشاف القهوة، من بين تلك الروايات المشابهة، ضربا من الأسطورة، وإن كان مرشحاً للقبول بحكم بساطته، إلا أنه في الوقت نفسه يتضمن حقيقة هامة، وهي تحديده لنقطة انطلاق القهوة، فهي بالنسبة لأقطار العالم العربي عرفت أول الأمر في اليمن ثم أخذت في الانتشـار شمالاً بحيث عم شيوعها مكة والمدينة ومنهما انتقلت إلى الشام ومصر، ومن هذين القطرين تسربت إلى سائر البلاد وبخاصة إلى تركيا.

ولم يلبث انتشارها أن أثار عاصفة استنكار لدى العلماء، في كل قطر، حدث هذا أول ما حدث — خارج اليمن — في مكة لاقتران شربها ببيوت خاصة بنيت من أجل اجتماع الناس لتناولها؛ وصادفت نقمة بعض العلماء وأهل الفتوى على شربها وشاربيها يومئذ أن عيَّن قانصوه الغوري رئيس شرطة لمكة سنة ١٥١١/٩١٧ اسمه خاير بك، فجمع قضاة المذاهب الأربعة ومعهم طبيبان معروفان وعدد من شاربي القهوة وأصدر أمراً بتحـريمها في ذلك العـام، ووقع الجميـع على المنشور القاضي بتحريمها ما عدا مفتي مكة، كما أن عدداً من علماء الدين بمصر أصدروا فتاواهم مؤيدين لذلك المنشور. وكان من أشـد الناس إنكاراً لها بمصر أحمد بن عبد الحق السنباطي الشافعي الواعظ بالجامع الأزهر (المتوفى سنة ٩٥٠) وكان ذا تأثير قوي في الناس لبراعته في الوعظ وأخذ برأيه في القهوة عدد من طلبة العلم في مصر.

أما في دمشق فقد أفتى بتحريم شربها عدد من العلمـاء، منهم قـطب الدين ابن سلطان (المتوفى سنة ٩٥٠) فكان يقول إنها من جملة المصائب التي حدثت في ذلك الزمان، وكذلك كان موقف كمال الدين ابن حمزة منها فإنه كـان يسمي المكان الذي يجتمع الناس فيه لشربها «الخمارة»، ولما زار ابن حمزة مصر وجد بيوت القهوة قد انتشرت فيها، وسئل عن رجل من أهلها لدى عودته إلى دمشق فقال: هو ملازم للخمارة. فلما طلب إليه أن يوضح ما يعنيه قال: «حدث بمصر شرب القهوة، يجتمعون عليهـا كاجتماعهم على شرب الخمر، وهو معهم». ومن علماء دمشق الذين أنكروا قهـوة البن ونادوا بتحريمها شيخ الاسلام الشيخ يونس العيثاوي (المتـوفى سنة ٩٧٧)، وكـان ينهى الناس عن شربها في خطب الجمعة، كمـا ألف رسالة في تحريمها. وفي حلب دعـا إلى منعها عـلى وجه التحريم عدد من العلماء منهم قاضيها محمد بن عبد الأول الحسيني أحد علمـاء الروم أواخر سنة ٩٤٦؛ ثم لما دخل دمشق (سنة ٩٥٢) اتفق رأيه مع رأي القطب ابن سلطان والشيخ يونس العيثاوي اللذين تقدم ذكرهما في هذا الصدد، وسعـوا جميعاً إلى إبـطالها بـدمشق، وعززوا موقفهم هذا فاستصدروا من السلطان سليمان خان أمراً بمنع شربها، فورد الأمر بذلك من استـانبول سنـة ١٥٤٦/٩٥٣، هـذا مـع أن انتشارها في استانبول وبعض المـدن التركيـة الأخرى إنما تم في زمن السلطان سليمان نفسه، وفي عهده وبعد بضع سنوات من صدور أمره بتحريمها توجه إلى استانبول رجلان أحدهمـا حلبي والآخـر دمشقي وافتتحا أول مقهى في عاصمة الخلافة (سنـة ١٥٤٤/٩٦٢)، وعرف تفكهاً باسم «مكتب العرفان»، وأخذ يرتاده موظفو الدولة والقضاة والعلماء.

ذلك أن وقوف العلماء في وجه القهوة وصدور الأوامر السلطانية بتحريمها، واستصدار الفتاوى ضد شربها، كل ذلك لم يستطع أن يحد من انتشارها، فقد كان في طبيعتها ما يحببها إلى الناس ويجتذبهم إلى شربها، وأصبحت الدور التي تستقبل الناس لشربها ظاهرة هامة للتسلية لا تقوم مقامها التكايـا أو الزوايا أو الحلقـات الخاصة في الموالد والأعياد أو الحلقات العامة في السـاحـات والميـادين أو التـردد إلى المنـازه والبساتين، بل أصبحت القهوة نفسها مادة لازمة في هذه التجمعات العامة والخاصة؛ أضف إلى ذلك أن العلماء أنفسهم لم يكونوا مجمعين على تحريمها، وإنما وجد بينهم لا من يفتي بحلها وحسب بل من يتعصب لها إلى درجة تكاد تبلغ الايمان بوجوب شربها، ومن هؤلاء في دمشق الشيخ أبو الفتح ابن عبد السلام المالكي، فقد وقف ينصر القهوة ضد الشيخ يونس العيثاوي،



□ القهوة العربية والنرجيلة.

وجرت بين الرجلين مواقف ومشاهد من أجلها أدت إلى خصومة طال أمدها؛ وحضرا مرة لدى قاضي الشام علي أفندي الشهير بقنلي وتباحثا في شأن القهوة وأورد كل منهما حججه، وكان الظهور في ذلك المجلس لأبي الفتح، وازدهاه الانتصار فذهب يتغنى بمحاسن القهوة في مقطعات وموشحات ينظمها ويذيعها في الناس. كذلك فإن كثرة أعداد الصوفية في كل بلد، وارتباط الاقبال على القهوة منذ البداية بالتصوف، جعل اطراد شيوعها أمراً شبه حتمي؛ لقد أقبل الصوفية قبل اكتشافها بقرون على أكل الحشيشة بحجة أنها تساعد على السهر، ومن ثم على التهجد، ولم تستطع نداءات التحريم أن تصدهم عن تعاطيها، فكيف يصدقون من يقول بحرمة ما هو اخف منها ضرراً بكثير؟ ولقد بدأ الذين يقفون من القهوة هذا الموقف الرافض يذيعون بين الناس انها تسبب السكر، اليس ان شاربيها يسمونها «القهوة» وهي لفظة كانت تطلق من قبل على الخمر؟ ولكن التجربة اثبتت أنها لا تفعل ذلك، وإذن فلا بد من البحث عن سبب او أسباب أخرى للتحريم، لعلها تكون مقنعة، وهنا لجأوا إلى القول بإن مجلسها يشبه مجلس الخمر، وإن الذين يشربونها يتشبهون بشاربي الخمرة في إدارتها وآداب تناولها وأخذها بالدور وانهم يستخدمون لادارتها سقاة من الغلمان ذوي الوضاءة، وإن مجالسهم لا تخلو من العبث واللهو والغيبة والنميمة (وكأن هذه الأمور مقصورة على مجالس القهوة وحدها)؛ ولم يكن هؤلاء يشعرون أنهم بدأوا يتنازلون عن تحريم القهوة إلى تحريم ارتياد مجالسها أو البيوت المخصصة لتحضيرها؛ وهكذا اصبح من المتعارف بين الناس أن القهوة في ذاتها غير محرمة وإنما يحرم الجو الذي تمثله المقاهي. وعلى هذا الأساس أصبح طالبو الفتوى ممن يميل إلى التحريم يصوغون أسئلتهم بما يناسب هذا التطور فيذكرون في السؤال اقترانها باللهو والمجون، لكي يضمنوا جواباً موافقاً لما يهوون. سئل المولى أبو السعود (المتوفى سنة ٩٨٢) عن

شربها، وقرر له في السؤال اجتماع الفسقة على ذلك، فأجاب: «ما أكب أهل الفجور على تعاطيه فينبغي أن يجتنبه من يخشى الله ويتقيه». ومعنى ذلك أنه لم يقل بتحريم القهوة، وإنما بالابتعاد عما يقرّب من أهل الفجور. وحين أصبحت هذه الحقائق واضحة لا مجال فيها للاجتهاد لم تُجد نفعاً الأوامر التي صدرت أيضاً في أيام سليمان سنة ٩٦١/ ١٥٥٤ في صد المقبلين عليها ولا تلك التي صدرت أيام السلطان مراد سنة ٩٨٢/ ١٥٧٤. ومع أن هناك أوامر أخرى صدرت بتحريمها في العقدين الأول والثاني من القرن الحادي عشر، فإن الفتاوى بتحليلها قد جعلت تلك الأوامر وكأنها قائمة على غير أساس، وما نكاد نبلغ أواخر القرن العاشر حتى نجد شيوعها مستحكماً في دمشق وحلب وغيرها من المدن. ولما زار أحد الرحالة حلب سنة ١٥٧٣ وجد شربها ظاهرة واسعة الانتشار في تلك المدينة. وارتاح العلماء في دمشق كثيراً عندما استطاعوا أن يفصلوا بين القهوة وبين جو الأماكن المخصصة لها، وإذن فلتشرب في البيوت بعيداً عن كل شبهة، وعن هذا يعبر النجم الغزي بقوله، مجيباً من سأله رأيه في القهوة:

قهوة البن لا تكون حراماً
إنها لا تفيد في النفس نشوة
غير أن الذي يجيء بيوتاً
هي فيها تدار عادم نخوه
إذ يرى المرد والمعازف والنر
د وكل يلهو فيتبع لهوه
فإذا شئت شرب قهوة بن
حسوة قد أردت أو ألف حسوه
فليكن ذاك وسط بيتك مهما
لم تشب صفوها بموجب صبوه

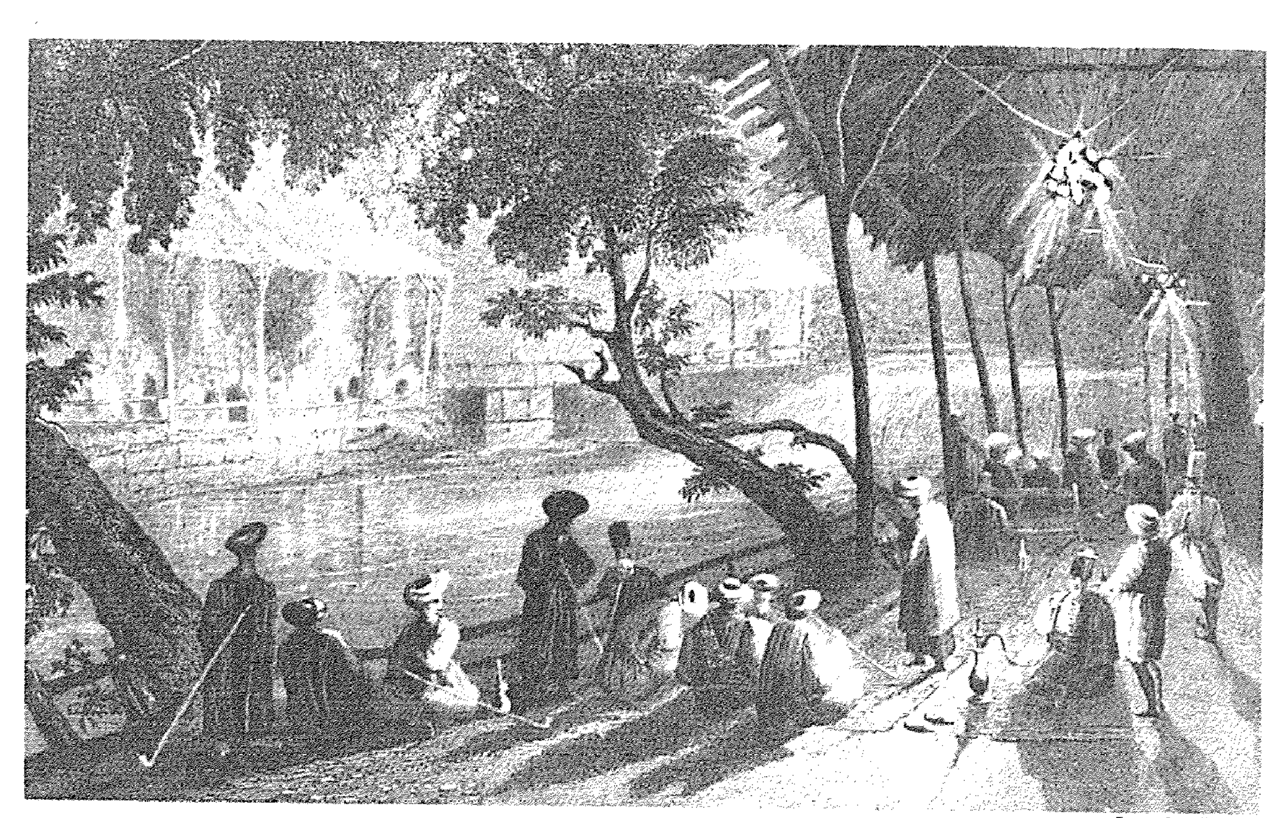
وعن هذا المعنى نفسه عبر شاعر حمصي بقوله:

أقول لأصحابي عن القهوة انتهوا
ولا تجلسوا في مجلس هي فيه
وما كان تركي شربها لكراهة
ولكن غدت مشروب كل سفيه

ويمثل موقف الشيخ أحمد العيثاوي ولد الشيخ يونس المتشدد في تحريمها حتى آخر يوم من حياته نموذجاً للمرحلة التي تلت مرحلة التشدد في النظر إلى القهوة، إذ أنه كان يراها حلالاً ولكنه لا يشربها براً بأبيه؛ ثم لما ألم به المرض ذات مرة وانقطعت شهوته نحو الطعام انقطاعاً تاماً، أمر أن تحضر له القهوة فشربها وداوم شربها نحواً من شهر.

تلك معركة طويلة دارت حول القهوة ــ في دمشق بالذات ــ طويلة لأن أول إشارة إلى الجهر بشرب القهوة في أحد المنازل (أو الزوايا) الدمشقية إنما تم سنة ٩٤١/ ١٥٣٤؛ يقول ابن طولون في حديثه عن بديع ابن الضياء قاضي مكة وزيارته لدمشق: «فخرج من دمشق يوم السبت منتصف ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وتسعمائة بعد أن حضر ليلة الجمعة التي قبل التاريخ المذكور عند الشيخ علي الكيزواني تجاه مسجد العفيف بالصالحية وسمع المولد وشرب هو والشيخ علي وجماعته القهوة المتخذة من البن، ولا أعلم أنها شربت في بلدنا هذه ــ يعني دمشق ــ قبل ذلك». وأضاف ابن طولون إلى ذلك قوله: «وكان عمي الشيخ جمال الدين ابن طولون يقول بتحريمها، وأمرها مشهور بمكة، ولعلمائها مصنفات في حل شربها وعدمه». وقد نتج عن هذه المعركة حركة أدبية واسعة: فكم من المقطعات والقصائد والموشحات نظمت في التغني بالقهوة وذكر محاسنها وفي مقابلها نظائر لها في ذمها والانحاء عليها، وكم من رسائل كتبت في تقبيحها وتهجينها وأخرى في مدحها وتزيينها والدفاع عنها في وجه المعارضين لها، وكم من أسئلة قدمت استدراجاً لفتاوى حولها نثراً ونظماً (ولعل هذا الأدب لا يفوقه إلا الأدب الذي دار حول الدخان والتدخين بعد ذلك).

وقبل أن يحسم النزاع بين الفريقين كانت الأماكن المخصصة لتناول القهوة قد انتشرت في دمشق، وأطلق على تلك الأماكن اسم «بيوت القهوة» أو «القهوة» أو «بيوت القهوات» ومجازا (في الشعر أحيانا) «الحانة» وعند من يستنكر وجودها «الخمارة». وقلما نصادف لفظ «المقهى». ويستعمل المؤرخ الدمشقي ابن طولون في حديثه عن منازه دمشق لفظة «المقصف» ويذكر أنه كان فيها عدد من المقاصف، ولكني لا أستطيع الجزم إن كان «المقصف» مرادفاً لبيت القهوة أو شيئاً زائداً

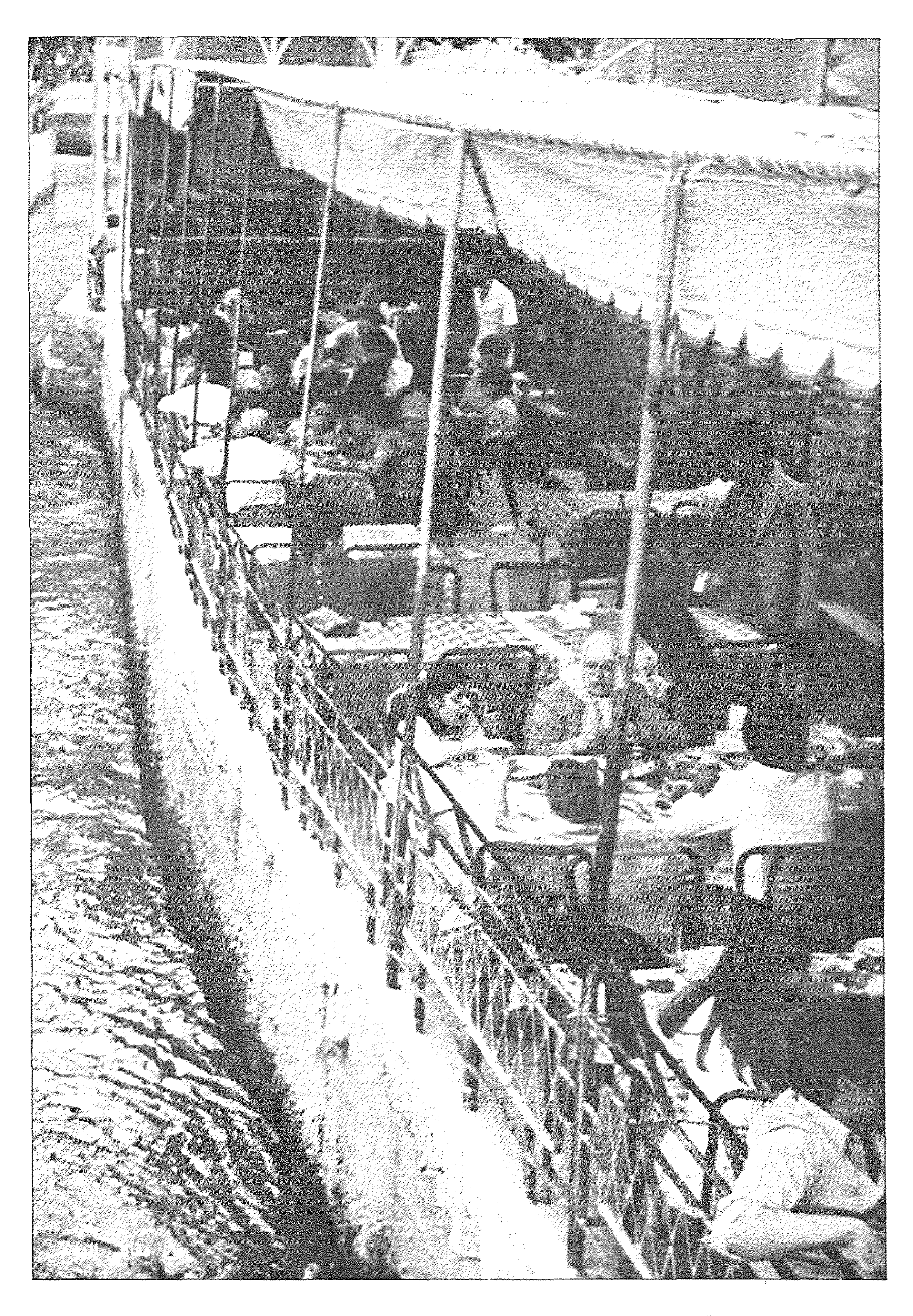


□ مقصف دمّر.

عليـه. وليس لدي وصف عن طريقة تحضـير القهوة في تلك البيوت، ولكن هنالك ما يؤكد أنها كانت «تطبخ» ـــ كما تقول مصادر تلك الفترة ـــ من «قشر» البن، وهي الطريقة التي بدأت في اليمن موطنها الأصلي؛ أما القهوة التي تصنع من حب البن فالأرجح أنها تمثل تطوراً تالياً في طريقة «الطبخ» والاعداد؛ وهنالك أخبار عن «إبريق» القهوة في ذلك الدور المبكر، ولكن ليس ثمة من إشارة إلى نوع الكؤوس أو الفنـاجين. وتفيـد قطعـة شعرية لعلي البكري الصديقي يقول فيها «وأدرها من خالص البن» أن الغش أصبح يـدخل في تحضيرها، ولهذا فإنه يستشهد بقول الرسول: من غشنا فليس منا.

وقد عرفنا بعض بيوت القهـوة بدمشق في القرن العاشر وبعض الذي يليه، ولكن ما تتحدث عنه المصادر من ذلك قليل، والمعتقد أن البيوت كانت كثيرة لأنها أصبحت تمثل مورداً اقتصادياً هاماً، حتى أصبحت لهـذا السبب تدخـل في «الأوقاف» المخصصة لدور العبـادة أو لأعمال الخير؛ فقد كان هناك مقهى خارج باب السلام وقفاً على الشامية البرانية، وعمّر الأمير محمد منجك بأمر من سنان باشا (سنة ٩٩٥) خارج باب الجابيـة «السنانيـة والسوق المجـاور لها والقهوة»، وعند باب البريد عمّر مراد باشا نائب الشام (سنة ١٠٠٥) سوقاً ووكالة (أي خاناً) وقهوة، ووقف كل ذلك على الحرمين الشريفين. وقبل أن يعمر هذا النائب نفسه «المرادية» في السويقة المحروقة كان مكانها مقهى أمامه حوش، وكان هذا المقهى من أشهر بيوت القهوة بدمشق، إذ كان الذي يعمل في بيع القهوة فيه هو الشيخ محمد اليتيم، وكان الحوش المجاور للمقهى مثابة «لبنات الخطا»، فاستأجره الشيخ وأخرجهن منه واتخذ فيه مسجداً وساحة لجلوس الناس، وكان إذا حضر وقت الصلاة أقام الصلاة وصلى مع من حضر من رواد المقهى والجالسين في الحوش؛ وليس لدينا ما يدلنا على مصير ذلك المقهى بعد أن ترك الشيخ بيع القهوة ولزم منزله.

إن مقهى السويقة المحروقة أو «مقهى محمد اليتيم» كان يمثل صورة غير تلك التي علقت بأذهان رجال الدين عن طبيعة المقهى ورواده، بعد أن تغير لديهم الاعتقاد الخاطىء عن طبيعة مـا يشرب فيـه، إذ كانت قهـوته ـــ بشهـادة معاصريه ـــ «مجمع الصالحين»، وهكذا انقسمت المقاهي الدمشقية بحسب روادها في فئتين: فئة



للهو والتسلية وأخرى للجد وشؤونه؛ وفي هذه الفئة الثانية أصبح بيت القهوة منافساً للتكية ولحلقات العلم في المساجد أو رديفاً لهما؛ فنحن نسمع أن الشيخ العارف محمد الاضطراري كان يجلس في بيوت القهوات كثيراً ويجتمع الناس عليه فيها ويأخذون عنه التوحيد والحقائق؛ وكان الشيخ فخير الشاغوري ــ وهو متصوف آخر ــ يلازم الجلوس ببيوت القهوات، ويتحلق حوله الناس ليسمعوا كلامه في الحقائق والتوحيد؛ ولا ريب في أن هذا اللون من المقاهي هو الذي كان يجتذب إليه المنشدين للقصائد والموشحات أمثال الريس محمد بن سعيد الذي كان يعمل في القهوات ليلاً ونهاراً.

أما الفئة الثانية من المقاهي فمن السهل أن نتصورها من خلال ريبة العلماء إزاءها: فهم يتحدثون عن وجود المعازف أي الآلات الموسيقية فيها، فهي على هذا موضع للتفرج بالسماع، كما انها تحتوي على الشطرنج والنرد وغيرهما من أدوات التسلية وأنواع الألعاب، ويمكن أن ندرك طبيعة الحال فيها قياساً على الحاضر؛ وكان من رواد هذا اللون من المقاهي بعض شعراء دمشق الذين يتخذون من شرب القهوة حافزاً لقرائحهم، وربما لم يكن أحمد العناياتي نموذجاً وحيداً في عصره، فقد كان من عادته كل صباح أن يذهب إلى بيت من بيوت القهوة «يكون فيه الماء الجاري مع المليح الساقي» ويشرب من قهوة البن اقداحاً، ثم يشرع في الكتابة، ويقضي نهاره في المقهى ولا يفارقه إلا في المساء وربما كان يبيت بعض الليالي هنالك، (وهذا يعني أن المقهى ربما كان يوفر الطعام أيضاً إن لم نفترض أنه لم يكن يطلب احضاره من مكان قريب)؛ وكان العناياتي ينشد ما يكتبه من اشعار لرواد المقهى، وخاصة الشعر الذي ينظمه باللغة الدارجة كالمواليا وغيرها من فنون الشعر الشعبي، وكان العامة ــ يعني المترددين على المقهى من أبناء الشعب ــ هم رواة شعره في الغالب. إننا لا نريد أن نقوّل المصادر ما لم تقله ولكننا نعتقد أن المقهى قد احتضن كثيراً من ضروب النشاط «الشعبي»، ففيه ــ ولا بد ــ وجدت قراءة السير ــ أو مهنة الحكواتي ــ مهدها الصالح لها إذ كان الحكواتي ظاهرة مهمة في ذلك القرن، وفيه تنوعت المواقف الخطابية والمحاورات الشعرية، وفيه كذلك بدأت بذور مواقف مسرحية قابلة للتطوير. إنه ليست لدينا أخبار عن كل هذه النواحي، كما أننا لا نعرف إن كان المقهى الدمشقي قد استطاع أن يجتذب إليه ــ كما فعل المقهى الاستانبولي ــ القضاة وموظفي الدولة أو من يمكن أن نطلق عليهم «الخاصة» في مقابل لفظة «العامة» التي لا تفتأ المصادر ترددها كلما تحدثت عن رواد المقاهي بدمشق؛ لعل هؤلاء استعاضوا عن التردد إلى القهوة بتوظيف «القهوجي» في بيوتهم، مثلما كان يفعل أحمد الحلبي الشهير بابن المنلا ــ وكان والده من أعيان الناس بدمشق ــ فقد اتخذ عبداً حبشياً يطبخ له قهوة البن لتقوى لديه القدرة على السهر والمطالعة؛ فإن شيوع القهوة في البيوت من شأنه أن يقصر مميزات المقهى على التسلية، ويبعد «الخاصة» عنه، لأن لديهم وسائل أخرى من التسلية. كذلك شاعت القهوة في التكايا فأغنت عن ذهاب المريدين إلى المقاهي، بل اجتذبت إليها زواراً آخرين من غير المريدين، وقد كان للشيخ محمد الجباوي زاوية بالقبيات، فكان زواره في أي وقت من أوقات النهار يجلسون عند بابها فيشربون القهوة أولاً ثم تمد لهم سفر الطعام من النقول والسكر والمربيات.

ولا نزال حتى تاريخ متأخر نسبياً في القرن العاشر نسمع من ينهى عن ارتياد المقاهي بدمشق ومعاشرة العوام فيها، إذ أن «بيت القهوة» لم يكتسب «الحل» الكامل الذي اكتسبته القهوة نفسها، فهذا النهي ينطوي على دوافع اخلاقية. أما استمرار الدولة نفسها في محاربة بيوت القهوة والنهي عنها فلعل وراءه عاملاً آخر وهو مظنة أن تكون المقاهي مجالا للحديث في السياسة وفي نقد الدولة وموئلاً صالحاً لترتيب المؤامرات. ففي عهد مراد الرابع (١٠٣٢ ــ ١٠٤٩) ــ أي بعد الفترة التي قصرنا عليها هذا البحث بقليل ــ هدمت بيوت القهوة، ثم اعيدت الكرة في زمن محمد الرابع (١٠٥٨ ــ ١٠٩٩)؛ ولكن هذا لم يدم طويلاً، إذ عادت الدولة نفسها لا إلى السماح بالمقاهي وحسب، بل تدخلت لتخفيض أسعار القهوة تخفيفاً عن كاهل الشاربين. ●

معركة ميسلون

٢٤ تمّوز ١٩٢٠

د. إحسان هندي



□ يوسف العظمة عند تخرجه من مدرسة أركان الجيش في الأستانة

□ د. إحسان هندي: جامعة العين ــ الإمارات العربية المتحدة.

يذهب بعض الباحثين في تاريخ بلاد الشام إلى تقسيم هذا التاريخ إلى ثلاث مراحل متميزة هي: الفترة القديمة، والفترة الاسلامية، فالفترة الحديثة، وفي الوقت الذي فيه إجماع على أن الفترة القديمة قد انتهت مع نجاح حركة الفتوحات العربية الكبرى، فإن الخلاف شديد حول تاريخ نهاية الفترة الاسلامية، وبداية الفترة الحديثة، فهناك من يجعل هذا مع بداية الحكم العثماني، ومنهم من يؤجل هذا التاريخ حتى حملة نابليون على مصر، ومنهم من يؤجل هذا التاريخ مجددا حتى قيام الثورة العربية الكبرى، وأخيرا ـ لكن ليس آخرا ـ هناك من يجعل هذا التاريخ مع قيام معركة ميسلون.

ومهما اختلفت الآراء إن معركة ميسلون هي نقطة البداية في التعامل مع الاستعمار الغربي الجديد، هذا الاستعمار الذي حنث بالوعود المقطوعة للعرب قبل إعلان الثورة العربية الكبرى، ولم يكتف بذلك بل بادر إلى احتلال الأرض العربية، وتمزيقها وزرع الجسم الغريب «إسرائيل» فيها، ومنذ ميسلون وحتى هذا التاريخ لم تتغير أسس الصراع ولا أهدافه النهائية، منذ ميسلون وحتى يومنا هذا شهدت أرض الشام حوادث عم تأثيرها حتى شمل العالم أجمع، لذلك مفيد أن نقف عند أخبار هذه المعركة الهامة:

(أ) الوقت:

يوم السبت في ٢٤ تموز ١٩٢٠ (من الفجر حتى الظهر).

(ب) المكان:

مرتفعات (عقبة الطين) قرب ميسلون.

(ج) الهدف:

١ ـ **بالنسبة للوطنيين**: الدخول في معركة معروفة النتائج لعدم تكافؤ القوى بغاية إقناع فرنسا والعالم كله أن سورية مستقلة ولها جيش ولا يمكن احتلالها إلا بالمرور فوق جثث أبطال هذا الجيش.

٢ ـ **بالنسبة للفرنسيين**: القضاء على جيش سورية قبل أن يستكمل تدريبه وتسليحه واحتلال سورية تنفيذا للمعاهدات السرية السابقة التي قضت بتقسيم بلاد العرب.

(د) حجم القوى:

١ ـ **القوى العربية**: كان مجموع القوى العربية التي اشتركت بالمعركة حوالي (٣٠٠٠) رجل بين عسكري ومدني بقيادة **الأميرالاي تحسين الفقير يعاونه البكباشي شريف الحجاز** وقد ضمت هذه القوى:

ـ بقايا الجيش النظامي.

ـ الحرس الملكي بقيادة مرزوق الخيمي.

ـ بطاريتي مدفعية إحداهما جبلية والأخرى صحراوية.

ـ بطارية رشاشات (٢٥ رشاشا) بإمرة صبحي العمري.

٢ ـ **القوى الفرنسية**: كان مجموع القوى الفرنسية المشتركة في المعركة حوالي (٩٠٠٠) جندي بقيادة الجنرال غوايبيه، يعاونه رئيس أركانه العامة الكولونيل بيتيلا. أما الوحدات الفرنسية التي اشتركت في المعركة فهي:

ـ كتيبة المشاة ٤١٥ بقيادة الليوتنان كولونيل ريوكرو.

ـ لواء سنغالي مكون من الكتيبتين ١٠ ـ ١١ بقيادة الجنرال بوردو.

ـ فوجان من الرماة الافريقيين **أحدهما بقيادة آبوت** والآخر بقيادة باوليتي.

ـ الكتيبة الأولى سباهيين بقيادة **الليوتنان كولونيل ماسييه.**

ـ الكوكبتان الأولى والثانية من كتيبة الخيالة السريعة الأولى.



□ ورقة وزعت ونشرت عند مجيء اللجنة الاميركية للاستفتاء.

ـ بطاريتا رشاشات عيار ٦٥ مم.
ـ ثلاث بطاريات مدفعية عيار ٧٥ مم.
ـ المجموعة الثانية من كتيبة المدفعية الثقيلة ١١٥.
ـ البطارية الثالثة من كتيبة المدفعية الثقيلة ٣٤٥ (١٥٥ مم).
ـ سرية من الكتيبة الخامسة عشرة مهندسين.
ـ السرية ٣١٤ من الكتيبة ٥٠٢ دبابات قتال.
ـ ثلاثة أسراب طائرات طراز بريغيه[١] القت فوق الوطنيين ٣ أطنان من القنابل.
ـ السرب الثامن طيران (١٨ طائرة من طراز ج ٦).

(هـ) خطط وترتيب الجانبين:

١ ـ خطة المدافعين وترتيبهم: اعتمد الوزير القائد يوسف العظمة خطة دفاعية ـ هجومية تتلخص بما يلي:

ـ منع العدو من اجتياز مرتفعات (عقبة الطين) شمال ميسلون مهما شدد ضغطه على قوات القلب المتمركزة هناك.

ـ قيام كل من الجناح الأيمن والجناح الأيسر بتثبيت القوات المقابلة لهما وانتهاز أول فرصة للالتفاف حول جانب العدو لقطع الطريق على قواته التي ستحصر في وادي القرن. ولتنفيذ هذه الخطة قام الوزير القائد بتقسيم قواته إلى قلب وجناحين ومؤخرة:

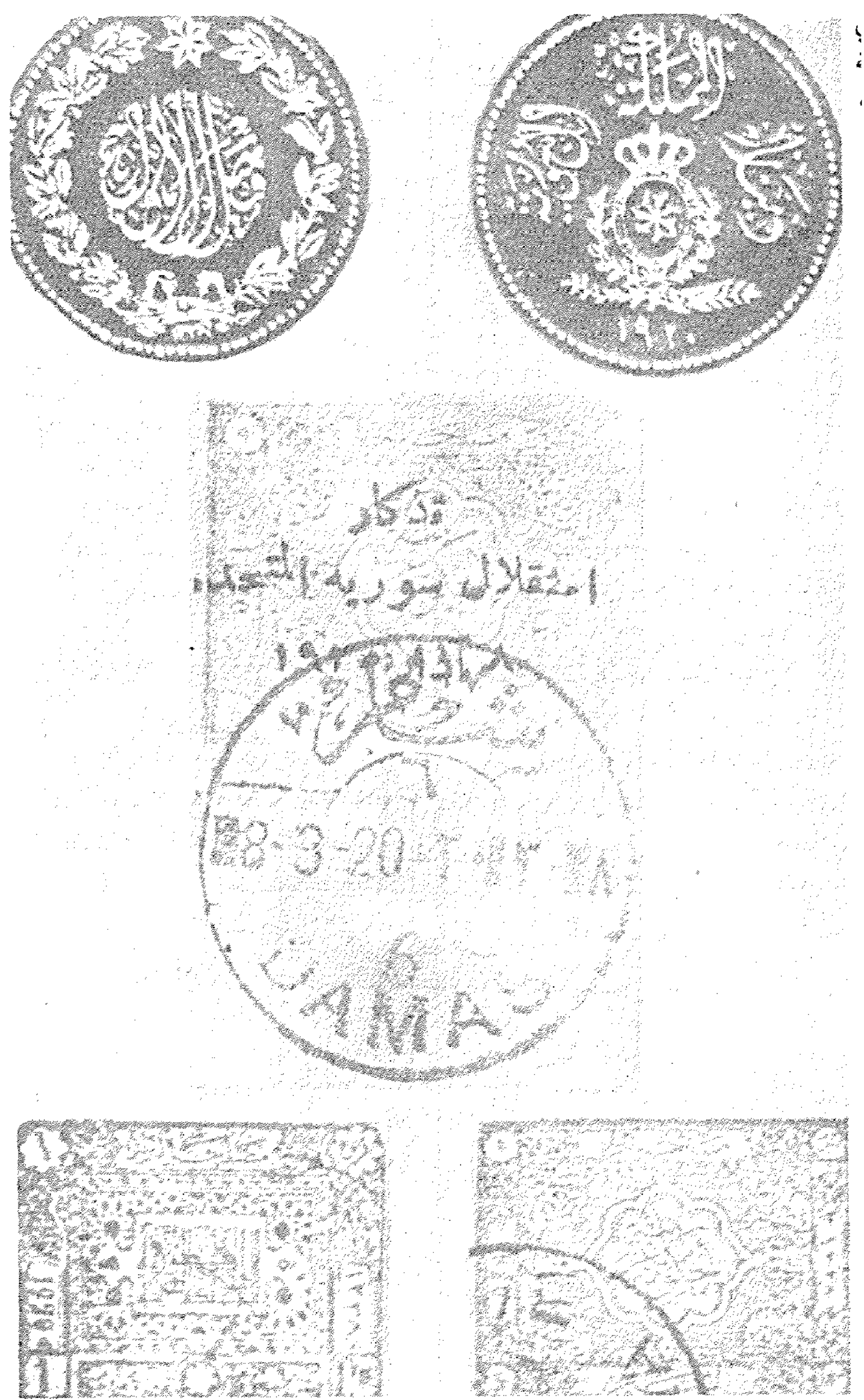
ـ **القلب**: تجمعت فيه بقايا الجيش النظامي لتقوم بالمهمة الرئيسية في الدفاع وهي تلقى ضربة العدو في محور جهده والصمود أمامه مهما كلف الأمر. وقد قاد الأميرالاي تحسين الفقير قوات القلب يعاونه البكباشي شريف الحجاز[٢].

ـ **الجناح الأيسر**: ضم هذا الجناح قوة الحرس الملكي التي كانت تعد (٦٠ فارسا) من اللواء الهاشمي مع سرية هجانة عددها حوالي (٣٠٠) هجان والمتطوعين المدنيين من الفرسان وعددهم (١٥٠) فارسا مما يجعل مجمع تعداد الجناح (٥١٠) رجال.

وقد أعطي هذا الجناح مهمة منع قوات الميمنة المعادية من القيام بحركة التفاف لتطويق القوات الوطنية ثم الاغارة عليها عند سنوح الفرصة باتجاه قرية جديدة يابوس لقطع الطريق على القوات الفرنسية التي تريد الانسحاب من وادي القرن نحو الخلف.

ـ **الجناح الأيمن**: ضم هذا الجناح لوائين غير كاملين من الفرقة الأولى مع المدفعية الخاصة بهذه الفرقة. وهذان اللواءان هما اللواء الأول الذي كان يقوده البكباشي حسن الهندي واللواء

□ الدينار السوري والطوابع البريدية السورية (صورة مكبرة).



الثاني الذي كان يقوده توفيق العاقل وأما مدفعية الفرقة فقد كان يقودها القائمقام أحمد صدقي الكيلاني. وقد أعطيت قوات هذا الجناح مهمة منع قوات الميسرة المعادية من القيام بحركة التفاف لتطويق القوات الوطنية، ثم الاغارة عليها عند سنوح الفرصة باتجاه فم وادي القرن لقطع الطريق على القوات الفرنسية الموجودة فيه.

ــ **المؤخرة**: وكانت تشكل مصالح الميرة للجيش وأهمها مصلحة التموين التي تمركزت في قرية دمّر بإمرة السيد لطفي الرفاعي، ومصلحة الصحة التي تمركزت مفرزة منها في خان ميسلون.

٢ ــ خطة المهاجمين وترتيبهم: تلخصت خطة المهاجمين بما يلي:

— **المدفعية**: تمركزت في فم المضيق[٣]، وأعطيت لها مهمة إسكات مدافع الوطنيين ودعم الهجوم الذي تقوم به عناصر المشاة قبل الوصول إلى وادي الزرزور.

— **الدبابات**: تمركزت مع المشاة وأعطيت لها مهمة مواكبة المشاة حتى الاصطدام.

— **المشاة**: أعطيت مهمة الانتشار حول الطريق العام بمعدل فوج واحد على يسار الطريق وأربعة أفواج على يمينه.

— **الخيالة**: أعطيت مهمة الالتفاف حول قوات الوطنيين عن طريق محور دير العشاير — جبل المزار الديماس.

— **الطيران** أسندت إليه مهمة الاستطلاع وضرب أرتال الوطنيين والتمهيد للهجوم بالقصف بالقنابل والرشاشات.

(و) سير المعركة:

بدأت المعركة مع إشراقة شمس ٢٤ تموز حين قامت بطاريات المدفعية الفرنسية بقصف الخطوط والاستحكامات السورية فأجابتها المدفعية الصديقة بالمثل. وقد تمكنت المدفعية السورية من تعطيل البطارية الموجودة في فم الوادي كما وأسقطت إحدى الطائرات. وفي الساعة التاسعة بدأت الدبابات الفرنسية بالهجوم محمية بالمشاة بمعدل ثلاثة أفواج من كل جهة، وقد أعطيت لفوج المشاة الكائن في أقصى اليمين مهمة الالتفاف على العناصر الوطنية المتمركزة على يسار الطريق، بينما أعطيت لفوج المشاة الكائن في أقصى اليسار نفس المهمة بالنسبة للعناصر الوطنية المتمركزة على يمين الطريق، وبنفس الوقت قامت الخيالة بالالتفاف البعيد على محور دير العشاير — جبل المزار — الديماس. وصمدت القوات الوطنية صمود الأبطال فظلت المدفعية السورية تطلق حتى نفذت ذخيرتها فسهل عند ذلك على مشاة العدو التقدم بحماية المدفعية والدبابات خاصة وأن الألغام السورية التي وضعت في الطريق لم تنفجر لعطل معظمها.

ولما اجتازت القوة الفرنسية وادي الزرزور، وهدد فوج المشاة الفرنسي اليميني بشكل مباشر ميسرة القوات الوطنية، لم يعد لهذه القوات نجاة إلا بالتراجع خيفة من الفناء الكامل فيما لو تم تطويقها، فبدأت بالانسحاب إلا نفرا من الأبطال يترأسهم الشهيد يوسف العظمة الذي أبى التراجع رغم إلحاح مرافقه الملازم ياسين الجابي عليه، وظل واقفا يشرف على العمليات العسكرية وبيده منظاره حتى أصيب بوابل من رشاش فرنسي فخر على الأرض شهيد الواجب حوالي الساعة ١١,٣٠ من ذلك اليوم المجيد، وعندها تراجع من كان يدافع من القوات العربية.

وقد حاول البكباشي شريف الحجاز أن يقيم خطا ثانيا للدفاع عن دمشق قرب قدسيا ولكنه اثر العدول عن هذه الفكرة حين لاحظ قلة عدد الجنود الذين بقوا معه وضعف تسليحهم.

وفي صباح يوم ميسلون قصد الملك قرية الهامة مترقبا أخبار المعركة كما أنه أمر أخاه الأمير زيد بالتوجه إلى الجبهة للاشتراك بالدفاع عن الوطن، ولكن واحدا منهما لم يصل إلى ميسلون لأنهما صادفا سائق سيارة يوسف العظمة عائدا بسيارته فارغة إلى دمشق. ولما سألاه عن الوزير أجاب (لقد انكسرنا)، فعادا وكلهما الم وحسرة.

(ز) نتائج المعركة:

١ — **النتائج المادية**: خسر الفرنسيون ٤٢ قتيلا و ١٥٢ جريحا و ١٤ مفقودا[٤] بينما خسر السوريون حوالي ٤٠٠ قتيل ومعظم أسلحتهم الاجماعية التي استخدموها في المعركة.

٢ — **النتائج السياسية**:

— فتحت طريق دمشق أمام الجيوش الفرنسية.

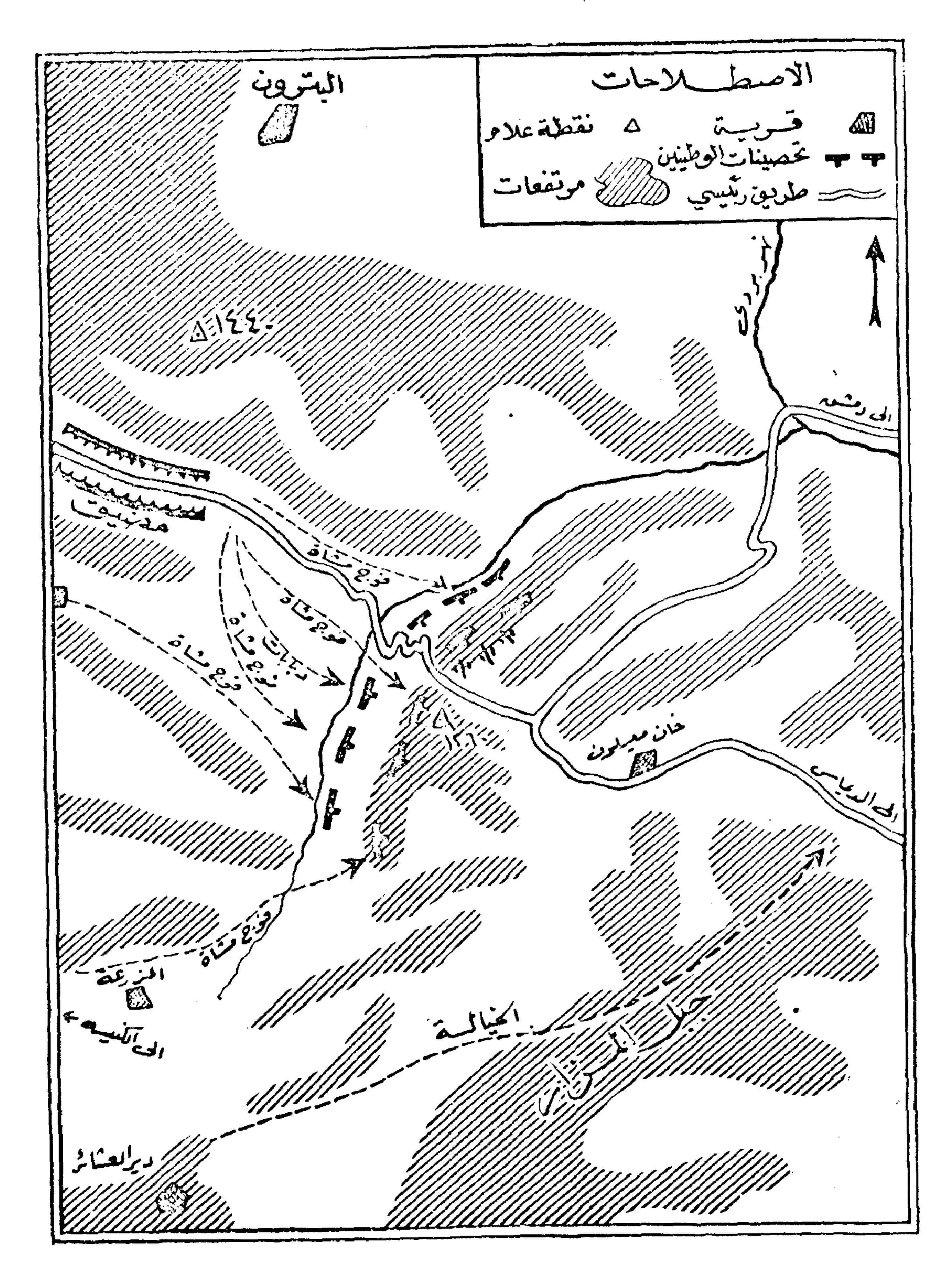
— أنهت عهد أول حكومة مستقلة في سورية.

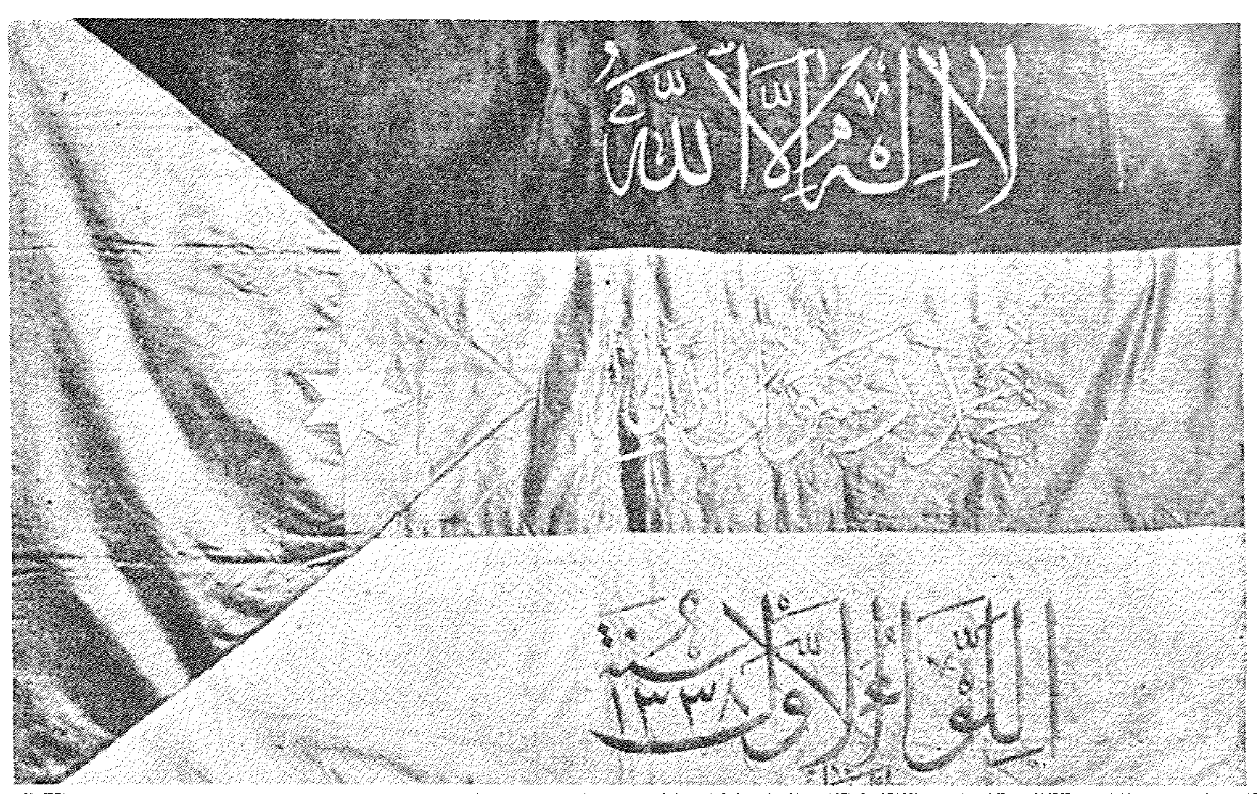
— أقنعت هذه المعركة السوريين بعدم جدوى المفاوضات السلمية مع الفرنسيين ولذا انصرفوا بعد هذه المعركة لكفاح دام حوالي ربع قرن حتى انتهى بجلاء الفرنسيين الكامل.

نهاية الملكية:

لم يجد الملك فيصل بدا من مغادرة دمشق مسافرا إلى الكسوة لتكون مقرا مؤقتا للحكومة بعد أن عين أمير اللواء **نوري السعيد** قائدا

□ مخطط معركة ميسلون (٢٤ تموز ١٩٢٠).





□ الوجه الثاني من علم «لواء المشاة الأول» الذي اشترك في معركة ميسلون، محفوظ في المتحف الوطني بدمشق.

لموقع دمشق، وفي نفس اليوم قام عدد كبير من الوطنيين ممن كانوا يقودون حركة المقاومة ضد مطالب الفرنسيين بمغادرة دمشق إلى فلسطين ومصر خيفة من أن يقوم الفرنسيون بالانتقام منهم(٥).

وأما الجيش الفرنسي فقد مشى من ميسلون بعد ظهر يوم ٢٤ تموز فوصل ضاحية الرقة في مساء ذلك اليوم وعسكر هناك. وفي ليلة ٢٤/٢٥ تموز قام أمير اللواء نوري السعيد قائد موقع دمشق والقائمقام جميل الألشي مرافق الملك بزيارة قائد الحملة الفرنسية الجنرال غوابيبه حيث أبلغاه أن باستطاعة الجيش الفرنسي أن يدخل دمشق في أي وقت شاء. وفي الساعة ١٦,٠٠ من يوم ٢٥ تموز بدأت جيوش الحملة تدخل دمشق وتستقر في ثكناتها، وكانت أسواق المدينة مقفلة ووجوه الأفراد القلائل الذين شاهدهم الجيش الفرنسي في الطريق عابسة واجمة حيث كان هذا اليوم أشد هولا على سورية من جميع أيام مصائبها لأنه كان يوم العار الذي لصق بالعهد الفيصلي وظل أبدا عالقا به حتى غسله السوريون سنة ١٩٤٥.

وبعد دخول الجيش الفرنسي لدمشق تلقى الملك برقية من نوري السعيد أرسلها له بواسطة مكتب البرق في محطة الكسوة، وبها يطمئنه إلى الحال ويطلب منه العودة إلى دمشق فنزل الملك عند هذا الطلب وأراد إنقاذ ما يمكن إنقاذه ولو أدى الأمر للرضوخ لبعض رغبات السلطة الفرنسية ولذا قام قبل مغادرته الكسوة بتشكيل وزارة معتدلة يمكنها التعاون مع الفرنسيين وأوصاه بترك وزارة الخارجية شاغرة إرضاء لهم(٦).

ولكن تشكيل هذه الحكومة المعتدلة لم يقدم لفيصل أية فائدة إذ أن الجنرال غوابيبه طلب الاجتماع بها بعد تشكيلها، وفي الاجتماع المذكور ابلغ أعضاءها بأنه لم يعد من الممكن استمرار فيصل في الحكم بعد أن جر البلاد إلى حافة الهلاك. ثم أمر بأن تدفع سورية عشرة ملايين فرنك تعويضا عن الخراب الذي سببته في المنطقة الغربية ونزع سلاح الجيش السوري وتسليمه للجيش المحتل مع إجبار الأهالي على تقديم عشرة آلاف بندقية.

وعندما بلغ الملك مضمون هذه المطالب أرسل برقية إلى الجنرال غورو في **٢٧ تموز ١٩٢٠** يحتج بها على التصريح الذي فاه به الجنرال

غوابيه لأعضاء حكومة الدروبي ويتحفظ بعدم اعترافه بالقرارات التي تتخذها الحكومة بدون علمه. كما أنه أرسل في اليوم نفسه برقية مفصلة إلى اللورد كيرزون[٧] يحتج فيها على تصرف الفرنسيين في دمشق وبعث بمثلها لكافة الدول راجيا تدخلها لاحقاق الحق.

وجاء رد الفعل الفرنسي الذي أحدثه احتجاج الملك حين سلمه الكولونيل تولا[٨] في مساء اليوم نفسه (٢٧ تموز) الكتاب الرسمي التالي:

(أتشرف بإبلاغ سموكم الملكي قرار حكومة الجمهورية الفرنسية بأنها ترجو منكم أن تغادروا دمشق بأسرع ما يستطاع بسكة حديد الحجاز مع عائلتكم وحاشيتكم ويكون تحت تصرف سموكم والذين معكم قطار خاص يتحرك من محطة الحجاز غدا في ٢٨ تموز الساعة الخامسة صباحا).

ورغم أن فيصل بعث ببرقية احتجاج إلى غورو وسلم نصها إلى جميع قناصل الدول في دمشق فقد رأى أنه لا مناص من تنفيذ حكم القوة مهما يكن جائرا ولذا فقد قام بحزم أمتعته ليغادر في صباح ٢٨ تموز دمشق بقطار خاص رافقه به وزير معارفه السابق ساطع الحصري وسكرتيره الخاص عوني عبدالهادي وكبير أمنائه إحسان الجابري ومرافقه العسكري تحسين قدري وطبيبه الخاص الدكتور أحمد قدري.

وعندما توقف القطار بفيصل في مدينة درعا يوم ٢٩ تموز وتقدم وجهاء حوران للترحيب به ألقت الطائرات الفرنسية فوق حوران منشورا تطلب به من الأهالي باسم قائد الحملة الفرنسية إخراج الملك في ظرف عشر ساعات وإلا فإنهم سيتعرضون لقنابل الطائرات. وتلقاء هذا الموقف الحرج غادر فيصل درعا إلى حيفا يوم ١ اب ١٩٢٠ وبعد أن بقي في حيفا عدة أيام غادرها إلى إيطاليا حيث استقر بمدينة (كومو) وهناك أعد مذكرة طويلة بسط فيها الحوادث التي تعاقبت على البلاد العربية بعد بدء الحرب العالمية الأولى وأعطى هذه المذكرة إلى الجنرال حداد باشا المعتمد العربي في لندن ليسلمها لوزارة الخارجية البريطانية.

وقد كان لانتهاء العهد الملكي في سورية أثر هام في مجرى الحركة العربية لا في بلاد الشام فحسب بل في مختلف البلاد العربية التي كانت خاضعة للحكم العثماني ايضا.

وبنهاية ملكية فيصل، انتهى ذلك العهد الذي دام حوالي السنتين والذي بدأ والنفوس مفعمة بعظيم الآمال وانتهى والمرارة تملأ كل قلب. ●

الهوامش

(١) تمكن الوطنيون من إسقاط إحدى هذه الطائرات في يوم ٧/٢٣ وقبضوا على طيارها في منطقة الديماس.

(٢) لا يفوتنا ان ننوه بان الاسلحة المستخدمة حتى من عناصر الجيش كانت على عدة انواع حيث كان فيها من النوع الانكليزي والالماني والتركي مما اجبر البكباشي شريف الحجاز على تقسيم عناصر القلب لثلاث مفارز حسب نوع اسلحتها وذلك ليسهل تموينها بالذخيرة إذا لزم الأمر.

(٣) انظر المخطط المرفق.

(٤) الأرقام المذكورة هنا هي ارقام ماخوذة من مصادر فرنسية عسكرية. وأما المصادر العربية فقد قدرت القتلى الفرنسيين بثلاثمائة قتيل.

(٥) لقد صح ما توقعه هؤلاء الوطنيون فقد صدر حكم الاعدام ومصادرة الأملاك بحقهم من قبل المحاكم العسكرية الفرنسية بعد دخول الجيش الفرنسي إلى دمشق. ومن هؤلاء: سعدالله الجابري، عبدالرحمن الشهبندر، جميل مردم، سعيد حيدر، خير الدين الزركلي، عثمان قاسم، خالد الحكيم، عمر شاكر، توفيق يازجي، يوسف ياسين، بهجت الشهابي، سليم عبدالرحمن، معين ماضي، رفيق التميمي، عزة دروزة، عبدالقادر سكر، شكري القوتلي، الشيخ كامل قصاب، نبيه العظمة، رياض الصلح، محمود فاعور، فؤاد سليم، عوني القضماني، ياسين دياب، شكري الطباع، محمد علي التميمي، رشيد طليع، الشيخ عبدالحلبي وغيرهم.

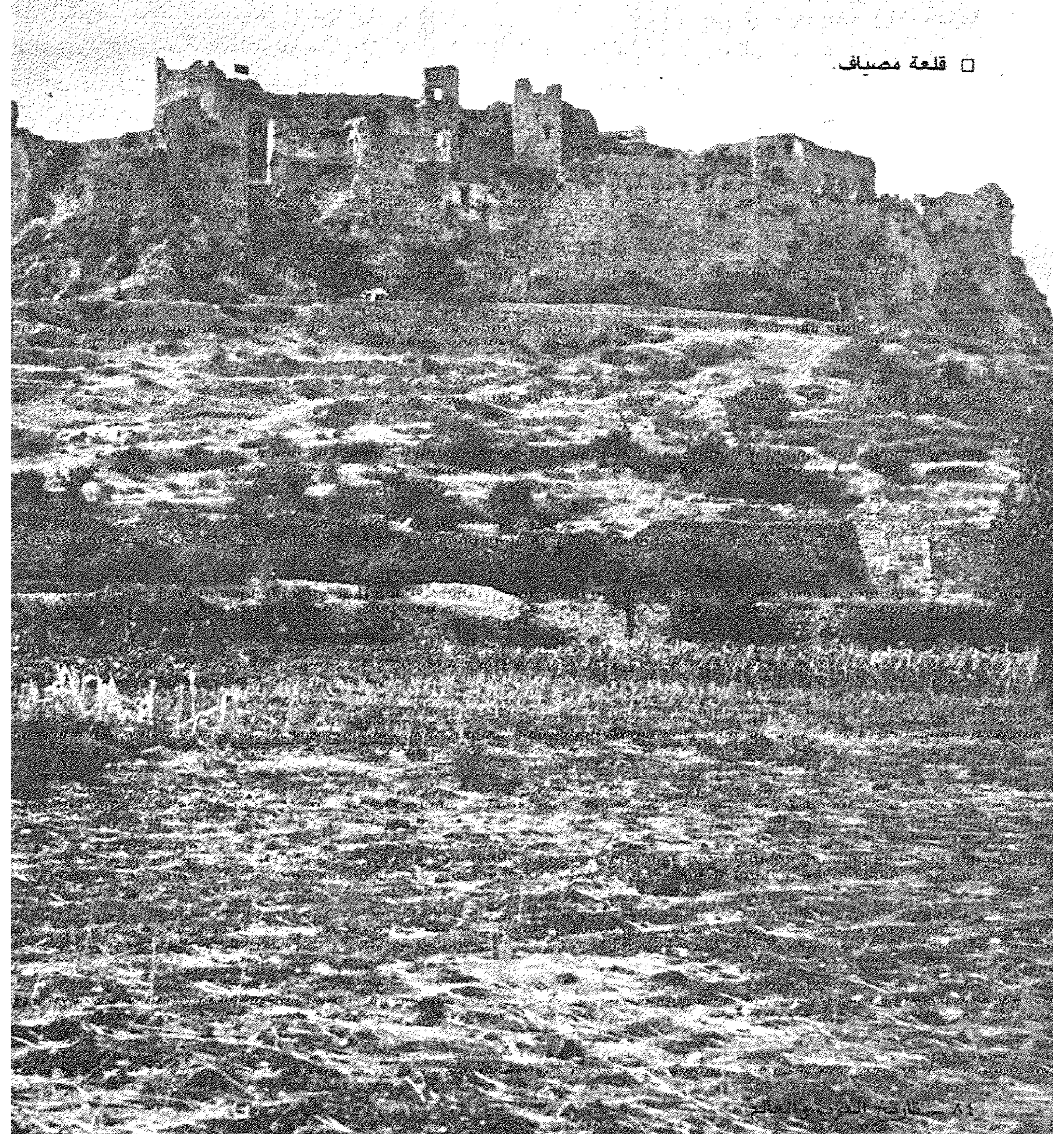
(٦) شكلت هذه الوزارة على الشكل التالي: علاء الدين الدروبي: للرئاسة، بديع المؤيد: للمعارف، يوسف الحكيم: للزراعة، عبدالرحمن اليوسف: رئيسا لمجلس الشورى، جميل الألشي: للحربية، جلال الدين: للعدلية، عطا الأيوبي: للداخلية، فارس الخوري: للمالية.

(٧) وزير الخارجية البريطانية.

(٨) رئيس البعثة السياسية الفرنسية بدمشق.

القِلاع أيام الحُروب الصّليبيَّة

تأليف : ڤولفغانغ مولر - ڤينر   ترجمة : العميد الركن محمّد وليد الجلاّد
مراجعة : الدكتور حسين سلمان سليمان



□ قلعة مصياف.

تفتقر المكتبة العربية إلى دراسات وأبحاث تتعلق بالقلاع التي كانت أيام الحروب الصليبية، ولسد هذا النقص قام مركز الدراسات العسكرية في دمشق، بترجمة دراسة وضعها بالانجليزية المؤلف الألماني ڤولفغانغ مولّر ـــ ڤينر، تكشف عن مرحلة هامة من مراحل تطور فن الحرب عند العرب، لشموله على عدد لا بأس به من القلاع التي كانت أيام الحروب الصليبية، وخاصة تلك التي استخدمت من قبل الطرفين.

فقد اضطر الغزاة تحت ضغط الحاجة،ولوجودهم في أراض غريبة بعيدة عن بلادهم، ورغبة منهم في المحافظة على ما امتلكوه، خشية أن يسترده أصحابه الأصليون المخرجون من ديارهم، إلى شغل القلاع والمدن المسورة القائمة وإشادة الجديد منها. ولم يكن من شأن هذه القلاع والمدن أن تحميهم ومواشيهم فحسب، وإنما تمكنهم من وضع أخصامهم تحت رقابتهم المستمرة. ولم يكن ذلك يتم عشوائياً، وإنما كانت هناك سلسلة من الحصون والقلاع، تحرس بعضها بعضاً على طول الشريط الضيق الذي كان يسيطر عليه الفرنجة، والذي كان يمتد على مسافة خمسمائة ميل، اعتباراً من سواحل البحر الأحمر وحتى ضفاف نهر الفرات، ولا يزيد عرضه في أقصى اتساع له عن ستين ميلاً . وانتشرت قلاع الصليبيين في شتى الأرجاء على امتداد السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وفي الأراضي الداخلية المتاخمة لحوضه الشرقي وفوق ذرى مرتفعات قبرص الصخرية، وعند الأكروبول الأثيني، وفي أعالي جبال اليونان.

وكانت متطلبات الموقف السياسي الراهن الجغرافية والاستراتيجية، على وجه العموم، والمستوطنات والتحصينات السابقة، والطرق والمخاضات والمضائق الجبلية والأماكن الصالحة لرسو السفن على وجه الخصوص، هي التي تفرض موقع كل قلعة من تلك القلاع، إلا أن أسلوب البناء، والهيكل العام للأبنية المشادة، ومخططها الأرضي في تلك المواقع لم يكن مقيداً ـــ على أية حال ـــ بالشروط الجغرافية والاستراتيجية وحدها، وإنما كان يتأثر ـــ بالدرجة نفسها ـــ بالتقاليد المعمارية المحلية الراسخة على مر العصور، في ظل تأثير التأثيرات الرومانية أو البيزنطية أو العربية أو الأرمنية، وما زلنا غير قادرين ـــ بسبب معرفتنا المحدودة بفن التحصين عموماً، وفن التحصين في القرون الوسطى خصوصاً ـــ على التثبت من درجة تأثر فن البناء المولد هذا بالتقاليد والخبرات التي جاء بها الغزاة الجدد من مواطنهم، ومما لا ريب فيه أن للتقاليد المستوردة دوراً بارزاً في هذا المجال، رغم أنها تأتي في المرتبة الثانية ـــ مبدئياً على الأقل ـــ بعد التقاليد المحلية، التي كان لها دورها الكبير والهام جداً، ذلك أن عدداً كبيراً من القلاع التي كانت قائمة قبل ذلك، ظل يستخدم على حاله الأصلي، وأن معظم القلاع التي شيدت حديثاً شيدها بناؤون وحجارة وفعلة محليون، استخدموا فيها مواد تتوفر في تلك البقاع.

وبمرور الزمن تضاءلت هيمنة التأثير المحلي على تطور العمارة وتصميم القلاع وأسلوب التحصين وصنعة البناء، نظراً للخبرة الواسعة التي اكتسبها فرسان الفرنجة طوال سنوات عديدة من الحملات العسكرية، وحرب الحصار في المناطق المجاورة للممالك والامارات التي أقاموها هنا، ويظهر ذلك بوضوح ـــ في الواقع ـــ في المباني الكثيرة التي يعود تاريخها إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر، والتي يبدو فيها طغيان تطورات مولدة مفردة، مثيرة للاهتمام على التقليد المحلي، استوردت عناصرها وصفاتها من أوروبا الغربية.

ولقد وقع اختيار المؤلف على اختيار القلاع التي تتناولها الدراسة التي وضعها، بتفصيل أكبر استناداً إلى الحالة التي آلت إليها في الوقت الحاضر بالدرجة الأولى، وإلى الظروف الراهنة أحياناً.

فلقد واجه الغزاة الصليبيون خلال مسيرتهم عبر قليقية وتحركاتهم التالية في سوريا وفلسطين، العديد من القلاع والمدن الحصينة التي كانت تابعة لبيزنطة في وقت من الأوقات والتي كان يحتلها المسلمون آنئذ. وكانت دفاعات تلك المدن تتألف غالباً من أسوار ساترة، تزينها أبراج عديدة، وتعززها

□ د. حسين سلمان سليمان: الجامعة اللبنانية ـــ كلية الآداب.

خنادق أو تحصينات خارجية خفيفة. وثمة مدينة واحدة، أو مدينتان، كانتا تملكان قلعة محصنة من العهود القديمة (مثل حلب)، أو شيدت فيها أثناء الحروب العربية البيزنطية (مثل انطاكية في عام ٩٧٥).

ولم تكن التحصينات الأصلية في معظم المدن ـــ باستثناء حالات قليلة ـــ تحظى برعاية أصحابها العرب بعد الفتوحات الاسلامية، ولم تنشأ دفاعات جديدة إلا في عدد محدود من المدن الساحلية في سوريا وفلسطين (مثل عكا وعسقلان وقيسارية)، أو في مناطق الثغور المتاخمة للحدود البيزنطية العربية، حيث كان خطر الهجوم جاثماً باستمرار. واعتباراً من بداية القرن العاشر، بدأ البيزنطيون والحكام المحليون من المسلمين وغيرهم تشييد عدد من القلاع الجديدة في جوار المستوطنات القديمة، بعد أن أصبح الدفاع عن أسوارها الكثيرة صعباً. وتتميز تلك المعاقل الحصينة عن القلاع البيزنطية السابقة بموقعها المنعزل، فوق مرتفعات وعرة صعبة التسلق، وبمخطط أسوارهاالتيتحيط بها بدون تنسيق لتتماشى مع تضاريس الأرض. وكانت هذه المعاقل تجمع بين مقر السيد الاقطاعي والمستوطنة المحصنة بشكل يؤهلها تماماً لحمل إسم «قلعة» بمفهومها في القرون الوسطى (مثل قلعة صهيون).

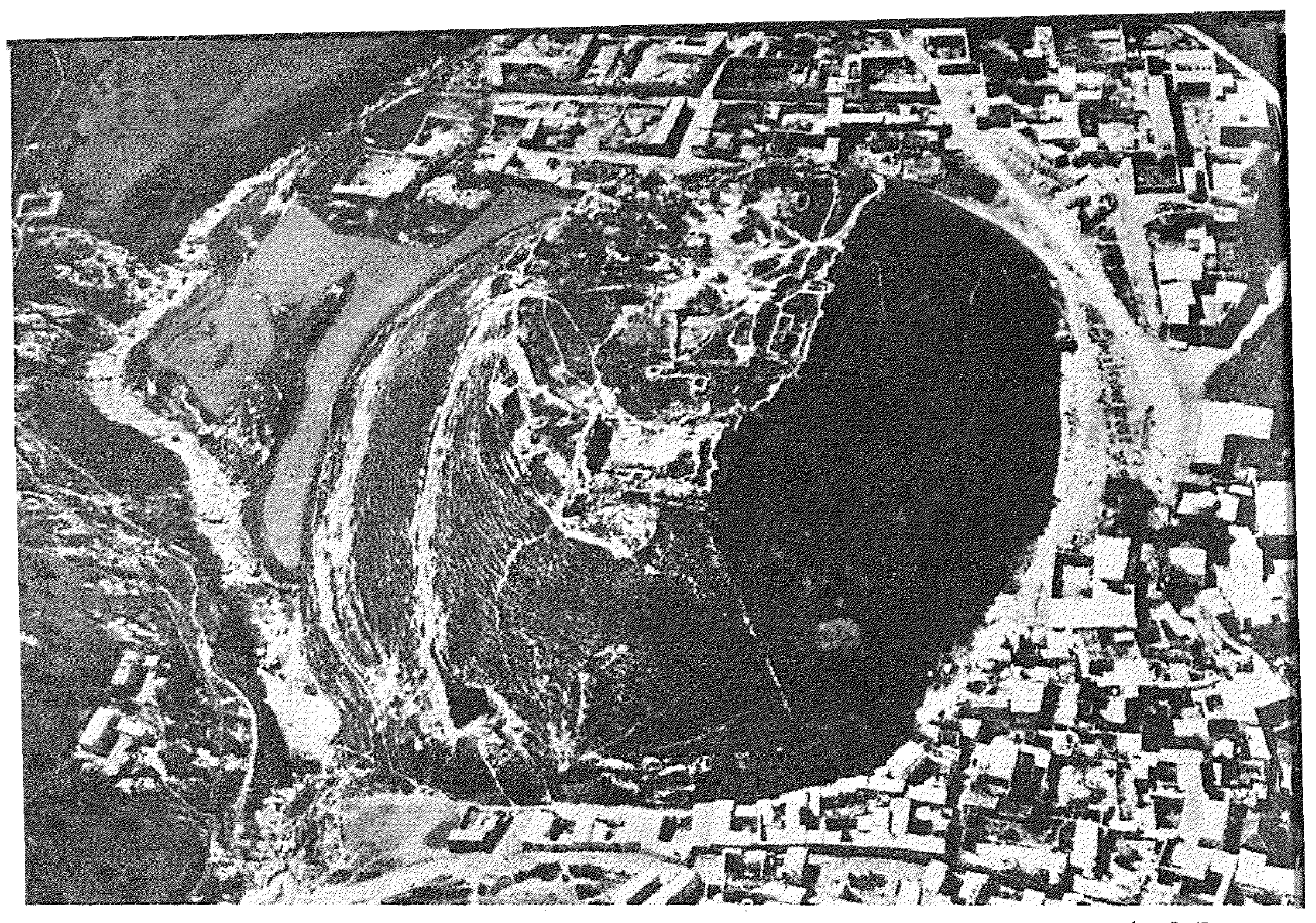
وكانت القلاع الجديدة التي شيدها الصليبيون منذ أيامهم الأولى، وعلى الدوام، قواعد هجومية مصممة لتكون مرتكزاً للقوات الفرنجية التي تحاصر المدن الساحلية الحصينة الضخمة، أو خطوط انطلاق للحملات الجديدة والغارات السريعة داخل الأراضي العربية، وذلك على النقيض من التحصينات القديمة التي استولى عليها الفرنجة وأعادوا بناء اقسام منها. وبالتالي فقد كانت معظم القلاع الجديدة ترتكز إلى مواضع جيدة الحماية ذات أهمية استراتيجية بالقرب من طرق القوافل الرئيسية أو بجوار المنافذ المؤدية إلى المدن الكبرى، وتؤمن أفضل الشروط الممكنة لمراقبة الأرض المحيطة.

كذلك كان الارتباط بالنظر بين القلاع المتجاورة هاماً جداً (والمثال على ذلك صافيتا) إلا أن المبدأ الرئيسي في تلك القلاع الجديدة، كما كان شأن القلاع التي أشادها البيزنطيون والأمراء العرب في القرنين العاشر والحادي عشر، هو أنها يجب أن تنسجم مع السمات السطحية (الطبوغرافية) المحلية، وأن تستغل الميزات الطبيعية للوسط الجبلي المحيط بها أكبر قدر ممكن. وكان يشاد معقل أو برج محصن قوي بشكل خاص فوق الرقعة التي تؤمن أفضل حماية طبيعية، بينما كانت تحاط اقسام القلعة الأكثر انخفاضاً واتساعاً على وجه العموم بدفاعات أقل مناعة.

وكانت أسوار القلاع الفرنجية وابراجها، ومعظمها مبني من الحجارة المتينة، أقوى وأمنع من تلك التي تحيط بالقلاع البيزنطية والعربية السابقة على الدوام. ولا يلاحظ وجود طراز قياسي موحد واضح الملامح بين هذه القلاع في المرتفعات الفلسطينية، بينما تطابق القلاع المعاصرة في المناطق الساحلية المستوية طرازاً ثابتاً يستند بوضوح إلى التقاليد النورماندية ومن المرجح أنها تمثل مساهمة الصليبيين الرئيسية في تطوير العمارة العسكرية في المشرق العربـي. وكانت هذه القلاع تتألف ـــ كما هو حالها في شمال فرنسا وجنوبـي انجلترا ـــ من برج متعدد الطبقات منيع للغاية (هو البرج المحصن) يحيط به سور ساتر وحيد متطاول، ويعزز في أكثر الأحيان بأبراج زاوية مع خندق عريض أو قناة مائية عريضة (ومن بينها مثلاً تل الصافية وصافيتا وقلعة يحمور). كما كانت تشاد أبراج محصنة من هذا الطراز في القلاع الكبرى (مثل ثلعة صهيون) لتعزيز النقاط الضعيفة فيها بشكل خاص، ولم تكن هذه الأبراج المحصنة موجودة في القلاع البيزنطية، وهي نادرة في التحصينات الأرمنية التي جاءت بعدها.

كذلك يشاهد وجود نماذج أولية أصيلة للشرفة الخارجية المكوّاة (المجهزة بكوى للرمي) منذ القرن الميلادي وكانت منتشرة على نطاق واسع في العصور الوسطى.

بالاضافة إلى هذه القواعد الهجومية التي كان معظمها يحتل مواضع على الخطوط الخارجية، اقيمت قلاع فرنجية عديدة على الشريط الساحلي، وعلى المنحدرات الغربية للجبال المتاخمة له. وفي المناطق الداخلية شرع عدد كبير من الاقطاعيين ـــ كبيرهم وصغيرهم ـــ يبتنون مقرات ثابتة لأنفسهم في مواقع كانت محصنة في الغالب، استولوا عليها من الأمراء العرب بقوة السلاح أو بالمكيدة (مثل قلعة الحصن وقلعة صهيون وقلعة المرقب) ولا يعرف إلا القليل عن المخطط الأصلي لهذه المعاقل ومظهرها، لأن معظم القلاع التي ابتناها الاقطاعيون قبل نهاية القرن الثاني عشر أو في القرن الثالث عشر على أبعد تقدير،



□ قلعة حارم.

انتقلت فيما بعد إلى حوزة طوائف الرهبانيات الفرسانية القوية، وخضعت لاعادة بناء وتعديل جذريين نتيجة لذلك.

وشهدت الفترة التاريخية التي تلت استسلام قائد الحملة الصليبية السادسة الملك الفرنسي لويس التاسع في شهر نيسان من العام ١٢٥٠، أن دب الضعف السياسي والعسكري في صفوف الفرنجة، فقامت بسبب ذلك ذروة التحصينات الفرنجية في المشرق ونهايتها معاً برغم هذا الضعف بالذات، فأنتجت نماذج رئيسية من القلاع ما تزال قائمة حتى الآن ونخص بذلك مجموعة التحصينات الرئيسية للمدن التي خضعت لتحسينات مستمرة اعتباراً من منتصف القرن الثالث عشر فما بعد. وتكشف هذه الأخيرة التبدل الواضح في التركيب الاجتماعي للدولة الفرنجية. فقد كانت المدن تحصن في البداية بأسوار بسيطة تحيط بها إلى درجة تجعلها آمنة ضد أي هجوم مباغت. ويدل الدفاع عند طرطوس وجبيل على سبيل المثال، على أن القلعة وحدها هي القوية إلى درجة تكفي لمقاومة حصار فعلي. وبسبب ازدياد كثافة السكان في المدن الساحلية الفرنجية التي كانت تشكل المقرات الرئيسية للسلطة الروحية والمدنية، ناهيك عن تعاظم أهميتها كمراكز للحياة الاقتصادية وطرق المواصلات التجارية، كان لا بد من الاعتناء ببنائها بشكل أفضل والاستزادة في تحصينها أكثر مما كان متبعاً حتى ذلك الحين، ما دام الخطر ما يزال محدقاً بالساحل والأرض الداخلية. ومما يؤسف له أنه لم يبق سوى القليل من هذه التحصينات، وليس من مصدر آخر لزيادة معرفتنا عنها سوى الحفريات في المدن التي خربت وهجرت، بعد أن طرد الفرنجة منها (عسقلان وأرسون وقيسارية وطرابلس)، بينما لم يبق في تلك المدن التي ظلت قائمة بعد العام ١٢٩١ (عكا وصور وصيدا وبيروت) كلها سوى اثار هزيلة لأسوار متداعية لا قيمة لها ولا فائدة أزيلت في الأزمنة التي تلت.

وعلى كل حال فإن مجموعة البقايا المتناثرة من الأوصاف المعاصرة تمكننا من الاستدلال بأن بعضاً



□ قلعة شقيف ارنون (بوفورت).

من هذه التحصينات كان قوياً للغاية، فالأسوار الثلاثية التي شيدت على الجانب البري من صور تتمتع بشهرة خاصة، ومثلها تحصينات مدينة عكا التي كانت تتألف من سور مضاعف تخفره أبراج على امتداده، وكانت الأسوار التي تحيط بهذه المدن تعزز بحصون بارزة منخفضة أو أبراج (مستطيلة الشكل عامة) مقامة بفواصل منتظمة إلى حد ما (٢٥ ــ ٤٠ متراً)، وتتحدد هذه الفواصل بمدى رمي السهام أو القذائف. وتحف بالأسوار من جهة الخارج خنادق أو أقنية عريضة تملأ بالماء غالباً مع بعض التحصينات الخارجية البسيطة في بعض الأحيان. وكانت بوابات المدن بصورة عامة جيدة التحصين، رغم أنها نادراً ما كانت تحظى بمظهر التعقيد المعماري الذي للقلعة أو معاقل الحراسة فيها. وغالباً ما كانت تحرسها أبراج ملاصقة لها، أما الوصول إلى الداخل فكان محمياً بمنعطف أو منعطفات بزوايا قائمة غالباً بالاضافة إلى سلسلة من غرف البوابات التي يمكن إغلاقها وترمى بالنار من الأعلى أو من الجوانب.

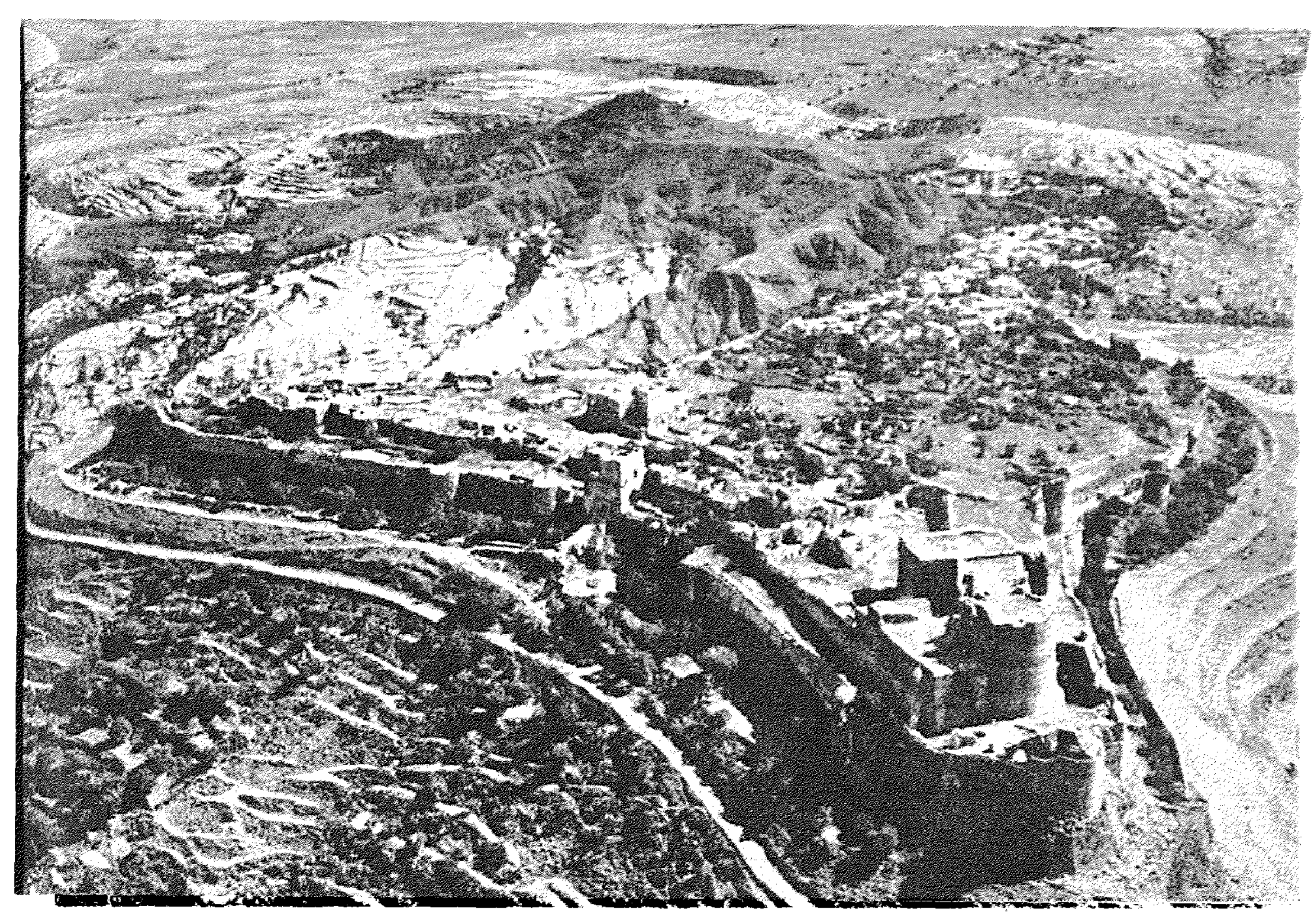
وقد جهزت جميع المرافىء لمنشآت دفاعية خاصة، ونظراً للحجم المتواضع للسفن التي كانت تمخر البحر في تلك الأيام، فقد كانت معظم المرافىء مجرد خلجان صغيرة محمية غالباً بجرف صخري عريض مع مكاسر صنعية تؤمن لها عادة حماية إضافية. وعند أطراف الجروف أو المكاسر التي تتحكم بمدخل المرفأ كانت تقام حصون أو أبراج قوية ومنيعة تمتد بينها ــ طبقاً للتقليد القديم ــ سلاسل حديدية تشكل بوابة الميناء، وكانت تنصب عندها مجانيق أو عرادات[١] لقصف السفن المعادية (حصون المرافىء في صور وصيدا وجبيل، وابراج الحصار في عكا وبيروت واللاذقية وغيرها). وكان المرفأ ينفصل غالباً عن المدينة بأسوار مانعة. أما الأرصفة فكانت نادرة جداً وكانت السفن ترسو طبيعياً على الساحل الرملي المنبسط، أو تلقي مراسيها ضمن المرفأ (الجون).

---

(١) العرادة: هي أصغر من المنجنيق، وكان الناس يسمونها منحنيقاً شيطانياً، وهي عبارة عن عصا فيها حبل يرمي بعد الرفل (التحريك) بالحجارة بيده كالمقلاع.



□ قلعة حلب.



□ قلعة المرقب.

وتبنى الفرنجة في إقامة تحصينات المدن القوية هذه شكلاً من اشكال العمارة المشرقية كان قد تأسس منذ زمن طويل، ولم يمكنهم تركيبهم الاجتماعي المتفاوت في بلادهم من تجاهله أو الاستخفاف به بينما استمر تطوير بناء القلاع في الاتجاه الذي تم تبنيه منذ منتصف القرن الثاني عشر، عندما[4] حدث تحول عن القواعد الهجومية الخفيفة التحصين إلى المعاقل الدفاعية الأمنع تحصيناً، أو بكلمة أخرى، كان هنالك ميل إلى تعزيز القدرات الدفاعية للقلاع المنفردة. كما أن فن تحصينات القرون الوسطى لم يعد ينتج في حينه أية ابتكارات هامة يمكن تمييزها في الواقع عن تلك التي أقيمت في العالم القديم. إذ اكتفى الفرنجة أيضاً بتكرار العناصر التي كانت تستخدم فعلاً، أو بالأحرى، راحوا يزيدون في عدد العناصر الصنعية للمعالم المعمارية التقليدية، أو يضخمون ابعادها، فاتجهوا إلى تقوية الجدران الساترة التي تعتبر العمود الفقري لأية منظومة دفاعية بحيث تقاوم القصف أو اللغم (حفر الأنفاق تحتها) أو الهزات الأرضية عن طريق زيادة سماكة البناء وإقامة الأسوار التي تستدق تدريجياً بالارتفاع (جدران الحصون المنحدرة) على الطريقة العربية، واستخدام الأعمدة القديمة مداميك داخل الجدران.

وفي الوقت نفسه كانوا يزيدون في مناعة تلك الأبنية بزيادة عدد كوات الرمي فيها، وإقامة طبقات من الشرفات الدفاعية متراكبة فوق بعضها بعضاً تخترقها فتحات للرمي، وببناء شرفات بارزة ذات كوى. وكانت الأبراج عادة مستطيلة الشكل إلا أنها أخذت تتحول احياناً إلى أشكال نصف دائرية اعتبارا من اوائل القرن الثالث عشر فما بعد، تحت التأثير الأرمني ـ على الأرجح ـ مع تقويتها بما يتناسب مع الاجراءات السابقة وتعديلها، بحيث يمكن الرمي منها على طول الجدران المجاورة لها، وبحيث يمكنها المساهمة على هذا النحو بتعزيز الدفاع عنها.

وقد ركز المعماريون العسكريون اهتمامهم بشكل خاص على بناء البوابات، رغم أن السجلات المعاصرة تحدثنا بأنها نادراً ما كانت تتعرض لهجوم مباشر من جانب المحاصرين، الذين كانوا لا يبرحون يحتشدون على طول الأسوار الساترة. ولم تكن التقوية المطلوبة لبوابات الدخول تؤمن بتقوية


□ قلعة شيزر



□ قلعة صلاح الدين (صهيون).



□ قلعة الحصن.

الجدران والحواجز المختلفة (الشعريات الحديدية، والجسر المتحرك والأبواب وغيرها) وزيادة عدد نقاط الرمي الجانبي في الداخل فحسب، بل وبمضاعفة العناصر الصنعية بطريقة يمكن تكييفها فيها بمهارة مع الأرض، بحيث يمكن رميها جانبياً وبرمايات مؤثرة من الشرفات المحمية جيداً. وانطلاقاً من مبدأ ضرورة مضاعفة المعالم المفردة في القلعة أخذ بناؤو القلاع الجديدة يتجنبون إقامة الأسوار المفردة ويبنون عوضاً عنها أسواراً مزدوجة، بينها فسحات مكشوفة (مثل قلعة الحصن والمرقب) مع زيادة عدد الأبراج والخنادق، أو يشيدون تحصينات خارجية بسيطة، يمكن منها إبقاء المجانيق ذات المدى المحدود على مسافة آمنة من التحصينات الرئيسية. وبالاختصار يستطيع المرء أن يصور الاتجاه السائد هنا بأنه محاولة من جانب المدافعين للاقتصاد بالطاقة البشرية عن طريق مضاعفة الموانع الدفاعية وتقويتها، أو بكلمة أخرى الاستعاضة عن الانسان بالمادة بحيث يجبرون المحاصرين على استهلاك أكبر كمية من معدات الحصار والطاقة البشرية التي تتناسب معها. ولا يمكن حتى الآن تقدير الامتداد الكامل لتأثير هذه المرحلة المتطورة الأخيرة في فن التحصين في المشرق على التطورات التالية للعمارة العسكرية في القرون الوسطى سواء في فرنسا أو في إيطاليا.

تلك هي الملامح الرئيسية لتطور الفن المعماري للحصون في المشرق، كما تضمنت الدراسة وصف اهم القلاع التي ما تزال موجودة آثارها حتى اليوم، من حيث موقعها وتخطيطها واهميتها وتاريخها اعتباراً من بداية الحروب الصليبية كما تضمن الكتاب مجموعة من اللوحات المصورة لأهم المدن المحصنة والقلاع (١٦٠) لوحة مع شرح لمحتويات اللوحة. ●

القلاع أيام الحروب الصليبية ــ تاليف ڤولفغانغ مولّر ــ ڤينر. ترجمة العميد الركن محمد وليد الجلّاد، منشورات مركز الدراسات العسكرية ــ دمشق، ١٩٨٢

سورية الحديثة
الاستمرارية في التقدم

د. عادل زعبوب

التقدم قانون أصيل في تاريخ البشرية، لأن تاريخ البشرية ذاته في تقدم مستمر لمواجهة معوقات وعقبات لا حصر لها سواء معوقات طبيعية أم اجتماعية أم عملية. وجوهر التقدم يكمن في سيطرة الانسان على الضرورات الطبيعية والاجتماعية.



إن التقدم الذي يميز القطر العربي السوري خلال تاريخه الطويل والعريق، قد تعرض لفترات انحراف وإعاقة كان لا بد للثورات والانقلابات من أن تسترجع السير الطبيعي للتطور، وهذا ما يفسر لنا كثرة الانقلابات التي حدثت في سورية منذ الاستقلال في ١٧ نيسان ١٩٤٦. وعدد هذه الانقلابات حتى ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ بلغ ١٧ انقلاباً، وهذا ما شوه سمعة القطر في الخارج على أنه البلد الذي يميز بعدم الاستقرار.

إنما أيا من هذه الانقلابات التي بدأها قائد الجيش آنذاك حسني الزعيم في ٣٠ آذار ١٩٤٩ لم تتحول إلى ثورة، لأنه لم يكن لديها رؤية سياسية واضحة، ولا رؤية اجتماعية تتجاوب والتطلعات الشعبية التقدمية.

شيء من التاريخ:

بدأ تاريخ سورية الحديثة بعد الحرب العالمية الأولى عقب انهزام تركيا ودخول جيوش الثورة العربية دمشق في الثالث من شهر تشرين الأول عام ١٩١٨، وأعلن الأمير فيصل تشكيل حكومة دستورية مستقلة شاملة جميع البلاد السورية وأسند رئاستها إلى علي رضا باشا الركابي.

وبتاريخ ٦ آذار ١٩٢٠ انعقد المؤتمر السوري في دورته الثالثة وأصدر في اليوم التالي قراره التاريخي بإعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية بما في ذلك فلسطين، والمناداة بفيصل ملكا دستوريا عليها. وتألفت أول وزارة دستورية برئاسة رضا باشا الركابي، وقد عُين رضا الصلح (والد رياض الصلح رئيس وزارة الاستقلال اللبنانية) وزيرا للداخلية فيها.

وفي ٢٥ تموز ١٩٢٠ دخلت القوات الفرنسية دمشق وغادرها فيصل، وخضعت البلاد للاحتلال الفرنسي وتم تقسيم بلاد الشام إلى أربع دويلات: سورية ولبنان (تحت الانتداب الفرنسي)، فلسطين وشرقي الأردن (تحت الانتداب البريطاني)، وجزئت سورية بدورها إلى عدد من المناطق منفصلة إداريا بعضها عن البعض الآخر.

لكن هذه التقسيمات أحدثت موجة استنكار كبيرة والعديد من الثورات ضد الاحتلال الفرنسي وأشهرها الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥.

وفي ١٧ نيسان عام ١٩٤٦ حصلت سورية على استقلالها الوطني، وتم طرد الفرنسيين من اراضيها، وكانت سورية أول بلد عربي يتوج نضاله بالحصول على الاستقلال.

ولقد شاركت سورية في ٢٢ آذار عام ١٩٤٥ بتوقيع ميثاق جامعة الدول العربية، كما أنه قد وجه إليها الدعوة في ٢٨ آذار ١٩٤٥ لحضور

□ د. عادل زعبوب: وزارة الاعلام ـــ دمشق.



مؤتمر سان فرنسيسكو الذي عقد في ١٥ نيسان ١٩٤٥.

وفي عام ١٩٤٨، إثر احتلال الصهاينة بدعم من الامبريالية العالمية جزءا من فلسطين وطردها الشعب العربي الفلسطيني من وطنه، خاضت سورية مع الأقطار العربية المستقلة آنذاك حرب فلسطين.

وبعد ذلك تعرض القطر العربي السوري لمؤامرات استعمارية؛ وكان للقوى الوطنية والتقدمية بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي، دور أساسي في النضال ضد هذه المؤتمرات الاستعمارية، والتفت الجماهير في سورية حول حزب البعث العربي الاشتراكي وسائر القوى الوطنية والتقدمية الأخرى التي ساهمت جميعها في قيام الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨.

وكان مقدرا لهذه الوحدة الاستمرار والتقدم، إلا أن التآمر عليها كان كبيرا من الانفصاليين والاقليميين والرجعيين وأعداء الأمة العربية من الداخل والخارج التي نجحت في فك عرى الوحدة بين القطرين الشقيقين مصر وسورية في ٢٨ أيلول ١٩٦١.

ولكن ثورة الثامن من آذار التي قادها حزب البعث العربي الاشتراكي عام ١٩٦٣ أعادت إلى سورية وجهها الوحدوي العربي الأصيل، بادئة بذلك عهدا جديدا في تاريخ سورية المعاصر.

ثورة الثامن من آذار والحركة التصحيحية:

لقد كانت ثورة الثامن من آذار تعبيرا صادقا وموضوعيا عن أماني الشعب العربي السوري وتحقيقا لرغباته في الوحدة والحرية والاشتراكية، وبالتالي فهي ليست مجرد تغيير في البنية السياسية للدولة إنما انقلاب كبير حدث عندما أصبحت علاقات الأفراد الاقتصادية عائقا حال دون نمو وتقدم قوى الانتاج وعندما استخدمت الطبقة الرجعية قوة الدولة وسلطانها للابقاء على علاقات الانتاج القديمة وتدعيمها؛ لذا كان لا بد للقوى التقدمية من أن تستولي على السلطة لتحل التناقضات الاقتصادية والطبقية التي تعرقل التطور الاجتماعي.

وهكذا انصرف حزب البعث إلى التطبيق الاشتراكي ووضع موضع التنفيذ ما يمكن أن يعتبر ثورة اجتماعية شاملة. واستطاع تجاوز الأزمات والهزات التي مر بها. ولقد اعترضت مسيرة الحزب: الحرب العدوانية التي شنتها اسرائيل في ٥ حزيران عام ١٩٦٧ وكان من

نتائجها احتلال منطقة الجولان، وانحراف في السياسة العامة كان من نتائجه عزلة سورية في المجالين العربي والدولي؛ والابتعاد عن تحقيق آمال الجماهير وكان من نتائجه هوة سحيقة تفصل الحكام عن جماهير الشعب، وتسخير السلطة لاذلال المواطنين وهدر كرامتهم.

لتصحيح كل ذلك، ولقيادة حرب التحرير والبناء، والانفتاح على الوطن العربي وعلى العالم، قامت من قلب الحزب نفسه حركة تصحيحية قادها الرئيس حافظ الأسد في ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٠، أطاحت بفئة المتسلطين التي شوهت مبادىء ثورة الثامن من آذار وقضت على حماس الجماهير؛ وأقامت سلطة وطنية تقدمية مخلصة أعادت مسيرة الحزب والدولة إلى التوازن والانفتاح ضمن ثورة ٨ آذار ذاتها وضمن مبادئها في الوحدة والحرية والاشتراكية.

* * *

بعد الحركة التصحيحية أصبح القطر عاملا مؤثرا في السياسة العالمية بعد أن كان غائبا عنها، وذلك بفضل السياسة الحكيمة والواعية التي اتبعها الرئيس حافظ الأسد، وبفضل الالتزام القومي الذي لا يلين والذي أصبح رائد الرئيس الأسد.

فالرئيس الأسد، كما وصفه معظم من كتب تاريخ القطر في هذه المرحلة ــ يتصف بالحكمة والروية والنظرة الثاقبة للأمور.

ولقد شهد القطر في ظل قيادة حافظ الأسد من الاستقرار ما لم يشهده منذ فجر الاستقلال، وهذا الاستقرار لم يكن له أن يتحقق لولا الثقة الكاملة المتبادلة بين القائد والشعب. فلقد آمن القائد بشعبه، ومنح الشعب قائده الثقة الكاملة؛ عرف الشعب بقائده الاخلاص والأمانة والصلابة في اتخاذ المواقف، وعرف القائد بشعبه العزة القومية والشجاعة والصدق، ولا غرو في ذلك فالقائد ابن الشعب.

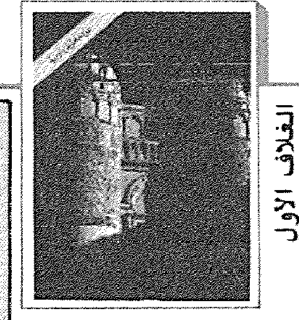
* * *

بعد هذه النظرة السريعة على تاريخ القطر العربي السوري الحديث والمعاصر من المفيد أن نشير إلى أن سورية هي أول قطر عربي تعلن في وثيقة دستورية انتماؤها إلى العروبة، فقد ورد في الدستور الذي صدر في ٥ أيلول عام ١٩٥٠ أن سورية جزء من الوطن العربي.

كما وأن النشيد العربي السوري لم يأت أبدا على ذكر كلمة سورية إنما يتغنى بالعرب وبالعروبة. لذلك ليس من المستغرب أن يطلق على سورية وبحق أنها قلب الوطن العربي.




الغلاف الأول

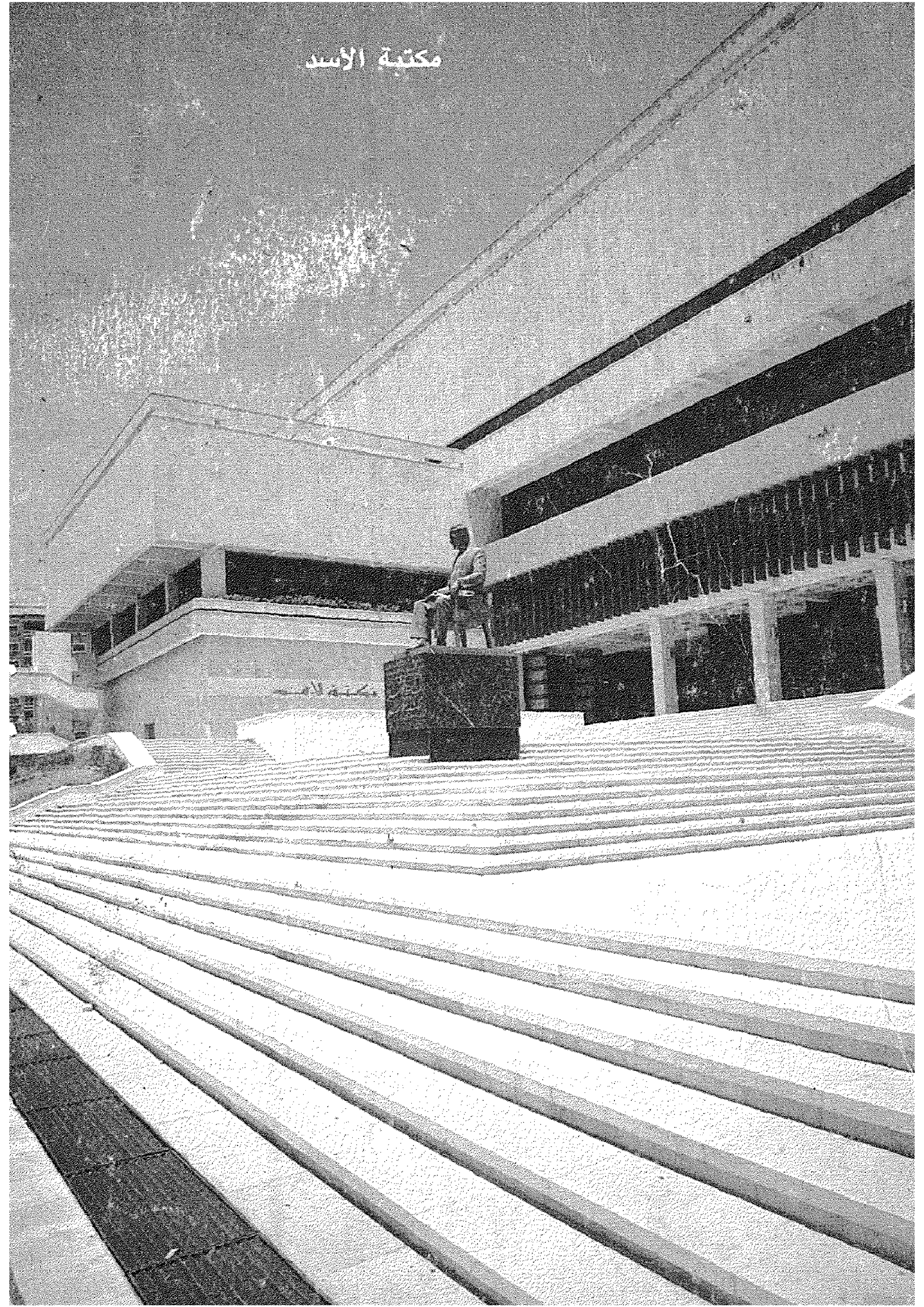


قصر الحير الغربي
من كتاب: روائع من
العمارة العربية الاسلامية في سورية

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر.

الغلاف الأخير

مكتبة الأسد


مكتبة الأسد